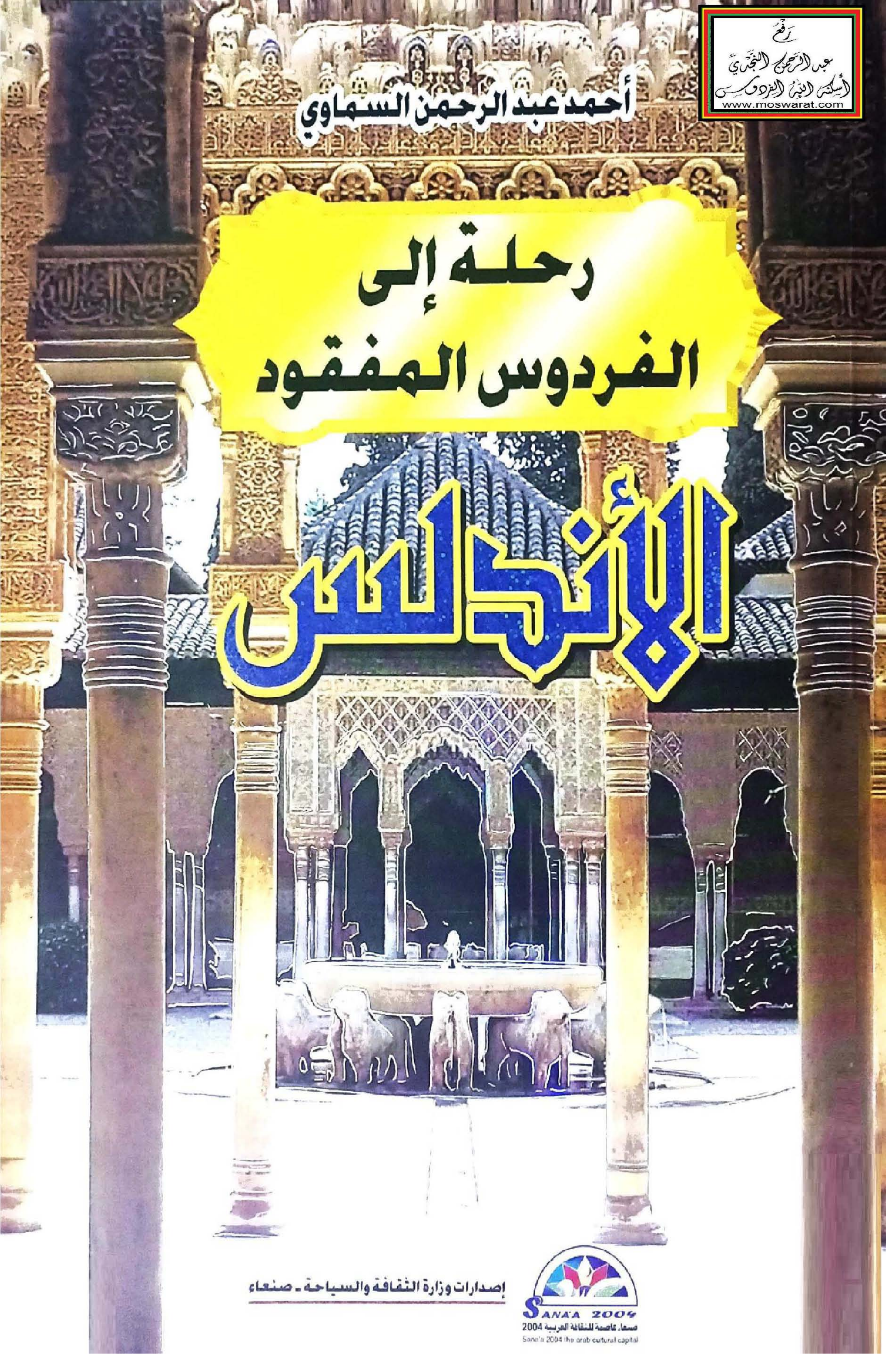
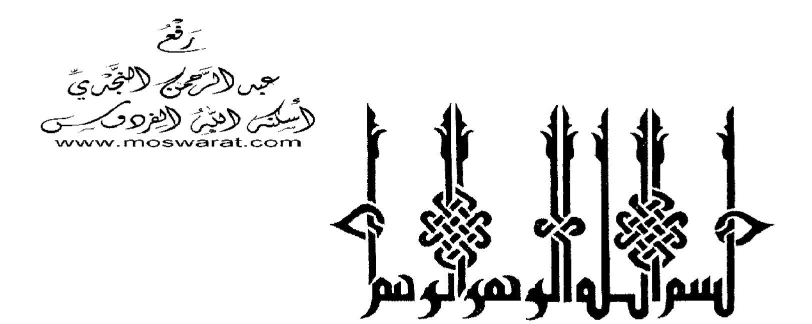

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
أحمد عبد الرحمن السماوي
رحلة إلى
الفردوس المفقود
الأندلس
إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء
SANA'A 2004
صنعاء عاصمة للثقافة العربية 2004
Sana'a 2004 the arab cultural capital



هذا الكتاب رحلتان لا رحلة واحدة

الرحلة الأولى قام بها المؤلف إلى (اسبانيا). ونقل إلينا ما رأى وما سمع من ملامح الحياة الجديدة. ومن آثار الحضارة العربية الإسلامية القديمة.

أما الرحلة الثانية فقد قام بها المؤلف بوجدانه ومشاعره إلى ربوع (الأندلس) فردوس العرب المفقود، حيث العطر والسحر. وحيث أريج التاريخ لا يكف عن التضوع والانتشار، وراح في هذه الرحلة يستنطق التاريخ أحداثه. ويستلهم منه حكمته وعبره.

الأندلس، الحمراء، قرطبة، غرناطة: أسماء – إذا ذكرت – ألهبت خيال العربي وأذكت مشاعره، فكيف به إذا وقف على أطلالها. وتلمس آثارها. ومشى في دروبها ووديانها، وشاهد قلاعها وأبراجها وقصورها ومساجدها ومدارسها. يتألق فيها وهج التاريخ، ويوحي إليه بأسماء موسى، وطارق، وعبد الرحمن، وابن رشد. وابن حزم، وابن زيدون، وأخيراً أبو عبد الله الصغير يطلق زفرته الأخيرة ممتزجة بدموعه، مودعاً الحمراء، ووالدته الحرة عائشة تربت على كتفه قائلة:

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

إن في ذلك لعبرة!!



أحمد عبد الرحمن السماوي

رحلة إلى الفردوس المفقود

رحلة إلى الأندلس



إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء

١٤٢٥هـ - 2004 م

رقم الإيداع بدار الكتب بصنعاء

(٢٠٠٤/٧٣٠)

الناشر

الجمهورية اليمنية

وزارة الثقافة والسياحة

صنعاء - ص.ب. (36)-(237)

هاتف: 235114 - فاكس: 235113

بريد الكتروني: moc@y.net.ye

من بهاء صنعاءَ.. وتجليات عبقها.. في عام تتويجها عاصمةً للثقافة العربية.. يأتي هذا الاحتفاءُ بمجد الكلمة.. وجلال أنوارها.

في بدء الوعي الإنساني كانت الكلمة..

وعلى رأس فعاليات هذا العام الاستثنائي تأتي هذه الإصدارات.. حدثاً يتوج صنعاء فضاءً شاسعاً للثقافة والتاريخ والجمال والخصوصية.

خالد عبد الله الرويشان

وزير الثقافة والسياحة

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل

زفرة العربي

إنه مكان معروف في غرناطة يجذب آلاف السياح يسميه الإسبان (EL UITIMO SUSPIRO DE LMORO) ومعناه « زفرة العربي الأخيرة » وهو المكان الذي أطل منه أبو عبد الله الصغير المنكوب على الحمراء بعد أن رحل عنها ، لقد نظر إليها النظرة الأخيرة ، وشاهد القسس وهم يتسابقون على رفع الصلبان في قمم المباني الشاهقة في الحمراء ، والبعض منهم يثبتون الأجراس في مآذن المساجد ، بينما ألحان الشكر المسيحية تتردد أصداؤها في جنبات الحمراء . ولم يتمالك نفسه وزفر زفرة عميقة أتبعها بعبراته ، وكانت والدته الحرة عائشة بجواره تربت على كتفه وتمسح دموعه وتقول له :

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

وزفرة الملك المنكوب هذه لم تكن الأولى ، فقد سبقتها زفرات من أمراء وحكام أمثاله ، حينما تساقطت دويلاتهم الممزقة واحدة تلو الأخرى ، من حدود فرنسا في الشمال حتى اختتم الأمر بسقوط غرناطة في الجنوب ، والمأساة المؤلمة الزفرات التي تلت مشهد سقوط غرناطة ، إنها زفرات الأمهات اللاتي كان أولادهن ينتزعون بالقوة من أحضانهن ؛ لكي يعمدوا بالماء المقدس ، والفتيات المسلمات اللاتي كن يغتصبن بالقوة ، ثم تلا ذلك زفرات الآلاف من المسلمين والمسلمات الذين كانوا يساقون قسراً للكنائس لتحويلهم عن دينهم بالقوة ، ومن كان يتردد منهم كان مصيره النفي أو السجن أو الحرق .

والتاريخ اليوم يكرر نفسه فبعد سقوط غرناطة بأربعمئة عام في وقتنا الحاضر ، نفس المشاهد تتكرر ... الزفرات والحسرات تتصاعد بعد سقوط فلسطين والقدس ، ومذابح بيروت ومخيمات صبرا وشاتيلا ، وتتعدد الزفرات والتأوهات والسبب واحد ألا وهو التمزق والتشتت والولاءات المتعددة التي أودت بشبه الجزيرة الأيبيرية التي دامت فيها العروبة والإسلام ثمانمئة عام .

نعم ، لقد قدر لي أن أزور الأندلس ، وتجولت في ذلك الفردوس المفقود ، وكان لي في كل موقع زرته زفرة وحسرة ، ولكن هيهات يغني الدمع هيهات ، ويكفي العربي أن يمكث اليوم في زاوية بيته ، يشاهد التلفاز ويسمع المذياع ، وسوف يسمع ويشاهد عشرات المشاهد المؤلمة ، الكفيلة بأن تجعل قلبه يقطر دماً .

لقد سبق أن نشرت سلسلة من المقالات في صحيفة الثورة التي تصدر في صنعاء حول نفس الموضوع ، ولكن اقترح كثير من القراء أن تجمع تلك المقالات في كتيب ، وقد دفعني ذلك في الواقع إلى كتابة الموضوع ، وإعادة ترتيبه من جديد .

ولا أدعي أنني قد أتيت في هذا الكتيب بما لم تأت به الأوائل ، فالمكتبة الأندلسية غنية بعشرات المراجع لكتّاب وهبوا أنفسهم ووقتهم لمثل هذه الغاية .

لقد اعتمدت في جهدي هذا على وصف مشاهداتي للأماكن التي زرتها ، واستعنت ببعض ماورد في بعض المصادر حول تلك الأماكن ، وماارتبط بها من أحداث . وسيلاحظ القارئ أنها مجرد لمحات عابرة لاتشبع للباحث رغبة ولاتروي له ظمأ ولا تغنيه عن الرجوع إلى المصادر التي أشرت إلى بعضها في الهوامش أو في مسرد المراجع . أما الصور فقد اخترتها بعناية من بين مئات الصور التي التقطتها بنفسي ، واستعنت في أماكن محدودة ببعض الجهات التي تملك تجهيزات فنية في مجال التصوير ، وبجوار الصور هناك مجموعة من الخرائط لمناطق الأحداث ، لا شك ستسهل للقارئ المتابعة .

ولا يسعني في هذا المجال إلا أن أقدم شكري وعرفاني بالجميل للوالد القاضي عبد الوهاب السماوي ، والوالد القاضي إسماعيل بن علي الأكوع اللذين أمداني بنفائس مافي مكتباتها من التاريخ الأندلسي والقاضي أحمد الصرفي الذي قرظ الكتاب بقصيدة لم يتسع المجال لنشرها .

كما أقدم شكري العميق لكل الذين شجعوني على المضي قدماً في هذا الجهد المتواضع وهم كثيرون .
والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .



صنعاء

في ١٥ / ٢ / ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم: د. عبد العزيز المقالح

هذا الكتاب رحلتان لا رحلة واحدة ؛ الرحلة الأولى قام بها المؤلف الصديق الأستاذ أحمد عبد الرحمن السماوي إلى (أسبانيا) ونقل إلينا ما رأى وما سمع من ملامح الحياة الجديدة في تلك البلاد ، وما تبقى من ملامح الحياة القديمة ، ومن آثار (الأندلس) العربية ، وهي ملامح وآثار لا تبدو في خطوط الفن المعماري العربي الذي يغالب الزمن ، ولا في التراث العربي الواسع الثراء ، ولا في الوجوه التي امتزج فيها الدم العربي بالدم الأسباني ، وإنما تبدو كذلك في إيقاع الحياة وفي حركة التعبير العامة التي تجعل من أسبانيا المعاصرة نموذجاً شديد الخصوصية في المحيط الأوربي المتماثل .

أما الرحلة الأخرى في هذا الكتاب ، فيقوم بها المؤلف نفسه ولكن ليس إلى (أسبانيا) وإنما إلى (الأندلس) ، وهي رحلة ـ كما سنرى ـ قام بها الصديق الباحث بوجدانه وعقله في كتب التاريخ ، يستطلع ويسائل ويسجل على شاشة قلبه ما سبق له أن سجله بشاشة عينيه من مظاهر إيقاع الزمن الخالد على أرض ذلك البلد الذي كان قد صار عربياً ، وكان يمكن أن يبقى كذلك عربياً لو أن عرب عصر الانحطاط الأول قد حافظوا على قدرتهم على العطاء الإنساني الخلاق ، ولم يتحولوا إلى حكام كراسي وإلى أمراء بلاطات ، ولو لم تفقدهم الحياة الجديدة ، حياة الرفاه والنعيم حياتهم القديمة القائمة على الإيمان والمحبة والإيثار وكراهية التعسف والظلم والاستبداد ، والموسومة بطابع المغامرة وأخلاق الفروسية .

ولا بد أن القارئ سوف يلاحظ من ذات نفسه أن الرحلة الأولى ، رحلة الصديق الأستاذ أحمد إلى أسبانيا لم تكن سوى مدخل أو جسر إلى رحلته الثانية ، فهو لم يمكث في مدريد الجديدة ، مدريد العصر الحديث سوى وقت قصير ، وربما انتهى من تدبير انتقاله إلى ربوع الأندلس القديمة حيث العطر والسحر ، وحيث أريج التاريخ لا يكف عن التضوع والانتشار ، وهو معذور فيما صنع ، فالأندلس اسم جميل وفردوس مفقود صنعه العرب هناك على الشواطئ الغربية الجنوبية لأوروبا ؛

ليكون تذكاراً خالداً لسنوات من المجد العظيم ، ولوحة تاريخية باقية تحكي عن حضارة الإسلام ، تلك الحضارة التي كانت واسطة العقد بين ماضي الإنسانية وحاضرها ، وما من إنسان توافر له قدر ولو قليل من المعرفة ؛ إلا وهفت نفسه إلى التجول في ربوع ذلك الفردوس الجميل ؛ لكي يشهد بعينيه أبعاد الارتقاء في الفنون والعلوم ويلمس باليد العديد من المعطيات الحضارية التي وصل إليها ذلك البلد في ظل الحضارة العربية الإسلامية ، وهي نفس المعطيات الحضارية التي حملت بشكل أو بآخر وباعتراف كل المنصفين من أبناء أوروبا الحديثة ، لواء المدنية والتطور إلى القارة الأوروبية ، وساعدت على إخراج أبناء هذه القارة من حياة التخلف والبؤس ، إلى حياة حافلة بالتقدم والنعيم .

وكان الفتح الإسلامي قد وصل إلى الأندلس في أواخر القرن الأول للهجرة ولم يتوقف عندها ، وإنما حاول جنوده الأوفياء الانطلاق عبر جبال البرانس إلى فرنسا بقيادة (مالك بن السمح الخولاني) ، اليمني الذي لقي مصرعه في معركة (بواتيه) بالقرب من باريس ، وقد ظلت أحلام العرب تتعاظم وتشتد في أن يجعلوا أوروبا ولاية إسلامية تابعة لدمشق ، وكادوا يحققون ذلك الحلم الكبير لولا ما اعترى قياداتهم المتنافسة من حب الدنيا ، والانصراف إلى الأطماع الزائلة والمصالح الذاتية ، وهو ما أدى إلى تفتيت الأندلس وتقطيع أوصالها إلى إمارات متعددة ، وبذلك تحول الإيمان بنشر الرسالة الخالدة إلى الجري وراء السيطرة والتحكم ، وقاد ذلك إلى صراع بين المتنافسين على الحكم ، حتى خرجوا من الأندلس جميعاً على صوت بكاء أم عربية حزينة هي أم أبي عبد الله الصغير التي ودعت ابنها المهزوم الباكي بقولها :

ابكِ مثل النساء ملكاً عظيماً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولا ريب أن علاقة أي عربي بالأندلس القديمة علاقة عاطفية نابعة من الإعجاب غير المحدود بالماضي العظيم . ونابعة كذلك من الإحساس الفاجع والأليم بالحاضر الفقير ، ولعل أسماء مثل : الحمراء ، وقرطبة ، وغرناطة ، تلهب خيال العربي ، وتخفف من شعوره المرير وحسرته الطافحة بالألم ، كما أن أسماء مثل : ابن حزم ، وابن رشد ، وابن زيدون ، وابن الطفيل ، وابن عربي ، التي أضاءت وما تزال تضيء في سماء ذلك الفردوس ، سوف تظل تذكي في نفس العربي مشاعر شعور لا ينضب بالفخر والإعجاب .

ليست إسبانيا الحديثة إذاً هي ما يجذب أشواق الإنسان العربي إلى تلك الربوع الجميلة ، ويلهب عاطفته نحوها وإنما الأندلس ، اسم الأندلس ، تاريخ الأندلس ، الوهج التاريخي الذي يتصاعد من الأعمدة والعقود ، والزخارف ، ومن صفحات الكتب ، ومن بين أنغام القصائد ، ومن بريق الكاتدرائيات التي كانت مساجد ، ومن صور القلاع والأبراج والميادين والوديان حيث حفر العربي

اسمه بحبر لا يمحى ، من ذلك كله ، ولأجل ذلك كله ، يظل العربي مشدوداً إلى الأندلس القديم ، وإلى أزهى حضارة أبدعها العرب في ذلك المكان .

ولعل الشاعر نزار قباني عندما دخل قرطبة في عام ١٩٥٥ ، كما دخلها الصديق أحمد السماوي منذ عامين قد تملكه الفرح ، فرح العائد إلى وطنه بعد غياب طويل ، غياب دام قروناً ، وأحس وهو يعود إلى ذلك الوطن ، كما حدثنا في شعره ، أنه يرى في كل منزل من منازل قرطبة منزل العائلة في دمشق :

في أزقة قرطبة الضيقة ..
مددت يدي إلى جيبي
لأخرج مفتاح بيتنا في دمشق

☆ ☆ ☆

فيا سيدتي ،
المتكئة على نافذتها الخشبية
لاتراعي ،
إذا غسلت يدي في بركتك الصغيرة
وقطعت واحدة من ياسميناتك
ثم صعدت الدرج ، إلى حجرة صغيرة
حجرة شرقية مطعمة بالصدف
تتسلق شبابيكها الشمس ، ولا تسأل
ويتسلق أستارها الليل ، ولا يسأل
حجرة شرقية
كانت أمي تنصب فيها سريري

☆ ☆ ☆

وهذا الانفعال العميق الذي عبر عنه الشاعر في كلماته المنثورة ، هو صدى لنفس الإحساس الذي يشعر به العربي الذي أسعده الحظ برحلة في ربوع ذلك الفردوس الجميل ، ولعل اليمنيين من بين بقية العرب سيكونون أكثر انجذاباً إلى عبق التاريخ في تلك البلاد ، فقد كان سكانها العرب ، كما تؤكد ذلك معظم كتب التاريخ ، هم يمنيون ، وكان اليمنيون وحدهم من بين بقية العرب الذين رحلوا إلى الأندلس ، هم الذين قبلوا الاندماج بالسكان الأصليين ، وشاركوهم حرفة التجارة والزراعة والبناء ،

ومن هنا فقد حملت بعض القرى ، كقرية همدان وقرى يحصب أسماء أماكن يمنية تذكرهم بأرضهم البعيدة ، كما حملت الحصون والقلاع كثيراً من الأسماء اليمنية التي ماتزال تحتفظ بها حتى اليوم ، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر قلعة خولان ، وقد يكون هذا الشعور من أهم الأسباب التي دفعت بالأستاذ أحمد السماوي إلى كتابة رحلته ، واسترجاع فصول من التاريخ العربي عن ذلك المكان ، وربما تكون فكرة الكتاب قد بدأت وهو يطوف بالحي العربي في قرطبة ، أو : وهو يشهد جمال التنسيق وحسن الهندسة لأحد المباني في مدينة الزهراء ، من تصميم أبي محمد الصنعاني أو غيره من البنائين اليمنيين .

أما عن الأسلوب فالمؤلف ـ كما نعلم ـ ليس كاتباً محترفاً ، ولم يشتغل بالكتابة من قبل ، لكنه بهذا الكتاب (الرحلة) يضع أقدامه على بداية الطريق الصحيح إليها ، وأسلوبه هنا هو الأسلوب الذي يقال عنه أنه الوسيلة والغاية معاً ، الأسلوب الخاضع لمنطق الوضوح والدقة .

ولعل عشرات الصور والمشاهد التي يحفل بها الكتاب ، دليل على ماذهبنا إليه ، فصورة واحدة من عشرات الصور التي تشهد بعظمة التاريخ والتراث العربي ، يغني عن قراءة مئات بل آلاف الكلمات في هذا المجال ، كما أن صورة واحدة تمثل القسس وهم يعمدون آلاف المسلمين والمسلمات بغية تنصيرهم بالقوة ، تغني عن مجلدات لوصف ما حل بالعرب من مأساة بعد تسليم مفاتيح غرناطة ، ولا بد أن الكاتب قد أفادته دراسته العلمية التي تعتمد على الأرقام والمعادلات الحسابية ، أكثر مما تعتمد الكلمات والتعابير الوصفية أو الإنشائية .

وتجدر الإشارة في نهاية هذا التقديم إلى أن ظهور هذا الكتاب في هذا الظرف العربي الدامي ، وفي مناخ سقوط بيروت بعد فترة من سقوط القدس في قبضة الاحتلال الاستيطاني الصهيوني ، سوف يعطي إيحاء غير مباشر ، بالخطر المحدق بالعرب ، ولعله يذكرهم بسقوط طليطلة أول المعاقل والمدن العربية الإسلامية ، والتي من بعد سقوطها المشؤوم تتابعت وتوالى السقوط ، إلى أن سقطت أرض الأندلس بكاملها ، ولم يبق للعرب بعد ذلك سوى الدموع يذرفونها وسوى الحسرات يرسلونها شعراً أو نثراً :

جادك الغيث إذا الغيث همى   يا زمان الوصل في الأندلس
لم يكن وصلك إلاّ حلماً   في الكرى أو خلسة المختلس

د . عبد العزيز المقالح

جامعة صنعاء

هذا الكتاب

تقديم الدكتور عبد العزيز الدولاتلي

(رئيس قسم المحافظة على التراث الأثري والتاريخي بالمعهد القومي للآثار والفنون)

(أستاذ تاريخ الفن الإسلامي بالمعهد التكنولوجي للفنون والمعمار بتونس)

هذا كتاب من أمتع ما كتب في أدب الرحلات ، إنه يروي لنا لقاء من أروع اللقاءات ، إنه لقاء ابن بار من أبناء اليمن السعيد مع الأندلس ذلك الفردوس المفقود ، وهو لقاء مع حضارة دامت ثمانية قرون ، عرفت خلالها الأندلس أوج العزة والمجد والازدهار .

لقد كانت المصافحة مليئة بالشوق والشغف ، وأيضاً بالحسرة على ضياع أخصب أرض من أراضي الجناح الغربي من أمتنا العربية .

يشد الكاتب انتباهنا من أول سطر ، ويظل مشدوداً حتى آخر سطر ، وهو يحكي مغامرته السياحية المقرونة بعِبَر من التاريخ الأندلسي ، وبقدر ما يشد إعجابنا بمعالم الحضارة الأندلسية من قرطبة إلى إشبيلية إلى غرناطة ، بقدر ما يزيد شعورنا بالأسى ، كلما توغل بنا في سراديب تاريخ محنة الأندلس ، حتى ينتهي بنا إلى قمة من قمم جبال غرناطة المحيطة بقصور الحمراء ، حيث وقف سنة ١٤٩٢ م آخر ملك من ملوك غرناطة ؛ ليلقي آخر نظرة على مدينة أجداده ، بعد أن سلم مفاتيحها إلى الملكين الكاثوليكيين ، تاركاً قومه بين ناب الليث وظفره ، فاتحاً باب الهجرة الأندلسية على مصراعيه . هكذا انتهت الدولة الأندلسية ، ولكن الحضارة الأندلسية لم تنته ، بل بقيت رغم تعصب وتعسف الكنيسة ، ورغم محاولة استئصال المسلمين ، فإن الحضارة التي أقاموها ظلت شامخة بفضل صلابة عودها ورسوخ جذورها في أرض الأندلس ، ورغم سقوط غرناطة المعقل الأخير ، فقد بقي الأندلسيون المستعربون رمزاً للمقاومة مجاهدين في أرض الأجداد سراً وعلانية لفترة طويلة ، حتى بعد الأمر بإجلاء هؤلاء المسلمين في أوائل القرن السابع عشر ، بأمر من الإمبراطور الإسباني فيليب الثالث ، ورغم جهود المحو المنظم لتلك الحضارة ، والإبادة الجماعية لمن بقوا من صناعها ، فقد ظلت شامخة إلى يومنا هذا ، متمثلة في عمائر المساجد المحولة إلى كنائس ، وفي القصور والقلاع والمدن ، وحتى في ملامح البشر وسلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم .

هذا شيء قليل مما توحي به رحلة الأخ أحمد عبد الرحمن السماوي إلى الأندلس . لقد كنت في صنعاء في مهمة لليونسكو حينما عرض عليّ الكاتب فكرة تقديم كتابه ، ولم أتردد لحظة وقبلت العرض رغم كثرة مشاغلي . كيف لا والتراث الأندلسي تربطني به أكثر من صلة بصفتي من أبناء المغرب العربي ، الذين نهلوا من ينابيعه قروناً طويلة وخاصة بعد سقوط كبرى حواضره في أيدي النصارى ، فتوالت هجرات الأندلسيين إلى الشمال الأفريقي ، فعمروا المدن وأنشؤوا القرى حيث أدخلوا طرقاً جديدة في أساليب الري والفلاحة ، فازدهرت الحضارة ، وانتشرت العلوم والصنائع ، وبلغ الفن والشعر والأدب قمة الإبداع والرقة والجمال ، فكان قدومهم برداً وسلاماً على العدوة المغربية .

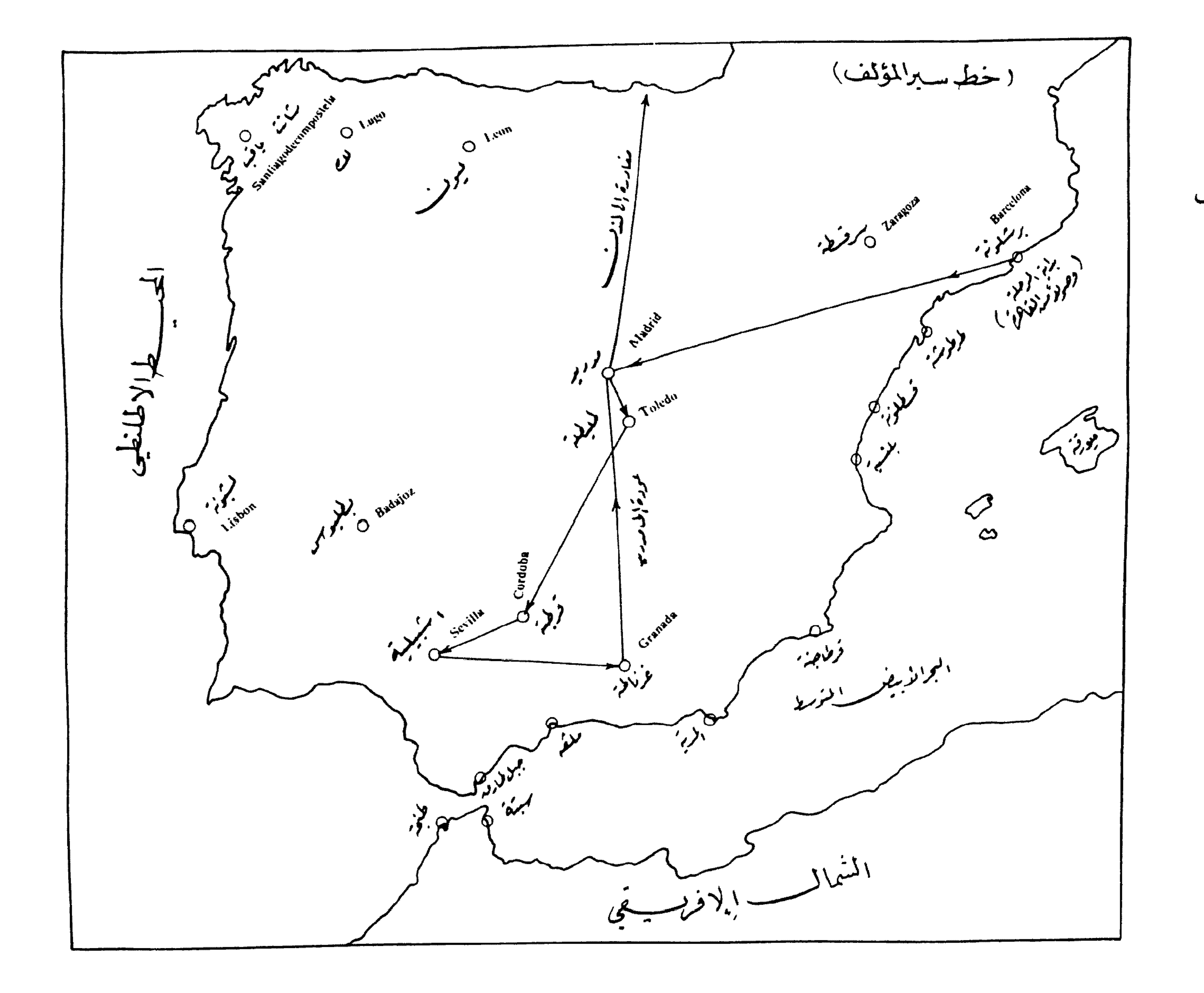
ولكن رغم شغفي بالتراث الأندلسي ، لاأخفي أنه منذ وطأت قدماي أرض اليمن السعيد ، وزرت مدنه الرائعة الجمال ذات العمائر الشاهقة البالغة في الرونق والزخرفة ، ومنذ تعرفت على أهله وعلى تراثه العريق ، وعلى رواسب حضارته الموغلة في القدم ، تيقنت أن الأصل هنا في اليمن ، وهذا القول لا يعني بالطبع التقليل من شأن إبداعات مدارس الفن العربي في بقية الربوع العربية ، ولا أريد أيضاً نفي خصوصيات تلك المدارس بفضل ماتأثرت به من فنون الحضارات القديمة ، التي ازدهرت على أرضها قبل الفتح الإسلامي .

إذاً فلا عجب أن أترك جامع قرطبة الفسيح الذائع الصيت بعقوده المتراكبة والمتقاطعة ، ومحرابه البديع ذي الفصوص الزجاجية ذات المهاد الذهبي ، وقبابه الشاهقة المشعة بنور فسيفسائها ، وأترك إشبيلية وصومعتها الأنيقة ذات النقوش العربية الدقيقة ، وأترك غرناطة وحي البيازين الحافل برقصات وغناء أقوام من الغجر الأندلسيين ، وقصور الحمراء ببركها وجنانها الغناء وقاعاتها الفسيحة ذات الأجواء الموسيقية التي توحي لنا بمجالس الطرب والشعر في الأندلس ؛ أترك ذلك العالم البديع الذي ماتزال صوره تملأ مخيلتي ، ولا تزال روائح أشجاره وزهور بساتينه العطرة تفوح في أنفي ، ولا يزال خرير مياه صهاريجه وباحاته ونافوراته يزغرد في أذني رغم أنني زرته منذ أكثر من ثماني سنوات ، أترك كل ذلك لأذكر الأصل (اليمن السعيد) ، الذي كان لبنيه دور في التاريخ الأندلسي والحضارة الأندلسية ، يكفي أنهم كانوا جنود عبد الرحمن الداخل لتكوين الخلافة الأموية التي دامت (ثلاثمئة عام) .

معذرة أيها القارئ الكريم فلم أخرج عن الموضوع ، إلا لأنني أنا أيضاً في رحلة في (اليمن السعيد) ، وهي فردوس من فراديس بلاد العرب ، حماها الله . وأنا من المغرب العربي أقدم لكاتب من المشرق العربي ، كَتَبَ عن الفردوس المفقود ، التي كانت جزءاً من المغرب العربي .

١٣ صفر الظفر ١٤٠٢ هـ
الموافق ٩ ديسمبر ١٩٨١ م

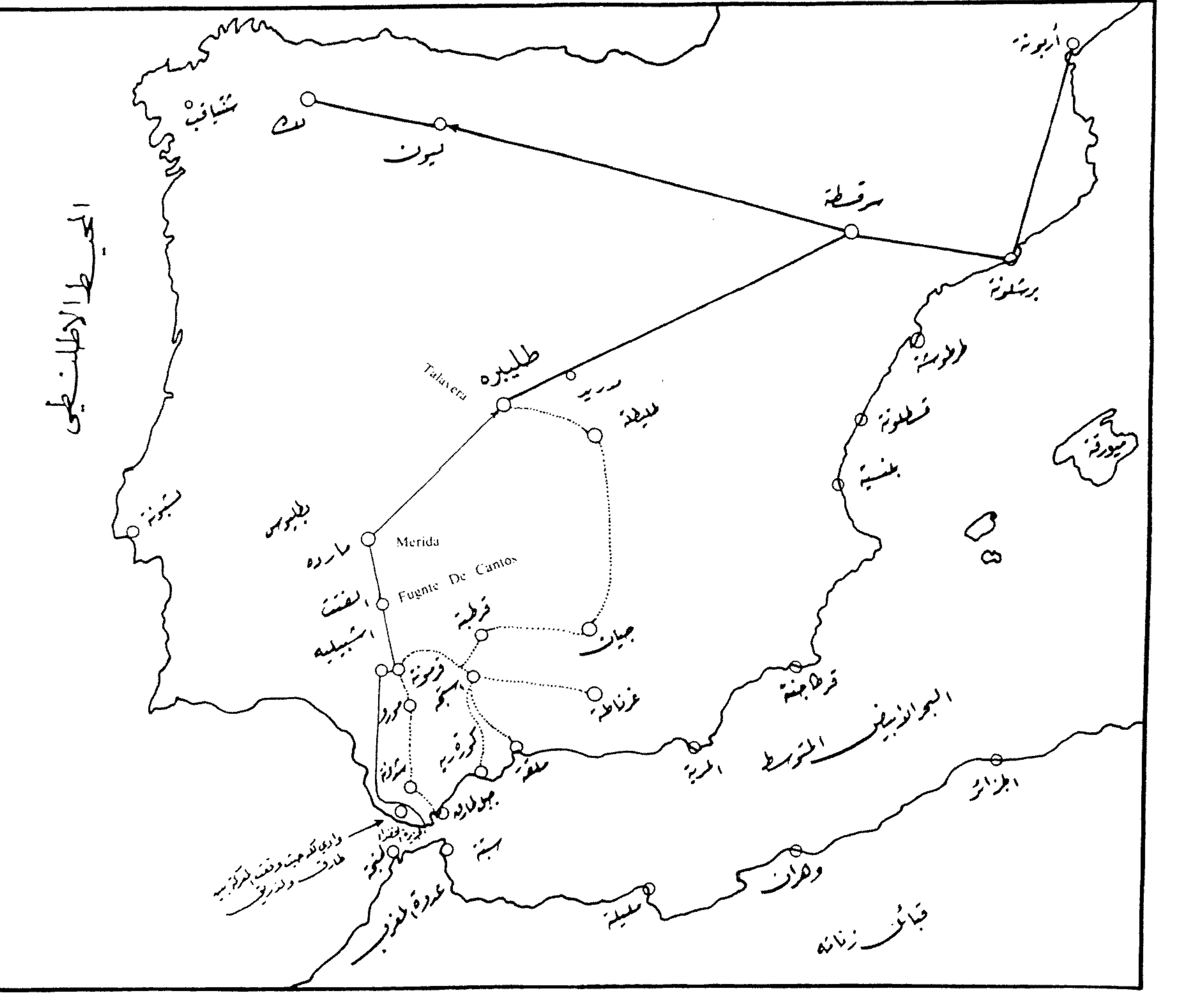
د . عبد العزيز الدولاتلي



خريطة (١)

توضح خط سير المؤلف

خريطة (٢)



توضح خط سير طارق بن زياد وخط سير موسى بن نصير

المصطلحات

(........) طريق سير طارق بن زياد

(———) الطريق الذي سلكه موسى بن نصير

(▬▬▬) طريق سلكه القائدان بعد أن التقيا في طلبيره

للقائد موسى بن نصير قول مشهور « ماكنت لأسلك طريق طارق ولا أقفو أثره »

وحين التقى القائدان في طلبيرة يقال أن موسى قد وبخ طارق وضربه بالسوط لأنه خالف اوامره

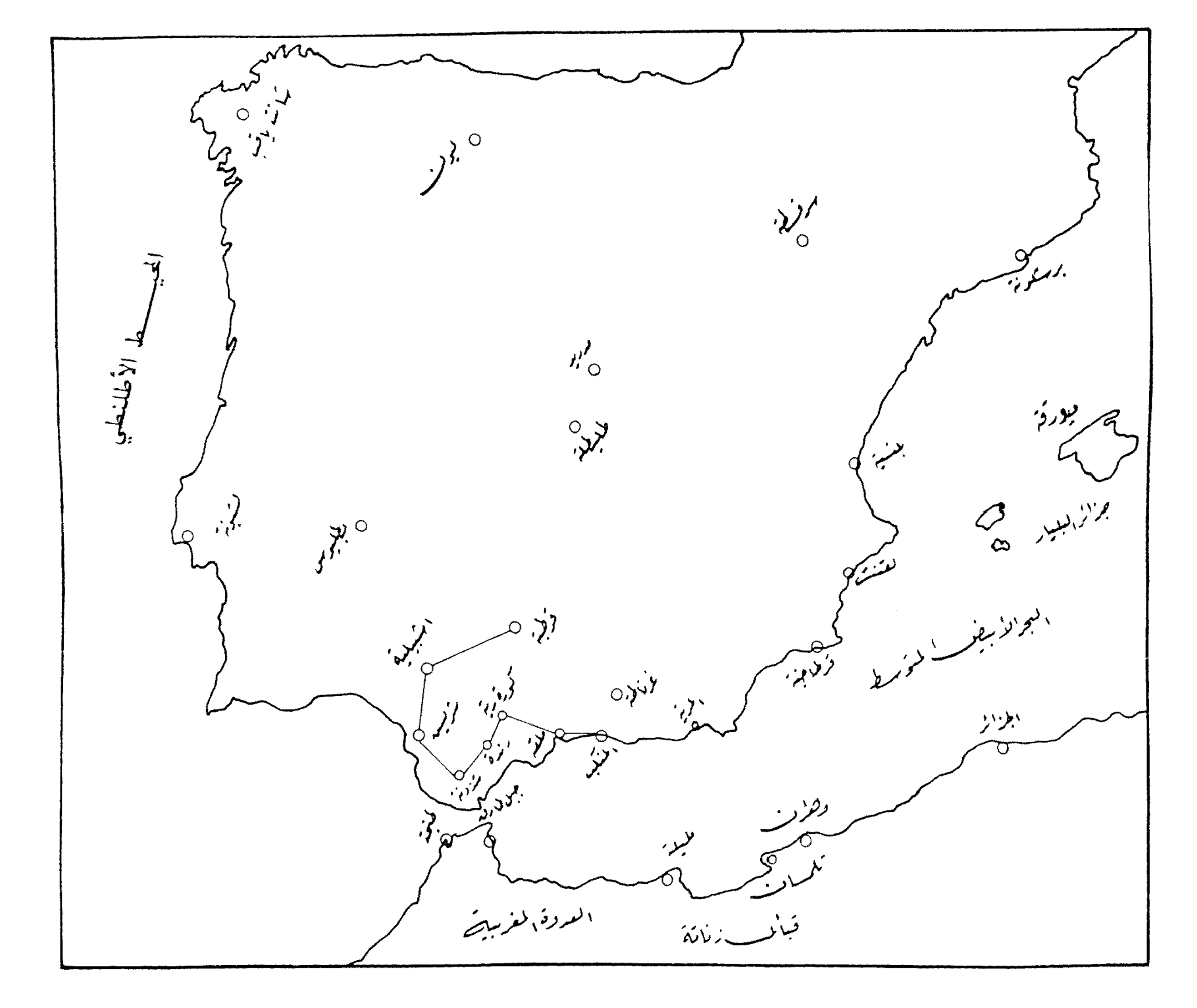
ملاحظة :

من استجه وجه طارق عدة حملات ومنها مااتجه إلى غرناطة والبعض اتجه إلى ملقة وأخرى اتجهت كورة رية كما هو واضح في الخريطة

خط رحلة طارق كما رواها المقري في نفح الطيب عن الرازي وفي الروايـة قول أن طارق افتتح قرطبة بنفسه .

انظر نفح الطيب ج١ ص٢٥٩ ـ ٢٦٥

خط رحلة موسى بن نصير كما رويت في نفح الطيب ج١ ص٢٦٩ ـ ٢٧١ وقيل أنه التقى هو وطارق في استرقه جنوب غرب ليون .



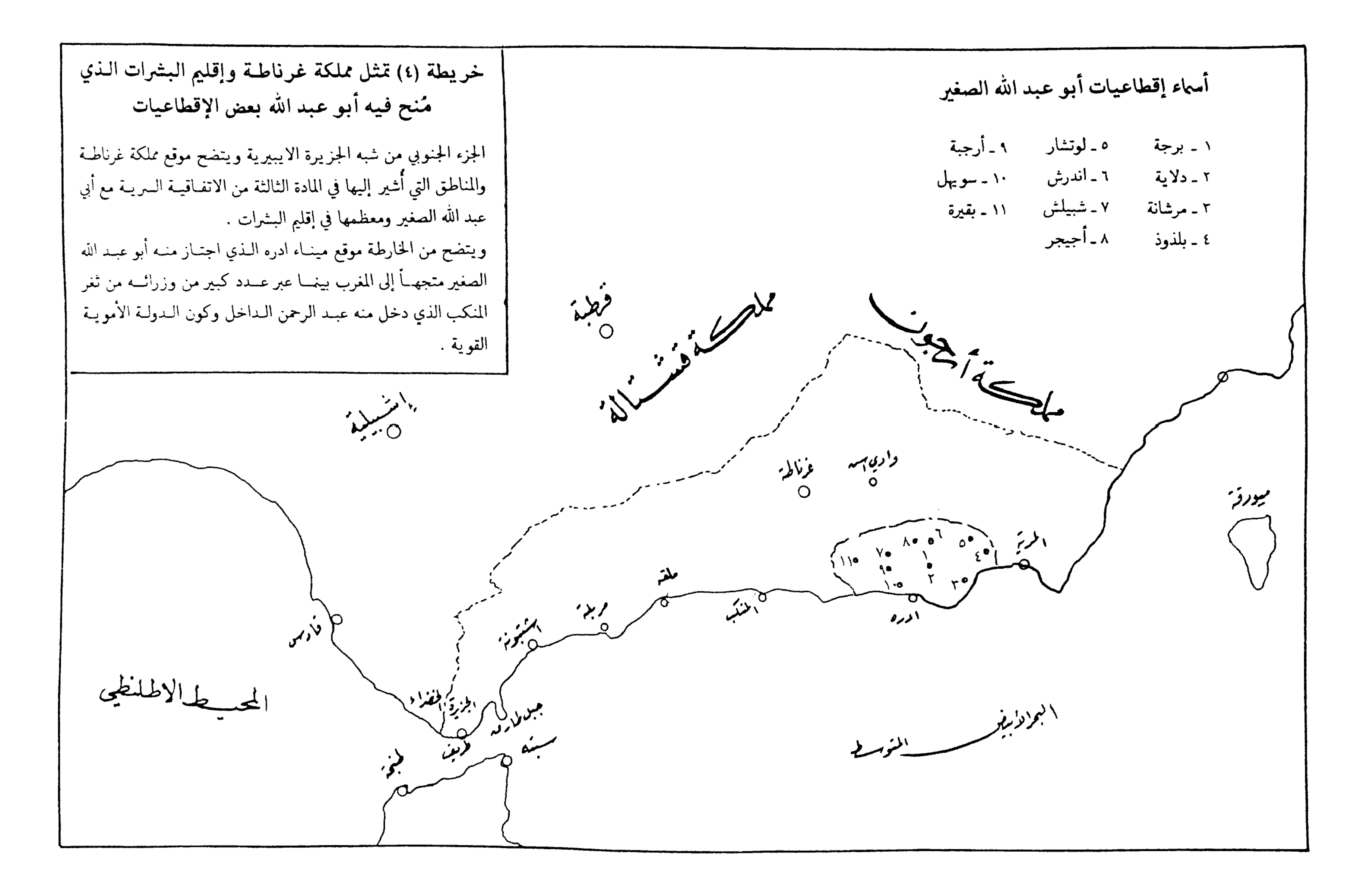
خريطة (٣)

توضح خط سير عبد الرحمن الداخل

خريطة توضح سير عبد الرحمن الداخل أو صقر قريش ركب من مليله على الساحل الأفريقي ووصل إلى المنكب ثم إلى مالقه وكوره ريه ثم رنده فشذونه ثم شريش ثم أشبيلية ثم قرطبة التي اتخذها عاصمة لملكه وأسس فيها الخلافة الأموية التي دامت حوالي ثلثمائة عام .

ملاحظة :

اعتمد في تحديد خطة دخول عبد الرحمن الداخل على ما أورده المقري في نفح الطيب الجزء الأول ص٣٢٨ طبعة عباس .



خريطة (٤) تمثل مملكة غرناطة وإقليم البشرات الذي مُنح فيه أبو عبد الله بعض الإقطاعيات

الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الايبيرية ويتضح موقع مملكة غرناطة والمناطق التي أُشير إليها في المادة الثالثة من الاتفاقية السرية مع أبي عبد الله الصغير ومعظمها في إقليم البشرات .

ويتضح من الخارطة موقع ميناء ادره الذي اجتاز منه أبو عبد الله الصغير متجهاً إلى المغرب بينما عبر عدد كبير من وزرائه من ثغر المنكب الذي دخل منه عبد الرحمن الداخل وكون الدولة الأموية القوية .



حين رأى مظاهر الإجهاد تدب في جسدي ، واستمع إلى الطبيب وهو يكرر نصحه ؛ بضرورة استكمال العلاج عند الطبيب المعالج في أنجلترا ، قال رفيقي : لماذا لاتكون رحلتك عبر أسبانيا التي ملأت شهرتُها الآفاق ، بما تحويه من آثار لحضارة عربية تليدة ، ومناظر سياحية فريدة . فقد تساعد هذه الرحلة على سرعة شفائك والعودة صحيحاً معافى إلى أهلك ودارك .

ولكي يقوي العزيمة ويشحذ الهمة أضاف الرفيق قائلاً : لقد قرأت قبل فترة أن أسبانيا تستقبل سنوياً ما يساوي عدد سكانها (٣٨ مليون نسمة) من السياح ، وينفق هؤلاء بلايين الدولارات سنوياً ، ألا تتفق معي أنه لابد وأن يكون هناك شيء ما يجذب هذه الملايين ، فلماذا لاتكون متفرجاً مع هؤلاء ؟.

شدت الفكرة انتباهي ، وتخيلت نفسي زاحفاً في جند طارق بن زياد ممتطين صهوات الجياد ، مرددين : «البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر » وقائدنا طارق شاهر سيفه ممتط جواده ، مقطب الحاجبين ينشد(١) :

ركبنا سفيناً بالمجاز مُقَيَّراً — عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بِجنّةٍ — إذا ما اشتَهينا الشيءَ فيها تيسّرا
ولسنا نُبالي كيف سالت نفوسنا — إذا نحن أدركنا الذي كان أجْدرا

نعم لقد وهب طارق نفسه في سبيل أن يرفع راية الإسلام على أعلى قمة في طليطلة في قلب إسبانيا .

---

(١) تنْسب هذه الأبيات لطارق بن زياد ويذكر المقري في نفح الطيب ٢٦٥/١ طبعة عباس . قال ابن سعيد : وهذه الأبيات مما يكتب لمراعاة قائلها ومكانته ، لالعلوّ طبقتها ، ولطارق خطبة مشهورة أوردنا بعض فقرات منها والمعروف أن طارق بربري ينتسب إلى قبيلة نفزة كان مولى لموسى بن نصير ولذا فإن ما يروى عن خطبته البليغة وقوله الشعر وإجادته للغة العربية بتلك الفصاحة يتطلب البحث الدقيق .

وبدأ التحمس يقل تدريجياً ، بعد أن أدخلت يدي في جيبي وبدأت أحسب التكلفة كفرق التذكرة للمرور على مدريد ، وتكاليف الإقامة لاسيما مع ارتفاع أسعار العلاج المقرر في إنجلترا .

وتعود فكرة الرحلة لتختمر في نفسي من جديد ، وأتخيل تلك الربوع والأصقاع التي فَتَنَت بسحرها وجمالها أجدادَنا من العرب والوافدين عليها من البربر ، حتى قال ابن سفر المريني في وصف الأندلس :

في أرض أندلس تلتذ نعماء	ولا يفارق فيها القلبَ سمراء
وليس في غيرها بالعيش مُنتفع	ولا تقوم بحق الأنس صهباء
وكيف لاتبهج الأبصار رؤيتها	وكل أرض بها في الوشي صنعاء
أنهارها فضة والمسك تربتها	والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به	من لا يرقُ وتبدو منه أهواء
فيها خلعتُ عِذاري مابها عوض	فهي الرياض وكل الأرض صحراء

وبما حباها الله من طبيعة جميلة ، جعلت من فاتحيها رسلاً للحضارة ونوابغ للفكر على مدى ثمانية قرون ، بينما كانت أوروبا تغط في نوم عميق ، وبدأت هذه الأفكار تشدني شداً لإتمام الرحلة .

بدأت أضع الخطط للتغلب على مشكلة الجيب بوضع برنامج لرحلة تقشفية ، عن طريق الحصول على تذكرة مخفضة ، واستخدام وسائل المواصلات الأقل تكلفة في التنقل داخل الأراضي الأسبانية ، واستخدام الفنادق السياحية ، ولي في هذا المجال خبرة منذ أن كنت طالباً .

في مكتب الخطوط الجوية الأيبيرية : (IBERIA)

أيبيريا[1] هو اسم شبه الجزيرة التي تكون إسبانيا والبرتغال ، وتحتل إسبانيا معظم شبه هذه الجزيرة . ومن اسم شبه الجزيرة سميت الخطوط الأيبيرية ، علمت أن هناك رحلتين في الأسبوع ، وكلا الرحلتين تقلعان الساعة الثانية بعد الظهر ، وكان أحسن نبأ عندي أن فرق المرور على أسبانيا هو ما يعادل مئتين وأربعين ريالاً يمنياً أي خمسين دولار أمريكي ، وكانت مؤشراً للبدء في الإعداد للرحلة .

وبدأت أبحث عن معلومات عن إسبانيا ، الأماكن التي يمكن زيارتها ، وعن قاموس إسباني لأعرف ولو بعض الكلمات ، أو حتى بعض الأرقام .

---

(١) يقال : أن هذه التسمية نسبة إلى أمة قديمة (الأيبير) (IBERE) كانت أقدم أمة عمرت تلك البلاد ، راجع الحلل السندسية للأمير شكيب أرسلان الطبعة الأولى ـ المطبعة الرحمانية بمصر .

أعطاني موظف الشركة مجموعة من النشرات التي لا شك تستهوي طالبي المتعة والرفاهية ، وهي في الغالب توضح بعض الشواطئ الإسبانية ذات الرمال الناعمة ، مصارعة الثيران الوحشية ورقصة (الفلمنكو) ، تصفحت تلك النشرات ، وكانت تحوي لا شك التناقضات ، صوراً لقلاع وحصون عربية شهدت ملاحم بطولية رائعة ، وفتيات حسان يلبسن أحدث ملابس الشواطئ .

وقد تفنن المصورون في أخذ صور لتلك الحسان بجوار تلك المواقع الأثرية الخالدة ، من يدري ؟ فلربما أن تلك الرمال قد شهدت مواطئ أقدام طريف البربري ، والذي أرسله موسى بن نصير كبعثة استطلاعية وحط رحله في جزيرة سميت فيما بعد باسمه (جزيرة طريف)[١] ، ولا زالت تدعى إلى الآن (TARIFA) ، وعلى أثر تلك الرحلة جهز موسى بن نصير طارقَ بن زياد بأول فوج من أفواج الجيوش الإسلامية ، وشهدت تلك الشواطئ فيما بعد وعلى مدى مئات السنين ، أفواجاً من الجيوش الإسلامية العابرة من وإلى شبه الجزيرة الأيبيرية ، كما شهدت الشواطئ مآسي هروب المسلمين من الزحف الصليبي من الشمال ، بعد أن تهاوت الدولة العربية والإسلامية وآخر معاقلها مملكة غرناطة ، إنها الحياة فكم شهدت تلك المواقع من أفراح ومآسي ، وذهب صانعو تلك الأحداث وبقيت الأرض ترقب .

لقد تصفحت تلك النشرات ، وهي تسرد أسماء الشواطئ ، وفي كل شاطئ مجموعة من الصور لفتيات يخطرن في الشواطئ ، وكأنهن يستشهدن بأبيات رويت لولادة بنت المستكفي الشاعرة الأندلسية[٢] :

أنا والله أصلح للمعالي ... وأمشي مشيتي وأتيه تيها
أمكن عاشقي من صحن خدي ... وأعطي قبلتي من يشتهيها

قلت لموظف الشركة ، لقد وضعت لنفسي برنامجاً أن أمكث في فردوسنا المفقود أياماً معدودة لا تتعدى أصابع اليد ، وأريد أن أزور المناطق التي لا زالت بها آثار عربية ، فهل لديك نشرات أو كتب في هذا المجال .

قال : وهو يهز رأسه (الهمبرا جرانادا) ويشير إلى الخريطة أمامه إلى آخر معاقل الدولة العربية

---

(١) تسمى الجزيرة الخضراء وهي في الحقيقة ليست جزيرة كما يتضح من خريطة إسبانيا .

(٢) يروى أن هذه الأبيات قد طرزت بالذهب الخالص على طرفي وشاح ولادة . انظر الدكتور أحمد محمود الحفني في كتابه (زرياب) من سلسلة أعلام العرب ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ص ١١٩ .

في إسبانيا ، قلت لعلك تقصد الحمراء[1] في غرناطة ، وقلت في نفسي هانحن في بداية التفكير في الرحلة وقد بدأت أسمع من الآن التحريف المخيف لاسم مركز من أهم مراكز الحضارة العربية ، وبدأت أحدث نفسي ، ياهل ترى ؟ ماذا بقي من أسماء عربية في بلد سادت فيه اللغة العربية قرابة ثمانية قرون ؟ واعتذر لي موظف الشركة عن عدم وجود طلبي .

وقال : أن مثل هذه النشرات يمكن أن توجد في المكاتب السياحية وسلمني التذكرة منبهاً علي موعد المطار مع (جراسياس)[2] أي شكراً باللغة الإسبانية .

حصلت على تأشيرة السفارة الإسبانية ، وقد لفت انتباهي أن السفارة قد أعطتني تأشيرة لمدة ستة أشهر صالحة للذهاب والخروج من إسبانيا لعدة مرات خلال الستة أشهر .

وهنا بدأ يتكشف لي دور المعاملة الإسبانية لزوار إسبانيا ، فسفارة هذا البلد تعكس لاشك المعاملة التي سيلقاها الزائر لنفس هذا البلد .

في مطار القاهرة الدولي :

وزنت حقيبتي التي لم يتعد وزنها سبعة كيلو جرام ، وسألت الاستعلامات أي بوابة سنغادر منها إلى الطائرة المتجهة إلى إسبانيا ، فعرفت أنها البوابة الثامنة ، وهناك انتظرت واقترب الوقت ، سألت من بجواري هل أنت متجه إلى إسبانيا ، قال بل إلى السعودية ، وبدأ الوقت يقترب وليس هناك أي دليل على أن الوجوه القريبة مني متجهة إلى منطقة أوروبية ، وهناء عدت مرة ثانية إلى مكتب الاستعلامات وإذا بالمعلومات التي كانت قد أعطيت لي غير صحيحة ، وكادت الرحلة تفوتني لولا أنني لحقت في اللحظات الأخيرة .

على الأيبيرية :

إذا كانت السفارات تعكس وتمثل الشعوب التي تنتمي إليها ؛ فإن الخطوط الجوية لأي بلد لاشك أيضاً تعطي صورة واضحة للنظام والنظافة والكرم ، ودقة المواعيد للشعب الذي تنتمي إليه هذه الخطوط ، فما تكاد قدم المرء تدلف إلى الأيبيرية حتى تواجهه المضيفات الإسبانيات ببشرتهن المائلة إلى السمرة ، والبعض رغم أن شعرهن أشقر فإن الملامح العربية هي الغالبة وقد توارثن لاشك تلك الملامح من امتزاج الدماء العربية بالإسبانية خلال فترة الثمانية قرون ، فقد دخل العرب إسبانيا ،

---

(١) تسمى الحمراء (الهمبرا) AL HAMBRA ، وتسمى غرناطة (جرانادا) GRANADA ، وتعني الرمانة باللغة الإسبانية ، ولا زالت شعارها إلى الآن ثلاث رمانات صخرية في أحد أبواب الحمراء .

(٢) GRACIAS .

واستهوتهم النساء الإسبانيات بملامحهن التي لم يكن يعتادها العرب كبياض البشرة وزرقة العيون والشعر الذهبي[1] ، وأتاحت الحروب المتعددة بين العرب والإسبان كثرة السبايا واتخاذ الجواري ، سواء من جانب العرب أو من جانب الإسبان ، عندما تكون الحرب في صالحهم ، ويظفرون بالنساء العربيات . فقد كانوا يكررون ما يعمله العرب من اتخاذ الجواري والإنجاب منهن فَتَولَّد جنس خليط من الملامح العربية والإسبانية ، وقد نقل الإسبان هذا الجنس في رحلاتهم إلى أمريكا اللاتينية ، فتجد كثيراً من سكان المستعمرات الإسبانية يتصفون بهذه الملامح ، ويذكرني هذا بلقائي في أنجلترا بمجموعة من الطلبة من بعض دول أمريكا اللاتينية ، يحملون نفس البشرة والصفات ، وقد بادرني أحدهم ليسألني ماإذا كنت فنزويلياً ، ويشير إلى ملامحه الشبيهة بملامحي ، قلت له بل أنا عربي . وينبري أحدهم يقول : إن جده من دمشق وأن جدته لا زالت حيّة ، ويسرد عليّ بعض الكلمات العربية التي لا زال يحفظها من جدته السورية ، قلت لزميله الآخر : وأنت هل تعرف من أين أتى جدك ، قال : لقد جاء من إسبانيا ، قلت : إذاً فالدماء مشتركة مهما نأت الديار وبعدت المسافات ، فلقد صاحب سقوط غرناطة والتنكيل بالعرب الموريسك قيام (كرستوفر كولمبس)[2] باستكشاف أمريكا . ثم بدأت الهجرات الإسبانية إلى العالم الجديد تتدفق ، في الوقت الذي كان العرب يفرون زرافات ووحداناً من جراء الاضطهاد والتنصير القسري عقب سقوط غرناطة ١٤٩٢ م ، وقد توجه لا شك أعداد كبيرة منهم إلى العالم الجديد .

ولنعد إلى الطائرة التي كانت قادمة من جدة (بونس دياس)[3] هذا ما كان المضيفات يرددنه أهلاً ، أهلاً كانت الطائرة من نوع (الترای ستار) ، وما أن أقلعت الطائرة حتى وزعت على من يرغب من الركاب وبالثمن ، سماعات لكي يستمتع بموسيقى حالمة هادئة ، بواسطة أجهزة متصلة بالمقاعد ، ورغم أن فترة الطيران قد استغرقت قرابة الثلاث ساعات والنصف حتى وصلنا مطار برشلونة ، فإن هذه الفترة قد مرت دون ملل أو ضجر ، فقد كنّ أي المضيفات بارعات في شغل وقت الرحلة :

١ ـ تقديم الصحف والمجلات .

٢ ـ تقديم الحلويات والمرطبات .

---

(١) انظر ظهر الإسلام لأحمد أمين ٢/٣ دار الكتاب العربي ـ بيروت الطبعة الخامسة .

(٢) ولد في جنوة في إيطاليا وانتقل إلى لشبونة رحل بمساعدة إيزابيلا من ثغر بالوس بإسبانيا مستخدماً ثلاث سفن قام بأربع رحلات في ١٤٩٢ ، ١٤٩٣ ، ١٤٩٨ ، ١٥٠٢ م ، وفي هذه التواريخ كانت مأساة اضطهاد مسلمي الأندلس في ذروتها فكانوا يهربون بالمئات من الأندلس .

(٣) BUENOSDIAS .

٣ ـ تقديم المناشف الدافئة لمسح الوجه واليدين .

٤ ـ تقديم وجبة الغذاء .

٥ ـ مرور بائعي السوق الحرة .

٦ ـ وزعت أسئلة على الركاب حول الخدمة في الخطوط الأيبيرية وتقويمها . تجعل الراكب يستغرق وقتاً في ملء تلك الاستمارات ، وبعد ذلك جاء عبر الميكرفون (اربطوا أحزمتكم) فنحن على وشك الهبوط في مطار برشلونة (BARCELONA) وبدأت الطائرة تهبط رويداً رويداً ، ولم يكن في برنامجي النزول في هذه البلدة ، فقد كنا مجرد عابرين ، رغم شهرتها في التاريخ الإسلامي ، فقد وصلها القائد العربي موسى بن نصير سنة ٧١٣ م ، حين لحق بطارق بن زياد ، الذي يروي التاريخ أن موسى قد ساءه تقدم طارق السريع في شبه الجزيرة الأيبيرية ؛ إذ كان يعتبر نفسه هو القائد ، وبالتالي ينبغي أن يأتمر طارق بأمره . ولربما من شدة ضيق موسى بن نصير على طارق أنه رفض سلوك نفس الطريق الذي سلكه طارق « ماكنت لأسلك طريق طارق ولا أقفو أثره »[1] ، ويروى أن موسى قد سلك طريق شذونة ثم قرمونة ثم إشبيلية ثم إلى مدينة ماردة ، ثم التقى مع طارق في طليبرة ، وتسمى الآن (TALAVER DE LA REINA) ، وعندما التقى موسى وطارق أظهر موسى البغضاء لطارق علانية ، بينما ترجل طارق من على فرسه احتراماً لقائده موسى بن نصير . وقد ضرب موسى طارقاً بالسوط ووبخه ، ولكنه رد على موسى بن نصير بقوله « أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدي هذا مالم أنته إلى البحر المحيط ، أخوض فيه بفرسي »[2] ويصطلح القائدان ليتوجها إلى طليطلة ، لكي يسلم طارق ماغنمه في طليطلة لموسى بن نصير ، ويقال أن من ضمن ماغنمه مائدة سليمان التي كانت مصنوعة من الذهب والفضة ، وكان لها ثلاثمئة وخمسة وستون رِجلاً ويقال أنها لم تكن مائدة سليمان ، وإنما مجموعة مدخرات الملوك من الذهب التي ادخرت على مدى طويل من الزمن ، وصنعت منها هذه المائدة التي بولغ في تزيينها وتفخيمها ، وجاء طارق وغنمها ، ثم سلمها أخيراً لموسى بن نصير ، ولكن بعد أن انتزع طارق أحد أرجلها لأنه يعلم أن موسى كان سيتقرب بالمائدة إلى الوليد بن عبد الملك ، وبعد الصلح الظاهري بين طارق وموسى ، اتجه كل قائد إلى جهة في شبه الجزيرة ، حتى وصل موسى بن نصير إلى أقصى الشمال الغربي من شبه الجزيرة الأيبيرية .

وكما يبدو أنه كرر نفس الخطأ الذي ارتكبه طارق ، فقد أرسل الوليد بن عبد الملك رسوله مغيث الرومي يحث موسى بالعودة إلى دمشق ، ويستطيع موسى أن يقنع رسول الوليد بالبقاء معه ،

---

(١) نفح الطيب ٢٦٩/١ .

(٢) نفس المصدر ٢٤٢/١ .

ويقاسمه غنائمه ، ويستمر في فتوحاته ، ويستبطئ الوليد موسى ومغيث ، ويبعث بالرسول الثاني ويكنى أبا نصر الذي يأمر موسى بالعودة فوراً إلى دمشق ، وينتزعه الرسول انتزاعاً ، وهو يردد : « أما والله لو انقادوا إليّ ، لقدتهم إلى رومية (روما) ، ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله » .

ويلتقي طارق وموسى ويعودان معاً يحملان غنائمها من الأندلس ، ولكن موسى بن نصير كان يريد أن يكون كل شيء ، وأن يسلم للخليفة ماجمعه طارق وغيره من القواد المسلمين ، وكأنه هو الذي نال ذلك ، فقد تنازع موسى أيضاً مع مغيث على تسليم أسير قرطبة وصاحبها للوليد بن عبد الملك ، مع أن مغيث هو الذي أسر الأسير القرطبي الهام ، وكما يبدو ، فإن تصرفات موسى سواء مع طارق أو غيره من القواد ومخالفته لأوامر الخليفة في دمشق ، وموت الوليد وتولي الخلافة سليمان الذي كان يحقد على موسى ، قد أدت مجتمعة إلى أن ينال موسى عقاباً صارماً من الخليفة سليمان ، فلم يكتف بتجريده من مناصبه وحبسه ، بل فرض عليه أيضاً غرامات باهظة ، قيل أن موسى قد حاول جمعها ، ولكنه لم يستطع ، وقيل أنه قد مات وهو من أفقر الناس وأذلهم ، مات وهو يحاول جمع المبالغ التي فرضها عليه سليمان ، ويذكر المقري في نفح الطيب ما يلي على لسان أحد غلمانه : قال أحد غلمانه ممن وفى له في حال الفقر والخمول : « لقد رأيتنا نطوف مع الأمير موسى بن نصير على أحياء العرب ، فواحد يجيبنا وآخر يحتجب عنا ، ولربما دفع إلينا على جهة الرحمة الدرهم والدرهمين ، فيفرح الأمير ليدفعه إلى الموكلين به ، فيخففون عنه من العذاب ، ولقد رأيتنا أيام الفتوح العظام بالأندلس نأخذ السلوك من قصور النصارى ، فنفصل منها ما يكون من الذهب وغير ذلك نرمي به ، ولا نأخذ إلا الدر الفاخر ، فسبحان الذي بيده العز والذل والغنى والفقر »[1] .

في مطار برشلونة :

بدأت أسمع لغة جديدة لم أتعودها ، كتابات على أبواب المطار لم أفهمها ، إنها إسبانيا . حقاً بدأت ألاحظ في أيدي بعض الركاب نشرات باللغة الإنجليزية . أين تذهب ؟ ماذا في برشلونة ؟ إنه أسلوب السياحة ، فالسائح يجد ما يريد من معلومات فور دخوله ردهات المطار ، فهذه بلد تمثل صناعة السياحة فيها أهم نشاط من أنشطة السكان ومصدر للدخل كبير .



(١) المقري سابق الذكر ٢٨٤/١ .

من برشلونة إلى مدريد

كنت قد لمحت في داخل الطائرة شاباً أفريقياً رأيته مرة أخرى في مطار برشلونة ، قلت في نفسي : أما آن أن تجني إحدى الفوائد الخمس للسفر الذي عناها شاعرنا وهي :

تفرج هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد

واقتربت من صاحبنا الأفريقي ، وبدأ الحوار على النحو التالي :

هالو ، هالو ، هل أنت أفريقي ؟

كلا فأنا برتغالي .

(لقد أصبت بخيبة ظن ، ولكنني عذرته فقد كان ثملاً) .

ولكن جسمك أسود ، والبرتغاليون بيض ، ولربما أن البيض يكرهونك .

إنني أصلاً من موزمبيق[1] ولكنني أفتخر ؛ لأنني أحمل الجنسية البرتغالية .

إنني أتكلم البرتغالية القريبة إلى الإسبانية ، وسيدات البرتغال يعجبن بي أيما إعجاب .

كيف حال موزمبيق الآن ؟

أنا لاأحب الحكم القائم هناك .

ومن أين جئت ؟

إنني أعمل في السعودية كعامل طلاء في إحدى شركات المقاولات ، وأنا أتكلم العربية .

ماذا تعرف عن اللغة العربية ؟

(يا لله) ، (ألى طول) ، ماتبغي ؟

إلى أين مسافر ؟

إلى مدريد .

---

(١) موزمبيق كانت مستعمرة برتغالية تقع في شرق أفريقيا مساحتها حوالي ٧٧١ ألف كيلومتر مربع ، عدد سكانها ٦,٥ مليون نسمة .

وأنا إلى مدريد .

هل سبق أن زرت مدريد ؟

نعم .

هل تعرف الفنادق هناك ؟

نعم .

إذاً سنكون رفقاء رحلة ، وستساعدني لأنني لاأتكلم الإسبانية .

أين تنزل في مدريد ؟

في فندق منتكارلو .

ويقطع حديثنا صوت المذيع في الميكرفون ، فهمت من محدثي البرتغالي كما يقول ، أن علينا أن نتوجه إلى البوابة رقم (١) ، وصعدنا نفس الطائرة التي أقلتنا من القاهرة ، وفي خلال خمسة وأربعين دقيقة كنا في مطار مدريد ، إجراءات الدخول كلمح البصر ، لم يكن هناك تفتيش أو حتى ختم الجواز ، فقد تم الاكتفاء بختم مطار برشلونة ، وأقلنا تكسي مع زميلنا الأسود إلى فندق منتكارلو .

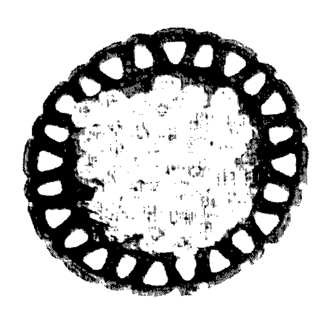
هل لديك غرفتين ؟

هل حجزتم مسبقاً ؟

كلا .

آسف فليس هناك أي فراغ .

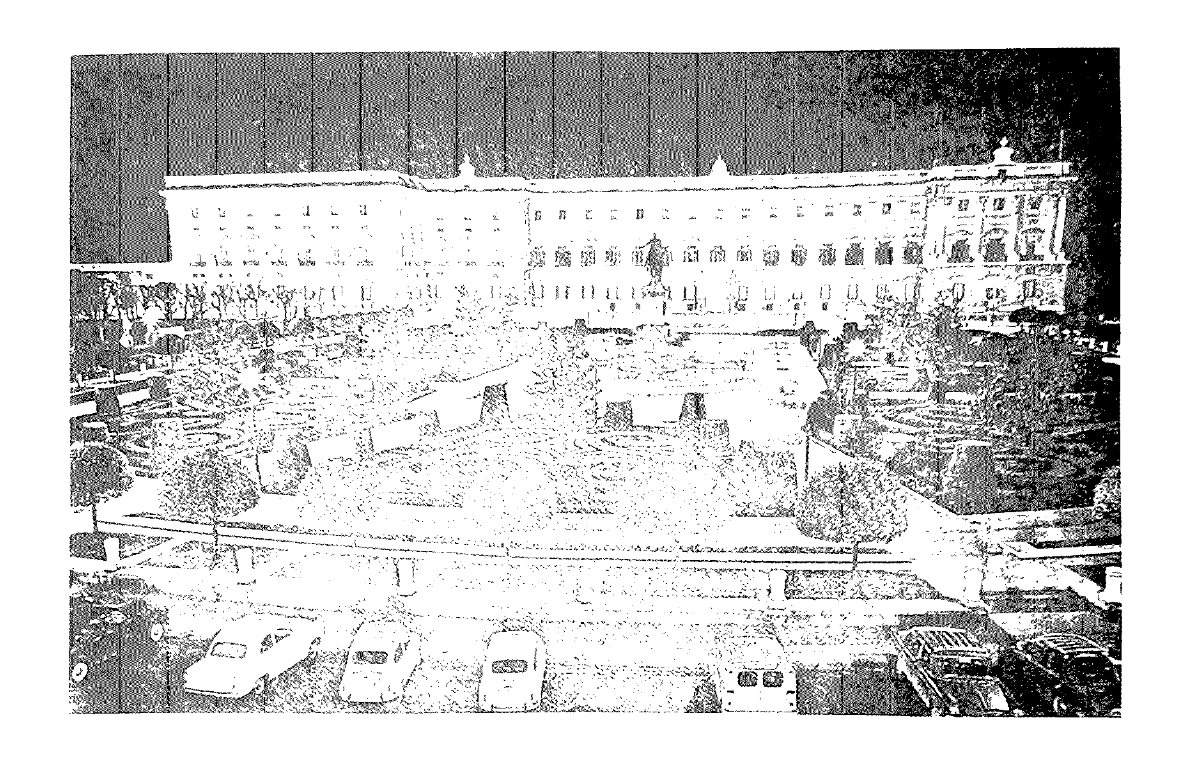
يا صاحب التاكس ابحث عن فندق آخر ، وهكذا مررنا على أربعة فنادق ولم نجد أي مكان ، ولعل القدر كان يسوقنا إلى قلب مدينة مدريد إلى فندق (ركس هوتيل) ، وهو يقع في أشهر شارع في مدريد (جران فيا GRAN VIA) ، وهو فندق جيد ورخيص لاتتعدى تكلفة الليلة الواحدة خمسة عشر دولاراً أمريكياً ، طبعاً مع الإفطار ، والغرفة بحمام خاص (دش) . كان الوقت حوالي الساعة العاشرة مساء ، كان الجوع قد بدأ ينهشنا نهشاً ، وقررنا مع زميلنا البرتغالي الأسود أن نذهب للعشاء ولنبدأ بأكلة إسبانية ، دخلنا أحد المطاعم العتيقة ، ماذا أرى ؟ يا للهول ! كان في وسط كل مائدة كومة كبيرة من كل ماتتقزز منه النفس من الحيوانات البحرية ، قواقع ، أبو مقص ، أطراف حيوانات بحرية ، لاأعرف أسماءها . لقد كانت كما يبدو الوجبة الرئيسية وأنه لامناص من أكلها ، فلم نكد نأخذ مقاعدنا فإذا بكومة تحتل المائدة ، ومع هذه الكومة لكل واحد كماشة ومطرقة ، وبدأنا الأشغال الشاقة ، وكأن المطعم معمل نجارة ، أو مقطع حجارة ، الكل مشغول ، الضحكات تملأ المكان .




(١) وجبة إسبانية

بدأ صاحبي الأسود يبتلع محتويات الطبق بشراهة ، وأنا أراقب ماحولي محاولاً تقليدهم دون جدوى ، وبعد أن شعر أنه قد أطفأ صراخ بطنه ، بدأ يصف لي حياته في السعودية ، وأنه قد مكث حوالي عام ، وأنه يشعر بالحرمان من كل شيء ، ولكنه قد جمع مالاً وفيراً ، وأخرج رزمة من أوراق النقد السعودية فئة المائة ريال ، وقال لي : أنها من أقوى العملات في العالم ، وبدأ يحشرها في جواربه ، وعندما سألته لماذا ؟ قال : أنه يخشى أن تنتزع منه لأنه سيزور أماكن خطيرة في مدريد ! وأنه لربما يصبح ثملاً أكثر ، وبالتالي فإنه يخبئ النقود بينما لا يزال واعياً ، وعلى كل حال فقد أكد لي أنه سيغادر مدريد في الصباح الباكر ، وأنه سيمضي إجازته في إحدى الجزر الإسبانية ، التفت صاحبي ليرى كومة المخلفات أمامي من بقايا الأكل فلما لم يجد شيئاً ، شعر أنه قد اقترف في حقي إثماً ، إذ أنه لاحظ أنني لم استسغ الأكل وهو صاحب الاقتراح ، ولذا فقد أصر إلا أن يدفع التكلفة ، رفضت في البداية ، ولكنه أقسم باللغة العربية أن يدفع التكلفة ، وودعته عائداً إلى الفندق ، وكان في الحقيقة الوداع الأخير ، فلم أره بعد ذلك ، فقد أخبرني صاحب الفندق أنه قد غادر الفندق متجهاً إلى إحدى جزر الكاناريا في الصباح الباكر .

أويت إلى فراشي في تلك الليلة ، ورغم أنني كنت متعباً ، إلا أنني كنت أنتظر الصباح بفارغ الصبر لأعرف مدريد عاصمة إسبانيا ، والتي اختطها محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ، وكانت بلدة صغيرة تحتوي على قلعة محصنة ، فقد كانت قريبة من طليطلة التي تعتبر العاصمة في ذلك الوقت ، وبدأت تنمو وتتوسع في العهد العربي ، ويذكر الأمير شكيب أرسلان : أنه قد أخبره أحد الأثريين الإسبان أن مدريد لم تسقط في يد الإسبان من أيدي العرب إلا وفيها أربعة مساجد ، كما يشير أن الكنيسة الكبرى في مدريد بنيت على أنقاض مسجد عربي ، أما القصر الملكي حالياً فإنه قد



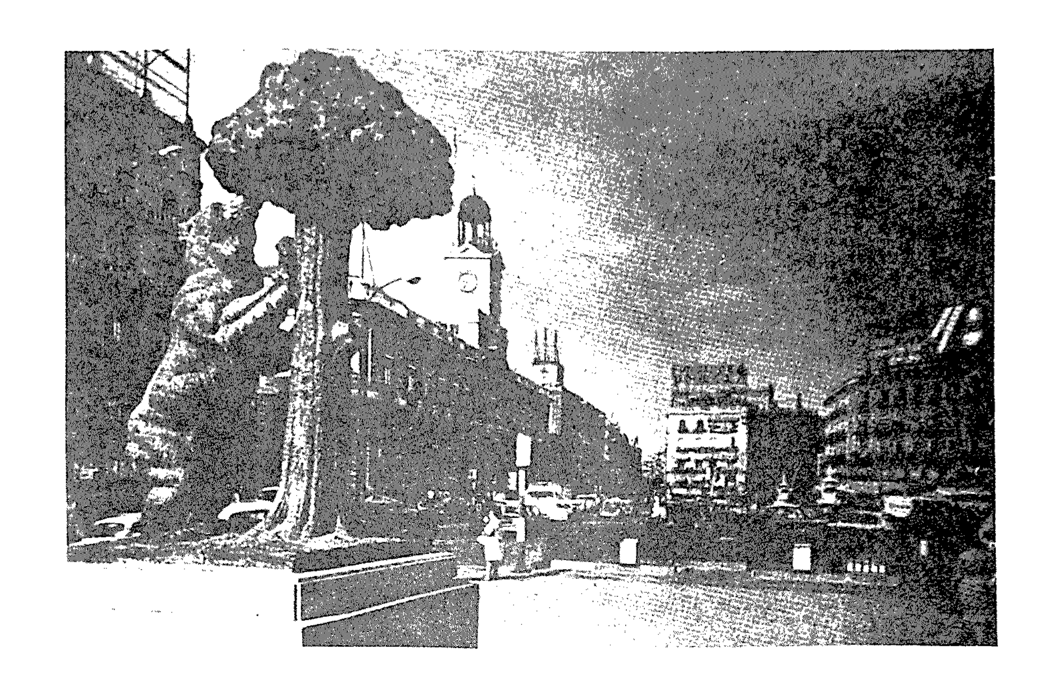
(٢) القصر الملكي الذي بني مكان قلعة عربية

بني في مكان قلعة عربية ، وقد ولد في مدريد علماء عرب ومنهم الفلكي المشهور أبو القاسم مسلمة بن محمد المجريطي ، نسبة إلى مدريد ، إذ كان العرب يدعونها باسم مجريط ، ومنهم أيضاً القاضي أبو العباس يحيي بن عبد الرحمن الذي تولى القضاء في غرناطة وقرطبة ومرسية ، وغيرهم كثير من العلماء الأعلام[1] .

اليوم الثاني في مدريد :

ما أجمل مدريد ، وما أكثر ساحاتها وحدائقها ، القهاوي تملأ الأرصفة ، أصحاب المواهب يعرضون مواهبهم في أرصفة الشوارع ، ساحات وشوارع مقفلة أمام السيارات ، مرصوفة بالأحجار

(١) لمزيد من المعرفة عن مدريد ومن نبغ فيها من العرب راجع الحلل السندسية السابق الذكر ٣٤٣/١ هذا والجدير بالذكر أن مدريد قد بنيت بواسطة العرب كمركز استراتيجي متقدم ولا زالت الحديقة التي أقام العرب فيها معكسرهم تسمى الآن CAMPO DELMORO ، ولا زالت هناك بعض الأبراج كانت مآذن لمساجد كبرج سان بدرو العجوز وسان نيكولاس دي لوس سيربينتس ، كما أن هناك حي يقال أنه من بقايا العرب وهو حي الموريريا MORERIA وهو مشهور بطابعه القديم وشوارعه الضيقة ، وهو قريب من القصر الملكي ، ويقال أن إسم مجريط يتكون من مقطعين ، (مجرى) كلمة عربية تعني مجرى المياه و (يط) مقطع لاتيني تعني الكثير ، وبالتالي يصبح المعنى : المدينة التي تكثر فيها مجاري المياه .



(٣) ساحة من ساحات مدريد

ومتروكة للجمهور ، تجد الناس مجتمعين في دوائر ، إما ليشاهدوا أحد الرسامين يرسم باليد وآخر واقفاً أمامه يرسمه مقابل بضع بستات[١] ، أو يكون هناك عازف جيتار يشنف الآذان بصوت جيتاره ، أو آخر يبيع لوحات نقلها طبق الأصل لموناليزا ، أو للوحات نقلت من متحف برادو ، أو تجد مجموعة من الجنسين يغنون ويرقصون ، محلات بيع الصحف مملوءة بالجرائد ، المجلات الصباحية والمسائية ، وبكل لغة ولكل تخصص ، فهناك مجلات السباق ، مجلات المصارعة ، مجلات الطيران ، مجلات السيارات . إلخ ... بائعو اليانصيب ، بائعو التحف ، المتاجر المتعددة الطوابق ، الساحات الجميلة النافورات ، التي تنتصب فيها التماثيل لمشاهير إسبانيا . إنها مدريد عاصمة إسبانيا ، تجد شوارعها كخلية نحل ، كل ماضٍ في سربه .

ومدريد أيضاً غنية بكل شيء ، فيها عشرات المتاحف ، وفيها عشرات المعارض والمكتبات ، فيها عشرات الحدائق والساحات ، ولكي يستطيع المرء أن يتعرف على الحياة الثقافية ، يتطلب الأمر لا شك أسابيع بل أشهر ، وقد اقتصرت زيارتي لثلاثة متاحف في مدريد ، وتقع قريبة من بعضها وهي :

---

(١) جمع بستة وهي وحدة العملة الإسبانية .



(٤) الحي المجاور للقصر الملكي (موريريا) ويعتقد أنه من بقايا الحي العربي

أولاً : المتحف الحربي (MUSEO DEL EJERCITO)

والمتحف يحتوي على مجموعة هائلة من الأسلحة ، ابتداء من السهام حتى المدافع ذاتية الحركة ، وزائر المتحف يقف على تاريخ إسبانيا الحربي وتطورها ، يحتوي على تماثيل لأشهر قواد إسبانيا ، الأدوات والأعلام التي كانوا يستخدمونها في حروبهم في أمريكا اللاتينية ، في أفريقيا وإسبانيا نفسها ، الأوامر العسكرية ، الخرائط ، أنواع الملابس المستخدمة ، المذكرات التي كان القادة يسجلون فيها ملاحظاتهم ، بل إن المتحف يحتوي على خرائط مجسمة ، حتى للحرب الأهلية ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ م والأدوات المستخدمة ، إلخ ...

ولكن ما يهمني كسائح عربي هي الصالة العربية SALA ARABE ، وهي عبارة عن غرفة ، غطيت جدرانها وسقفها بنقوش عربية منقولة تقريباً من غرناطة ، مرصعة بشعار بني الأحمر (ولا غالب إلا الله) تحتوي الصالة على مجموعة من البنادق والسيوف العربية ، وسرج خيول عربية ، كما تحتوي على لوحة فيها مائتان وسبعة وخمسون قطعة نقدية فضية من أيام عبد الرحمن الناصر والحكم الثاني وغيرهم ، كما تحتوي الصالة على علمين للملكين الكاثوليكيين (فردناندو و إيزابيلا) استخدمت أثناء حرب غرناطة ، وهما شبيهان بالعلمين المحفوظين في الكاتدرائية في غرناطة ، والذي يهمنا لا شك المعروضات التالية :



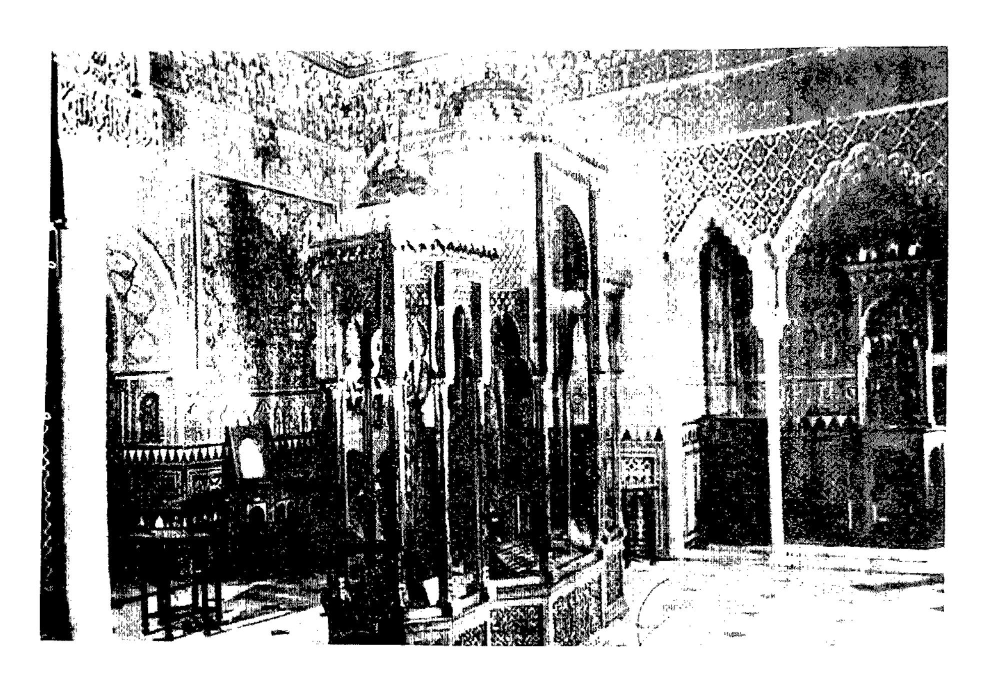
(٥) لوحة في متحف مدريد الحربي تحتوي على ٢٥٠ قطعة نقدية عربية

١ ـ عباءة أبو عبد الله الصغير وتحمل رقم (٢٤٧٠٢) ، وقد كتب فوق العباءة باللغة الإسبانية (عباءة وعقال من المخمل القرمزي ، مزخرف بالذهب ، وينتمي إلى الملك أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة) وقد أخذت منه عند أسره في سنة ١٤٨٣ م .

٢ ـ سيف أبو عبد الله ويحمل رقم (٢٤٩٠٢) ، وقد كتب تحته باللغة الإسبانية (سيف فروسي للمناسبات الرسمية ، ينتمي إلى آخر ملوك غرناطة أبي عبد الله ، الذي هزم وأسر في معركة لوشينا (LUCCENA) (حصن اللسانة) عام ١٤٨٣ م) والسيف عليه نقوش صليب وبعض الكتابات العربية ، وبالتالي فإن هنالك مجالاً للشك أن يكون سيف أبو عبد الله مع وجود علامات الصليب .

٣ ـ وفي قفص زجاجي ، يوجد سيف علي العطار ، وهو مرصع في مقبضه ، الملك الدائم العز القائم أربع مرات ، وقد كتب تحته باللغة الإسبانية ما يلي :

« في ٢١ أبريل عام ١٤٨٣ م بعد هزيمة العرب (مورس) ووقوع ملك غرناطة سجيناً وبعد انسحاب علي العطار مع من تبقى من فرسانه ، عن طريق ازنخار (IZANAJARYDE ZAGRA) وثغرة وجد نفسه محاصراً من قوات (دون الونسوده اغيلار) ، ولما رفض الاستسلام سقط قتيلاً على رماحه ، ووقعت جثته عن الحصان الذي سحبه في مياه الخنيل (GENIL) حتى الصخور حيث



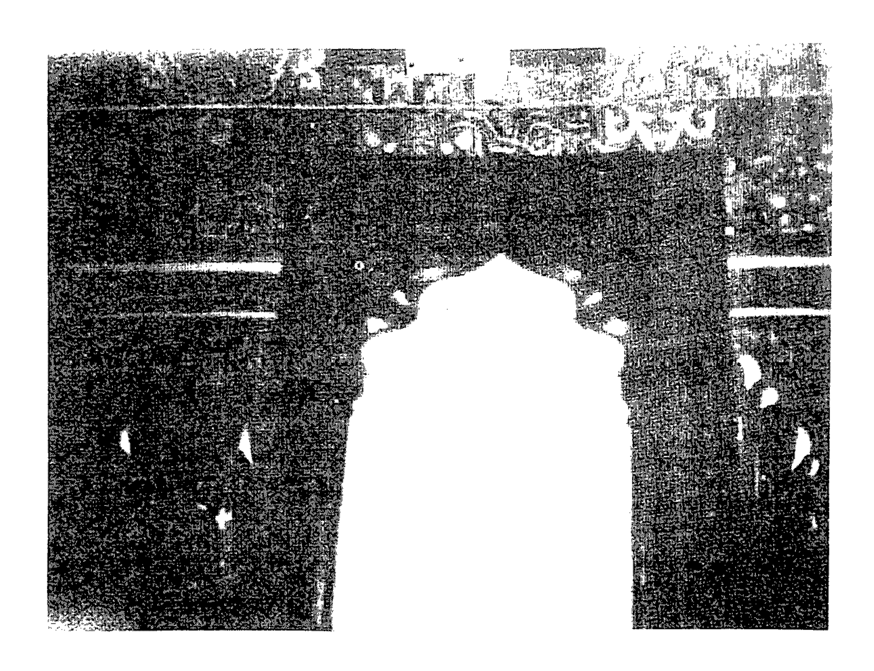
(٦) عباءة أبي عبد الله الصغير وسيفه

وجده (لوكس اورتادو) وأخذ السيف من جثته وأهداه إلى (دون لويس ده بورتوكاريرو) سيد بالما ، وهذا بدوره قدم هذه القطعة إلى دير (سان خيرونيوفالباريسو) على مسافة (٣ أميال من قرطبة) ، ومنه وصلت إلى مدرسة (أومانيدارده اسونسيور) في نفس المدينة ، ومنه إلى هذا المتحف ، بواسطة وزارة الدولة ، وبتوصية من الكولونيل (دون سانتياغو بنديرو) ، علي العطار من أصل متواضع ، وصل بواسطة جهده الشخصي إلى أرفع الرتب في الميليشيا ، زوج ابنة الملك أبي عبد الله ، وكان حاكم (لوخا) LOJA وسيد ثغرة والقائد العسكري لمملكة غرناطة ، مات عن عمر ٨٠ سنة » .

هذه ترجمة لما كتب باللغة الإسبانية ، (ساعدني على الترجمة : القسم العربي في الوكالة السياحية VIALMUNDO في مدريد) .

٤ ـ وهناك أيضاً صورة من الرسالة الخطية بيد أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة حين وافق على التنازل نهائياً ، ومغادرة الأراضي الأندلسية ، وقد أخذت هذه الصورة من الأصل المحفوظ في الأرشيف العام في سيمانقا ARCHIVO GENERALDE SIMANCAS ، والتنازل لاشك يحتاج إلى بعض الجهد ، لمعرفة نصوصه ، إلا أنه وردت ترجمة له باللغة الإسبانية بجواره ، كما أن الأستاذ محمد عبد الله عنان قد أورد نصوصه على النحو التالي :

« الحمد لله ، إلى السلطان والسلطانة أضيافي ، أنا الأمير محمد بن علي بن نصر خديمكم ، وصلني من مقامكم العلي العقيد ، وفيها جميع الفصول الذي عقدها عني وبكم التقديم من خديمي القائد أبي القاسم المليخ[1] وصلت بخط يدكم الكريمة عليها ، وبطابعكم العزيز كيف هيت مذكورة بهذا الذي تصلكم ، وأني موفي وأحلف أني رضيت بها بكلام الوفا مثل خديم جيد ، وترى هذا خط يدي وطابعي أرقيته عليها لتظهر صحة قولي ، ووصلت بتاريخ الثالث والعشرين من شهر رمضان العظيم ، عام ثمانية وتسعين وثمانمئة ، أنا كاتبه محمد بن علي نصر ، رضيت وقبلت جميع ما في هذا المكتوب الثابت ، وتقبل بيدي إلى أضيافي السلطان والسلطانة ، عد لي هنا كا[2] » .

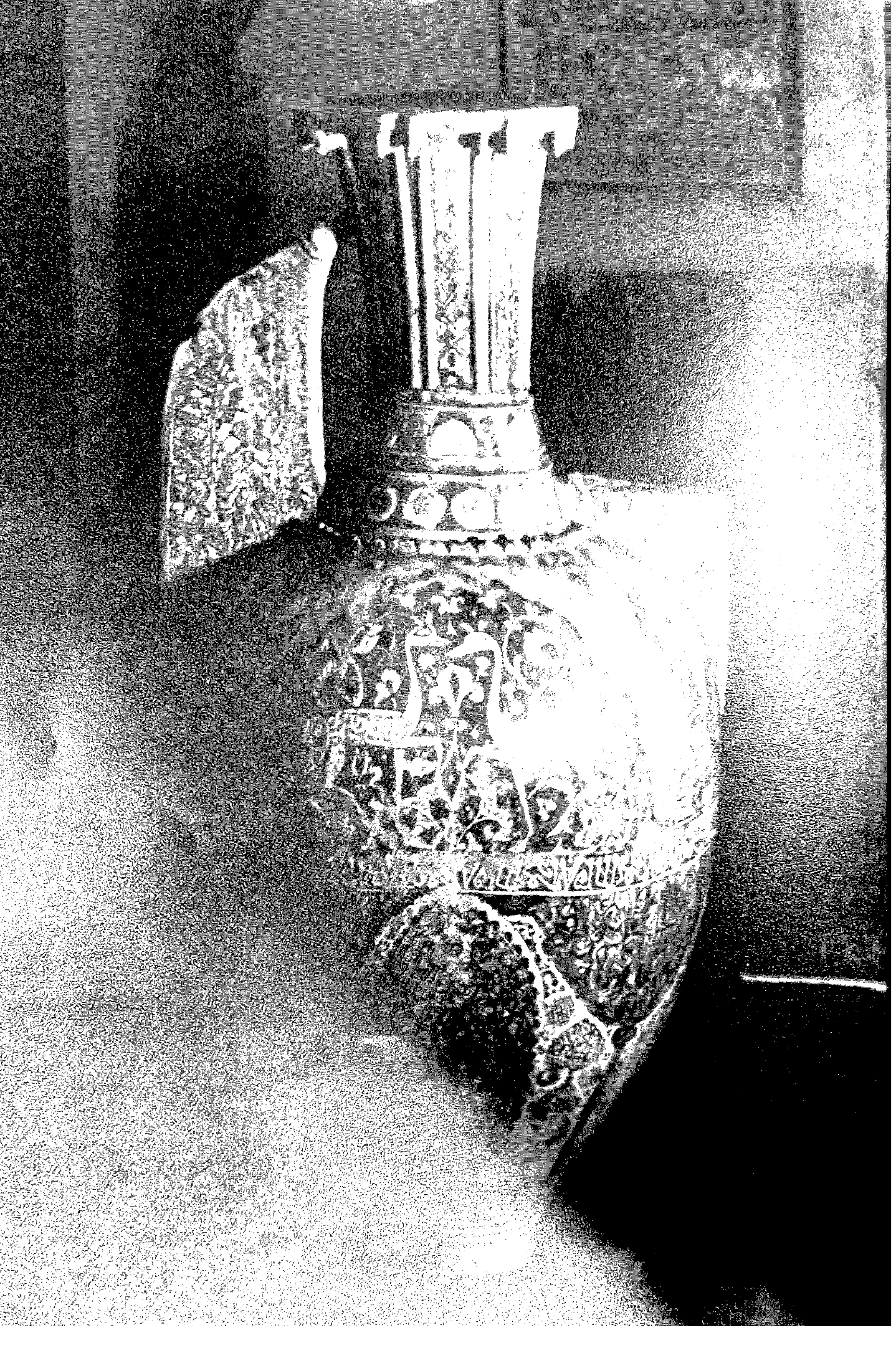


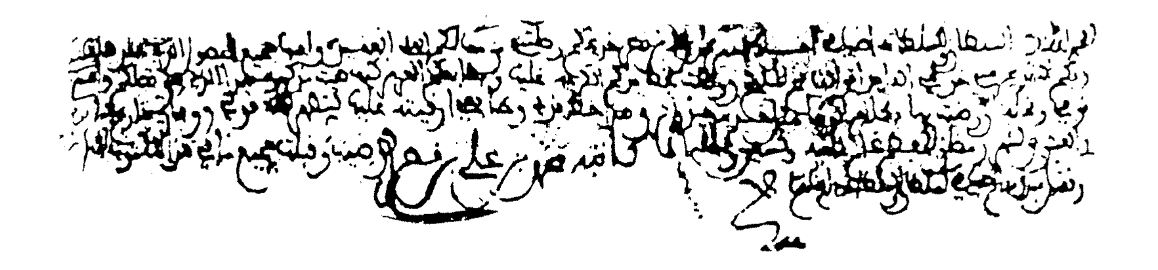
(٧) صورة إقرار أبي عبد الله الصغير واللوحة التي تحمله

---

(١) أبو القاسم المليخ اسمه أبو القاسم عبد الملك وقد حرف تحريفاً بالمليخ ، كان وزيراً لأبي عبد الله ، وقد لعب دوراً كبيراً في المفاوضات لتسليم غرناطة ، وهناك أيضاً الوزير يوسف بن قماشة الذي شارك في المفاوضات ، وأخيراً اعتنق النصرانية وأصبح راهباً .

(٢) واضح مما سيأتي : أن تنازل أبي عبد الله الصغير هذا هو آخر تنازل أعقبه مغادرته الأندلس نهائياً . فقد سبقه اتفاقية غرناطة المعلنة . ثم الاتفاقية السرية التي أعطيت له بموجبها بعض التعويضات وبعض الإقطاعيات .





(٨) خط أبي عبد الله الصغير وتوقيعه

وتحتوي الصالة أيضاً على بعض التحف العربيـة المرصعـة بكلمـات (ولا غـالب إلا الله) ، وكون المتحف الحربي محظور فيه التصوير ، فقد حصلت بعد جهـد على تصريح خـاص من قـائـد المتحف ، لتصـوير الصـالـة العربيـة ، كما يتضـح من الصـورة المرفقـة للتصريـح ، ويحـوي المتحف أيضـاً بعض المتعلقات بعبد الكريم الخطابي ، زعيم قبائل الريف بـالمغرب العربي ، الـذي حـارب الإسبـان ، ومن جملة ذلك سجادة الصلاة وبعض الخناجر وتماثيل لبعض محاربي الصحراء .

MUSEO DEL EJERCITO

JEFATURA DE PLANTAS

Queda autorizado Mr. AHMED. A. ALSMAWI para realizar una toma fotográfica en la Sala Arabe de la Planta de Infantería de este Museo, mañana día 1 de Septiembre de los corrientes.

Madrid, 31 de Agosto de 1.982.
EL CORONEL JEFE DE PLANTAS.

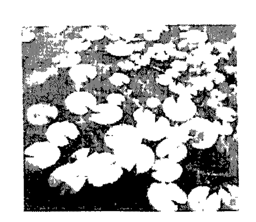
(٩) التصريح الذي أعطي لي من قائد المتحف الحربي لتصوير الصالة العربية

ثانياً : متحف الريتيرو :

أو (CASON DEL BUEN RETIRO) الــدار الكبرى للريتيرو الجميــل . ويحتــوي المتحف على مجموعة من اللوحات ، لمشاهير الرسامين الإسبان في القرن التاسع عشر ، ولكن أهم وأشهر ما يعرض فيه هي لوحة (بيكاسو) الشهيرة (الجيرنيكا) التي صور بها الحرب الأهلية الإسبانية .

ثالثاً : متحف برادو :

يعتبر من أهم المتاحف الإسبانية ، بل من أهم المتاحف العالمية الخاصة بـالنحت والتصوير ، ويضم روائع لاتقـدر بمـال لأشهر النحـاتين والرسـامين مثـل (جـويـا)[1] ، والـذي أفرد لـه قسم خـاص في المتحف . وقد مثلت لوحاته الحياة الشعبيـة ، وتتسم لوحـاتـه بـالصـدق ، ومن أعمـالـه الفنيـة لوحـة ويلات الحرب ، مصارعة الثيران ، وقد عمل رساماً لشـارل الثـالث والرابع وخلـد أفراد هـذه العـائلـة الحاكمة في لوحات . ويحتوي المتحف أيضاً على أقسام لمشاهير كبار في فن التصوير ، ولذا فإن عشرات الآلاف تتوافد على هذا المتحف من عشـاق ودارسي الفنون ، وتوجـد عنـد المـدخل مكتبـة تحتوي على نسخ لأشهر اللوحات ، وكتب تحكي قصة هذا المتحف ، ويمكن للإنسان اقتنـاء مـا يريـد . لقـد استمر تجوالي في المتحف حوالي أربع ساعات ، وإذا ماشعر الإنسان بالتعب يمكنه الجلوس على مقاعد وثيرة ، يستطلع ماحوله من لوحات .



(١) GOYA (١٧٤٦ ـ ١٨٢٨) يشتمـل المتحف أيضاً على أقســام لفنــانين آخرين أمثــال : EL GRECO, VELASQUEZ, TITIAN .

الفصل الثالث

طليطلة والأسكوريال

الرحلة إلى طليطلة (TOLEDO)

بعد انتهاء زيارتي لمتحف برادو كان الفندق قد رتب لي رحلة إلى طليطلة ، فحيثما كنت ، وفي أي فندق في مدريد ، ماتكاد تتسلم مفتاح غرفتك إلا وتُقدّم لك بجواره مجموعة من النشرات والخرائط المجانية ، التي توضح لك موقع الفندق ، وتقدم لك خارطة للأماكن التي يمكنك زيارتها ، والمباريات والحفلات التي قد ترغب في حضورها ، والفندق يمكن أن يرتب لك كل هذه الأشياء ، وقد تأتيك وسيلة المواصلات إلى الفندق وتعيدك إليه ، كل ذلك مقابل مبالغ بسيطة . كان مقدراً لرحلة طليطلة الساعة الثانية بعد الظهر ، وتبعد طليطلة عن مدريد حوالي سبعين كيلو متراً ، وفي الموعد المحدد ، كان (الأتوبيس) السياحي الأنيق يشق طريقه في شوارع مدريد ، متوجهاً نحو الجنوب نحو طليطلة ، كان (الأتوبيس) مليئاً بالسياح من كل جنس ، وكان على المرشد أن يعرف اللغات السائدة في الحافلة ، فوجد أنها الإسبانية ، ، الفرنسية . وكان عليه أن يشرح ما يريد قوله لهؤلاء السياح باللغات الثلاث ، والمرء في طريقه إلى طليطلة لن يمل الطريق ، فسوف يشاهد مداخن المصانع المنتصبة عالياً ، أو يملأ عينيه بمناظر خلابة لسهول خضراء ، ويشاهد العمارات السكنية الحديثة ، كما يشاهد قطعان الماشية .

وعلى مشارف طليطلة توقفت الحافلة ونزل السياح ليبتاعوا بعض الهدايا المشهورة بها طليطلة ، كالمصنوعات الجلدية ، والحلي الدمشقية ، والملابس الأندلسية ، والسيوف والصور والكتب التي تحكي تاريخ طليطلة . وإذا كان لديك مقدرة على الحمل فيمكنك شراء قلة من الفخار المنقوشة نقشاً عربياً دقيقاً . وكان على الركاب أن يمضوا دقائق معدودة ، فهناك عشرات الحافلات تنتظر دورها ، كل ما اشتريته شخصياً هو كتيب صغير اسمه هذه طليطلة (THIS IS TOLEDO)[1] ،

---

(١) للكاتب : JUAN CAMPOS PAYO .

ونحن على وشك دخول طليطلة كان قلبي يدق بشدة ، فقد كنت أسرق نظرات إلى الكتيب الذي اشتريته ، فوجدت أن معظم مناظره آثار عربية ، وفي نفس الوقت كنت أحاول ؛ ألا يفوتني المنظر الطبيعي لهذه المدينة التاريخية ، والتي كانت رغم بعدها عن الساحل الإسباني هدفاً للقائد العربي طارق بن زياد ، هذا القائد الشجاع ، لقد كان لخطبته تلك أمام جنوده (البحر من خلفكم والعدو أمامكم) ، فعل السحر في قلوب جنوده ، لقد قطع حبال سفنهم ، وهي حبال الأمل للعودة إلى البر الأفريقي ، وقال لهم محذراً « أين المفر ، ليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا



(١٠) غلاف الكتاب الذي شريته عن طليطلة

أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام » وقد دفعهم قوله هذا إلى الزحف إلى الأمام ، وعلى بعد ستمئة كيلو متر من موطئ قدمه ، وفي طليطلة وضعوا الراية العربية ، والمتطلع لخريطة شبه الجزيرة الأيبيرية ، يجد أن طليطلة تقع تماماً في قلب الجزيرة ، وتكاد الأبعاد من كل الجهات تتساوى عند مدينة طليطلة تقريباً . ويمكن بالتالي أن تكون مركز انطلاق إلى أي اتجاه في قلب الجزيرة ، واختيارها لتكون حصناً عربياً ، كونها يحيط بها نهر تاجو من الجهات الثلاث ، وهي نفسها تقع على قمة تل مرتفع يسهل الدفاع عنها أمام الغزاة . وقد كانت بالفعل مركزاً مهماً لكل الذين تعاقبوا على شبه الجزيرة ، ولكن كيف اختار القائد العربي مدينة طليطلة البعيدة ؟ . ولماذا غامر بمجموعته البسيطة إلى هذا البعد ؟ يروي التاريخ أن (يوليان) قد ساعد طارق عندما استنجد يوليان بموسى بن نصير ، نتيجة خلاف بينه وبين لذريق ، وقد كان سبب حقد يوليان على لذريق ، أن يوليان كان والياً في سبتة ، وكان من عادة كبار القوم والولاة في الأندلس ، أن يبعثوا بأبنائهم أو بناتهم إلى العاصمة ، التي كانت في ذلك الوقت طليطلة ، ليتربوا في بلاط الملك وينشؤون تنشئة معينة ، فحدث أن بعث يوليان بإبنته فلوراندا لتتربى في البلاط الملكي في طليطلة ، ولكن



(١١) طليطلة يحيط بها نهر تاجو وفي القمة القصر

لذريق اغتصب البنت[١] ، وعلم والدها يوليان فغضب لذلك ، وحقد على لذريق ، فتوجه إلى البر الأفريقي يستنجد بموسى بن نصير ، فقامت في البداية بعثات استطلاعية ، ثم تلا ذلك تجهيز طارق بجيش إسلامي قيل أنه بلغ اثني عشر ألفاً ، أما لذريق فقد جهز جيشاً لملاقاة طارق ، يبلغ تعداده مئة ألف ، ولكن طارق تغلب على عدوه ، واستطاع أن يزحف حتى وصل إلى هذه المدينة التي أوشكنا أن ندخل إليها[٢] من إحدى بواباتها العربية ، وبدأت الحافلة تصعد بصعوبة في شوارع طليطلة ، إن المرء لا يصدق عينيه لما يرى من القلاع والأسوار والحصون التي تكاد تنطق بعروبتها ، ولا زالت الأسماء العربية هي هي ، ولكن مع شيء من التحريف ، فالمسكيتا[٣] أي المسجد والقنطرة[٤] والكاسر[٥] أي القصر ، الشوارع الملتوية ، والأبواب ذات المطارق ،

---

(١) لا يزال في طليطلة مكان يعرف إلى الآن باسم BANO DE LA CAVA ويقال أن لذريق قد اغتصب فلورندا فيه .

(٢) لمزيد من التفصيل انظر نفح الطيب وخبر الفتح : ٢٢٩/١ ـ ٢٣٤ .

(٣) LA MEZQUITA

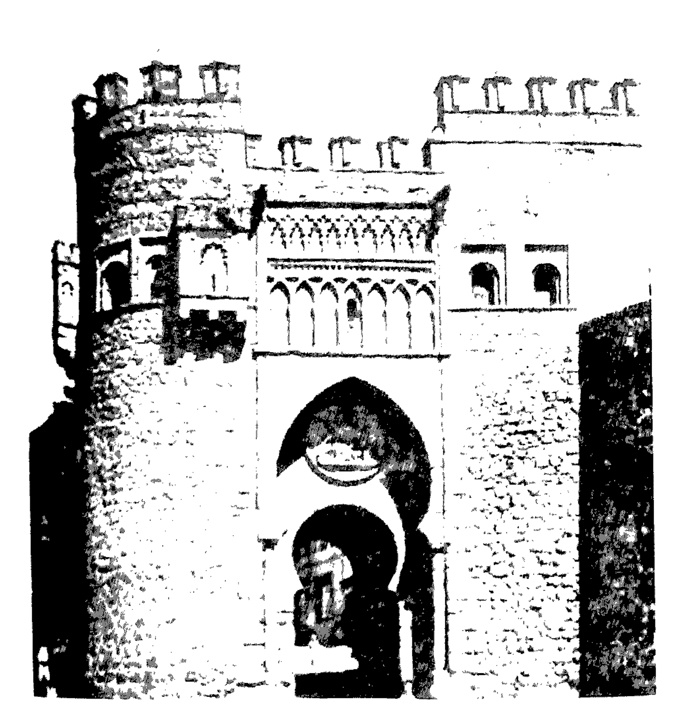
(٤) AL CANTARA

(٥) AL CAZAR



(١٢) المكان الذي التقى فيه لذريق بفلورندا ابنة يوليان

وكأنك في صنعاء القديمة عندما ترى أطفال طليطلة وهم يمرحون ، وأنت كعربي عندما تقع عيونك في عيونهم ، وكأنك تعرفهم وهم يعرفونك منذ أمد بعيد ، إنهم أبناء عمومتك فأجدادهم كانوا ينطقون العربية ويدينون بالإسلام ، وكانت هذه القلاع وهذه الأزقة تسمع الآذان خمس مرات في اليوم ، ولكن تحول المسجد إلى كنيسة ، وأثقلت المآذن بالأجراس ، وعلقت الصلبان على المحاريب ، وبواسطة محاكم التفتيش أجبر السكان على ترك لغتهم والتخلص من دينهم ، ونشير هنا إلى ماتذكره كتب التاريخ أن



(١٣) بوابة الشمس إحدى البوابات العربية

كثيراً من الطليطليين قد بقوا مسلمين حتى بداية القرن السابع عشر ، رغم أن طليطلة قد سقطت في أواخر القرن الحادي عشر . لقد كان المسلمون يعلمون أبناءهم الإسلام سراً ، ويطلبون منهم كتم تلك التعاليم حتى عن أقاربهم ؛ إذ أن مصير من يكتشف أنه لا يزال يدين بالإسلام هو الحرق ؛ بل لقد توارث الطليطليون حتى ولو كانوا نصارى بعض الشعائر الإسلامية ، كنحر الذبائح يوم عيد الأضحى ، الامتناع عن شرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير والميتة ، التطهر ، الاحتفاظ بالمصاحف رغم عدم المعرفة بمحتوياتها ، الاتجاه نحو مكة حين أداء الصلاة ، تحديد حدود الشيء من ناحية الجنوب بالقبلة ، استخدام الأشهر الهجرية ، وقد لاقى المتمسكون بمثل هذه العادات أشد أنواع التنكيل ، وخاصة على يدي الأب (خمنيس دي سيسنيروس) مطران طليطلة ، فهو الذي نظم إحراق الكتب العربية في غرناطة ، وقد كان الرئيس الأعلى لديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي (محاكم التفتيش) . وأنت تتجول داخل الكنيسة لا تعجب إذا رأيت آية قرآنية قد أصبحت جزءاً من ديكور الكنيسة ، أو عمود أقامته وصقلته أيدٍ عربية قد نقش عليه صورة للمسيح المصلوب ، ورغم الجهد الذي بذل لطمس كل تلك الآثار فإن جو طليطلة نفسه ، متاجرها ، أزقتها ، طابع العمارة ، كل مافيها ، ينطق بعروبته وإسلامه ، رغم مابذل من جهد لتغيير هذه المعالم .

(١٤) المؤلف يقف أمام آية قرآنية تزين جدار كنيسة

ويكفي هنا أن ننقل ماذكره الأمير شكيب أرسلان في الجزء الأول من الحلل السندسية ص ٤٢٤ « ومما لانزاع فيه أنه مع كل ما بنى فيها الإسبانيول على أيدي مهندسين من الفرنسيس والألمان والطليان ، وما بثوا فيها من الكنائس والأديار والمستشفيات والمدارس ، وما عنوا بتغيير شكلها

العربي ، لاتزال المسحة العربية غالبة على هذه البلدة ، في ضيق الشوارع ، وقلة نوافذ البيوت ، وسعة الدور الداخلية ، وحصانة الأبواب ، وغير ذلك من أساليب العرب في البناء ، ولا تجد الرهبان والراهبات مقيمين في أديار هي على الطراز العربي إلا في طليطلة » .

لقد شاهدت حماراً وصاحبه ، وهو يتسلق شوارع طليطلة ليقف عند بوابة الكنيسة (المسجد سابقاً) ، ليبيع محتويات خرج الحمار من قلل وهدايا للسياح ، ووقفنا ندور في أعلى قمة من قمم طليطلة حول القصر الذي شيده العرب ، واعتنى به فيا بعد ملوك الإسبان ، واكتسب شهرة كبيرة أثناء الحرب الأهلية .

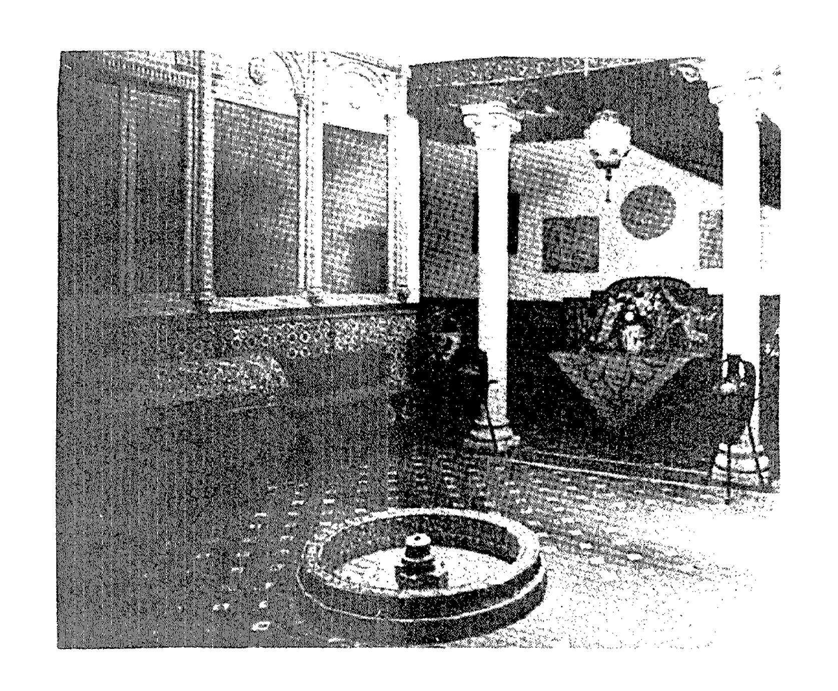


(١٥) شارع من شوارع طليطلة
ويشاهد الحمار يمتطيه أحد أطفال طليطلة

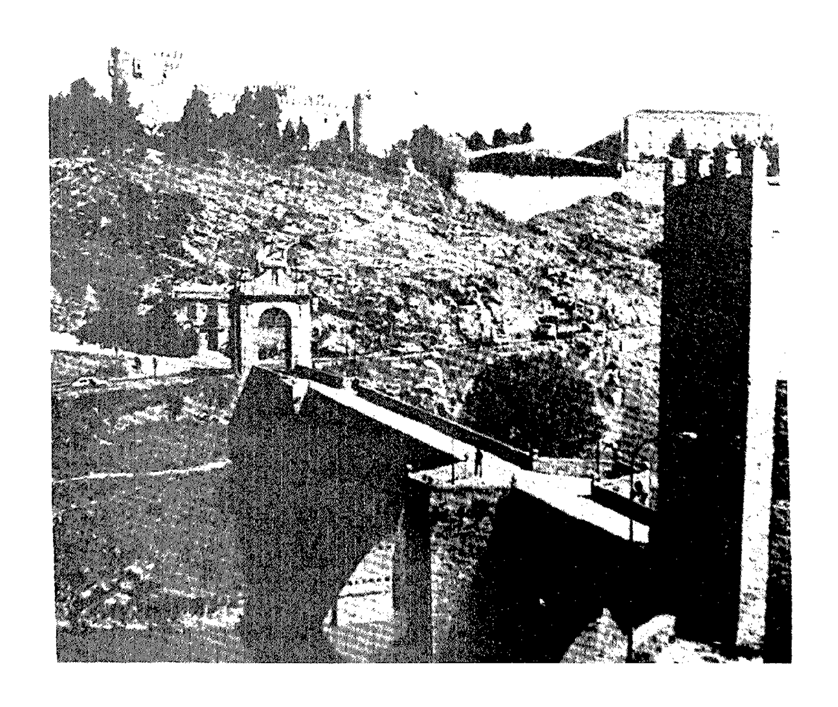
كنت قد أشرت أنني اشتريت كتاب (هذه طليطلة) ، وفي معرض سرده لتاريخ طليطلة ، يذكر ما يلي :

ما كاد القرن الثامن يبدأ حتى ظهرت قوة غازية ، لاتكاد تقاوم ، لقد حلت ساعة الإسلام ، واندفع أبناؤه لقهر العالم ، ووقعت المعركة الفاصلة التي مكنت الجيش الإسلامي من الانتشار في ربوع شبه الجزيرة ، تحت قيادة طارق ، واحتلوا (تولتيوم) الرومانية وأسموها طليطلة ، وتوسعت في عهدهم وبنوا فيها الأسوار والقناطر ، وفي نفس الوقت بنوا فيها المنازل والقصور المرفهة ، وأحضروا معهم الثقافة والفن .

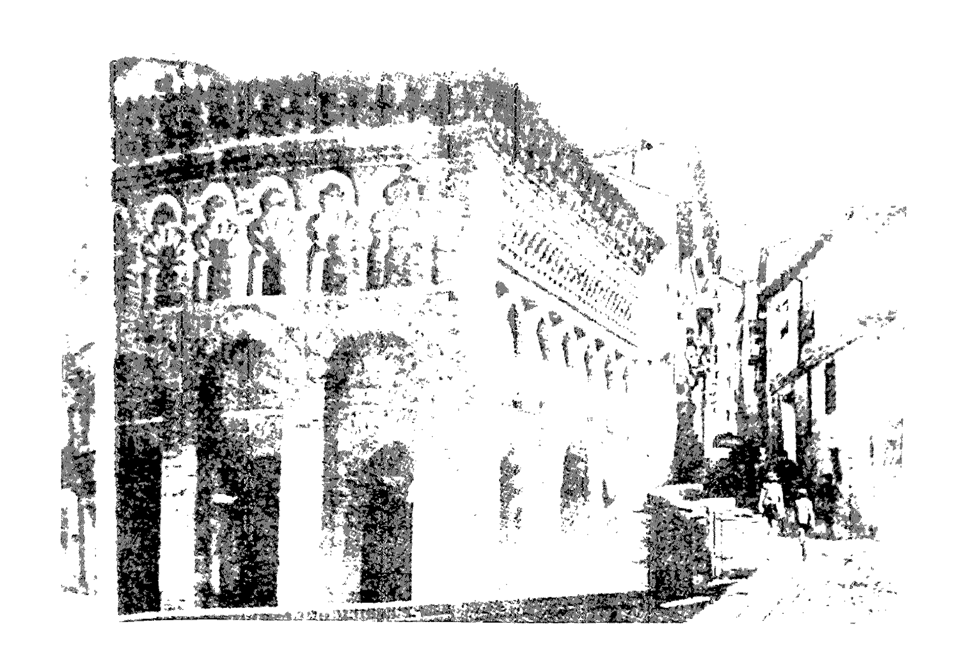
وفي نهاية الكتاب يشير إلى كيفية سقوط طليطلة في أيدي الفونسو السادس ، بعد حصار طويل وتجويع لأهلها ؛ لأنها سهلة الحصار ، وقد كان سقوطها ابان حكم ملكها البربري المسلم :



(١٦) بيت عربي ومحتوياته مخلفات تركها العرب



(١٧) القنطرة العربية



(١٨) هذا المسجد العربي تحول إلى كنيسة

القادر بن ذي النون[1] ولا زال موقع من مواقع المدينة بجوار صخرة يعرف عند أهل طليطلة بأنه المكان الذي قبر فيه أحد القواد العرب بجوار حبيبته صبيحة .

ويروي التاريخ أن المعتمد بن عباد أمير إشبيلية قد ساعد الفونسو السادس ملك قشتالة ، في حصار مدينة طليطلة ، لقد كان لسقوط هذه المدينة المحصنة أثر كبير في نكسة الإسلام والمسلمين في هذه البلاد ، إذ كانت من أهم القواعد الإسلامية ، وقد سقطت في شهر صفر ٤٨٧ هـ (مايو ١٠٨٥ م) ، وقد شبه ابن العسال سقوطها ؛ كتمزق الثوب من وسطه ، وليس من طرفه كما هو المعتاد ، حيث قال :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

وقد هزت مأساة سقوط طليطلة كثيراً من الشعراء ، حيث رثاها أحدهم بالقصيدة التالية :

لثكلكِ كيفَ تبتسمُ الثغورُ ... سروراً بعد ما بئست ثغورُ
أما وأبي مصابٌ هدَّ منه ... ثبيرُ الدِّين . فاتصل الثبورُ

---

(١) الفونسو السادس كان لاجئاً عند المأمون بن ذي النون والد القادر بن ذي النون وحين اعتلى الفونسو السادس عرش قشتاله بعد وفاة أخيه كان همه كيفية انتزاع طليطلة من القادر بن المأمون بن ذي النون .



(١٩) معبد يهودي بني على شكل المسجد

لقــد قُصِمَتْ ظهــورٌ حين قــالـوا أميرُ الكافرينَ لــــهُ ظهــورُ
ترى في الـــدهرِ مسروراً بعيشٍ مضى عنّــا لطيتــهِ السرورُ
أليس بنـــا أبيُّ النفس شهمٌ يــديرُ على الــدوائرِ إذ تــدورُ
لقــد خضعت رقــابٌ كن غُلبــاً وزال عتــوُّهــا ومضى النفــورُ
وهـــانَ على عــزيــزِ القــوم ذلٌ وســامــحَ في الحريم فتىً غيــورُ
طليطلــةٌ أبــاحَ الكفرُ منهــا حمــاهَــا إن ذا نبــأً كبيرُ
فليس مثــالِهــا إيــوانُ كسرى ولا منهــا الخَــوَرْنَــقُ والســديرُ
محصنـــةٌ محسنـــةٌ بعيـــدٌ تنــاولُهـــا ، ومطلبُهــا عسيرُ
ألم تــكُ معقــلاً للــدينِ صعبــاً فــذللــه كما شــاء القــديرُ
وأخرجَ أهلَهــا منهــا جميعــاً فصــاروا حيثُ شــاء بهم مصيرُ
وكانت دارُ إيمـــانٍ وعلمٍ معــالمُهــا التي طُمست تنيرُ
فعــادت دارَ كفرٍ مصطفــاة قــد اضطربت بــأهليهـا الأمــورُ
مســاجــدُهــا كنــائسُ أي قلبٍ على هـــذا يقرُّ ولا يطيرُ
فيــا أسفــاهُ . أسفــاهُ حــزنــاً يكرّر مــا تكرّرت الــدُهــورُ
ويُنشرُ كلُ حُسنٍ ليس يُطـــوَى إلى يــومٍ يكــونُ بــهِ النشــورُ

أديلتْ قـــاصراتُ الطرفِ كانتْ ... مصـونـاتٍ مســاكنُهـا القصـورُ
وأدركهــا فتُــور في انتظـــارٍ ... لِسرب في لــواحِظـــه فتــورُ
وكان بِنَــا وبـــالقينــاتِ أولى ... لــو انضمتْ على الكِـلّ القبــورُ
لقـــد سَخُنَت بحـــالتهنّ عينٌ ... وكيف يصـــحُ مغلـــوبٌ قرير
لئِن غبْنــا عن الإخــوانِ إنـــا ... بـــأحـزانٍ وأشجـــانٍ حُضـورُ
تَــذُور كأن لـــلأيـــام فيهمْ ... بملكهم فقـــد وفتْ النـــذورُ
فـــإن قلنـــا العقــوبــةُ أدركتهُم ... وجــــاءهُمْ من اللهِ النكيرُ
فـــإنــا مثلهم وأشـــدُ منهمْ ... نَجُـــورُ وكيفَ يسلمُ من يجـــورُ
أنـــأمن أن يُحَـلَّ بنـــا انتقـــامَ ... وفينـــا الفســقُ أجمــعُ والفجــورُ
وأكلٌ للحرام ولا اضطرارُ ... إليـــه ، فيسهـــلُ الأمرُ العسيرُ
ولكن جرأةٌ في عُقْرِ دارٍ ... كــذلــك يفعــلُ الكلبُ العقـورُ
يـــزولُ السترُ عن قـــوم إذا مـــا ... على العصيـــانِ أرخيتْ الستـــور
يطـــــول على ليلى ، رب خطب ... يطــول لهــولِـــه الليــلُ القصيرُ
خــذوا ثــأرَ الـديـانـةِ وانصُروهـا ... فقـــد حـــامت على القتلى النســورُ
ولا تهنـــوا وسلُّـــوا كل عَضْب ... تهـــابُ مضـــاربـــاً عنـــه النحـورُ
ومـــوتـــوا كلُّكم فـــالمـــوتُ أولى ... بكم ، من أن تُجــاروا أو تَجُـــوروا
أصبراً بعـــــد سبيٍ وامتحـــانٍ ... يـــلامُ عليها القلبُ الصَّبـــور
فـــأمُّ الحِبرِ مـــذكارٌ ولـــودٌ ... وأمُّ الصقرِ مقـــلاتٌ نـــزُورُ
نخــورُ إذا دُهينـــا بـــالرزايـــا ... وليس بمعجبٍ بقرٌ تخـــــورُ
ونجبنُ ليس نـــزأرُ ، لـــو شجُعنـــا ... ولـــو نجُبُنُ لكان لنـــا زئير
لقـــد ســـاءت بنـــا الأخبـــارُ حتى ... أمـــات المخبرين بهـــا الخبير
أتتنـــا الكتبُ فيهـــا كلُّ شرٍ ... وبشرنـــا بـــأنحُسنـــا البشير
وقيــــل : تجمعـــوا لفراق شمـــلٍ ... طليطلــــةٌ تملّكهـــا الكفــورُ
فقــل في خُطــةٍ فيهـــا صغـــارٌ ... يشيب لكربهـــا الطفـــلُ الصغير
لقـــد صم السميـــع فلم يعـــوِّل ... على نبـــاءٍ كما عمي البصير
تُجـاذِبُنـا الأعــادي بـاصطنـاعٍ ... فينجــــذب المـــوَّل والفقير
فبــاقٍ في الـديــانــة تحت خـزيٍ ... تثبّطـــه الشـــويهـــةُ والبعيرُ
وآخرُ مـــارقٌ هـــانت عليـــه ... مصـــائبُ دينِـــه فلـــه السعيرُ

كفى حزناً بأن الناسَ قالوا : إلى أين التحولُ والمسير
أنترك دورَنا ونفرُّ عنها وليس لنا وراءَ البحرِ دور
ولا ثم الضياعُ تروقُ حسناً نباكرُها فيعجبنا البُكُور
وظلّ وارفٌ وحريرُ ماءٍ فلا قرٌّ هناك ولا حرور
ويؤكلُ من فواكِهها طريٌّ ويشربُ من جداولِها نميرُ
يُؤدى مغرمٌ في كل شهرٍ ويؤخذُ كل صائفةٍ عشور
فهم أحمَى لحوزتِنا وأولى بنا ، وهُمُ الموالي والعشير
لقد ذهب اليقينُ فلا يقينٌ وغرّ القومَ باللهَ الغرور
فلا دينٌ ولا دنيا ولكن غرورٌ بالمعيشةِ ما غرور
رضوا بالرقّ ، يا لله ، ماذا رآه وما أشارَ به مشيرُ
مضى الإسلامُ فابك دماً عليه فما ينفي الجوَى الدمعُ الغزيرُ
ونح واندبْ رفاقاً في فلاةٍ حيارى لا تحُطُّ ولا تسيرُ
ولا تجنح إلى سلمٍ وحارب عسى أن يجبرَ العظمَ الكسيرُ
أنعمَى عن مراشِدنا جميعاً وما أنَّ منهمُ إلا بصير ؟
ونلقى واحداً ويفرّ جمعٌ كما عن قانصٍ فرت حميرُ
ولو أنا ثبتنا كانَ خيراً ولكن مالنا كرمٌ وخير
إذا ما لم يكن صبرٌ جميلٌ فليس بنافعٍ عددٌ كثير
ألا رجلٌ له رأيٌ أصيلٌ به ممّا نُحاذرُ نستجيرُ
يكرّ إذا السيوفُ تناولته وأين بنا إذا ولّت كُرورُ ؟
وطعن بالقَنَا الخطارِ حتى يقول الرمحُ : ماهذا الخطيرُ ؟
عظيم أن يكونَ الناسُ طرّاً بأندلس : قتيلٌ ، أو أسيرُ
أذكر بالقراعِ اللّيثَ حرصاً على أن يقرَعِ البيضُ الذكورُ
يبادرُ خرقَها قبلَ اتساعٍ لخطبٍ منه تنخسفُ البدورُ
يوسعُ للذي يلقاهُ صدراً فقد ضاقَتْ بما تلْقى صدورُ
تَنَغَّصتِ الحياةُ فلا حياةٌ وودع جيرةٌ إذ لا مُجير
قليلٌ فيه همٌ مستكنٌ ويومٌ فيه شرٌّ مستطير
ونرجو أن يُتيحَ اللهُ نصراً عليهم ، إنهُ نعمَ النصيرُ

طليطلة ومدى تأثيرها وتأثرها بالثقافة العربية[1] :

ولعل طليطلة تفوق أي مدينة من المدن التي أقامها العرب في إسبانيا ، حتى عاصمة الخلافة قرطبة ، من حيث تعمق الحضارة العربية ، وتأثر سكانها من النصارى الذين استعربوا ، واتخذوا من اللغة العربية لغة لهم ، حتى في صلواتهم في الكنائس ، ورغم أنها كانت من المراكز الإسلامية الأولى التي سقطت في يد الإسبان ، كما كانت من أوائل المراكز الإسبانية سقوطاً بيد العرب ، فإن اللغة العربية ظلت هي اللغة المستخدمة بعد سقوطها بحوالي خمسمئة عام ، وقيل : ستمئة عام ، فقد سقطت في سنة ١٠٨٥ م ، وظلت اللغة العربية حتى عام ١٥٨٠ م ، وقيل : حتى أوائل القرن السابع عشر ، ولم تختف اللغة العربية إلا بعد استخدام القوة من جانب حكام إسبانيا ، لمعاقبة من يتكلم أو يكتب باللغة العربية ، فلقد كانت لغة التعاقد كالصكوك والمبايعة .

ويذكر شكيب أرسلان في كتابه الحلل السندسية ، العديد من هذه الصكوك ، وقد اقتبسها من مؤلف لأديب إسباني جمع ثلاثة مجلدات ، تزيد عدد صفحاتها عن ألف صفحة بالقطع الكبير . ومن غرائب القدر ، أن اللغة العربية في الأخير كانت تستخدم لعقود تبادل الأسرى المسلمين ، ونذكر للقارئ بدايات بعض هذه الصكوك ، التي تعكس أيضاً أسماء الأشخاص التي أصولها عربية :

١ ـ اشترى دمنقة بن يحي .
٢ ـ اشترى دون لازر بن علي من دون يوان بن عثمان .
٣ ـ اشترى يوانش بن ملوك بن استافن بن عبد الرحمن .
٤ ـ أشهدت دونه شولي بنت عمر بن هشام .
٥ ـ باع القائد دون شبيب بن عبد الرحمن .

أما الأسماء فيجد المرء أنه بسبب التنصير القسري ؛ فإن الأسماء نفسها تحكي هذه المأساة ، فالأب كان اسمه عربياً مسلماً ، أما الابن فقد تحول إلى مسيحي ، ومن يدريك فلربما اسماً فقط ، والأسماء التالية تدل على ذلك :

بطره بن عمر .
مقيال بن عبد العزيز .
بيطره بن يحي .

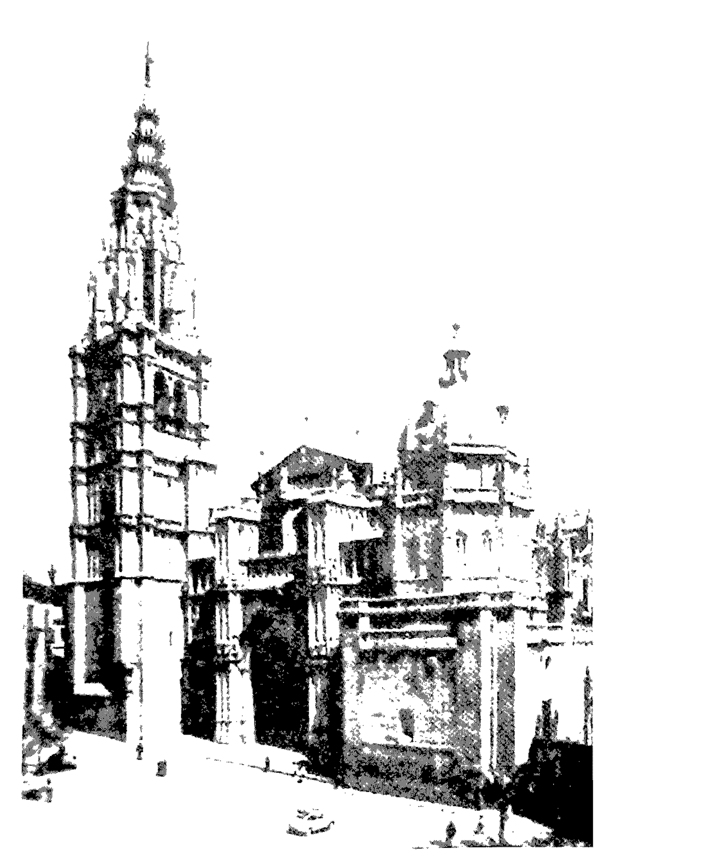
---

(١) يمكن العودة إلى الحلل السندسية للأمير شكيب أرسلان ٣٦٣/١ ـ ٤٨١ للاطلاع على الكثير من الصكوك المحررة باللغة العربية وتفاصيل سقوط طليطلة ، وتمسك سكانها بثقافتهم العربية ودينهم الإسلامي وفضل طليطلة على أوروبا .

اشتافن بن حسان .
مرتين بن عثمان .
شلبطور بن عبد الرحمن .

ويذكر شكيب أنه حتى أسماء القسس كانت عربية ، فأحد مطارنة طليطلة كان اسمه عبد الله بن قاسم ، أو القس ماير بن عبد العزيز بن سهيل ، وقد كانت اللغة العربية تستخدم أيضاً على قبورهم ، ليخلدوا بها أسماءهم ، وتاريخ وفاتهم ، أما طليطلة فقد أنجبت عشرات بل مئات العلماء والقضاة والفلاسفة ، ذكر منهم الأمير شكيب الكثير في حوالي أربعين صفحة .

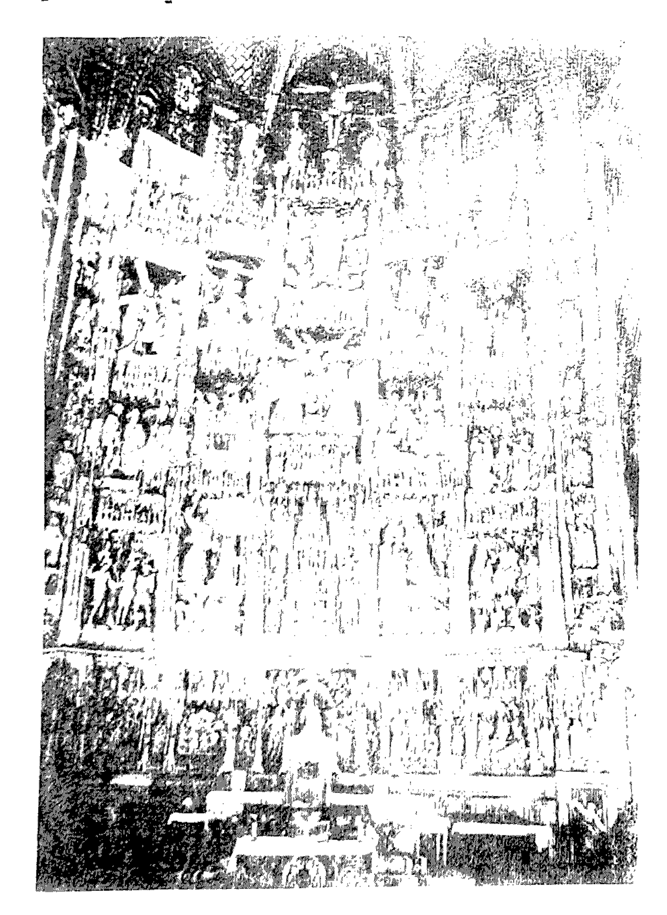
وطليطلة كانت كما أشرنا ، المركز الرئيسي لبزوغ فجر الإسلام في ربوع إسبانيا ، عندما فتحها العرب ، وكانت أيضاً بداية لغروب الإسلام في تلك الأصقاع عند سقوطها ، وكانت بسبب تحصنها مصدر القلاقل للحكام ، سواء العرب أو الإسبان ، ولم يكن يتم التغلب عليها ، إلا عن طريق الحيلة والخداع ، ومحاصرتها وتجويع أهلها ، وهذا ماتبعه القائد الإسباني ألفونسو السادس ، وقد سمع الأسلوب الذي اتبعه من العرب أنفسهم ، بأن طليطلة لا يمكن أن تسقط إلا عن طريق الحصار ، لا عن طريق الحرب ، فقد كان ألفونسو السادس هارباً لدى ابن ذي النون ملك طليطلة من أخيه ، وكان ابن ذي النون يتحدث مع أصحابه على مقربة من ألفونسو السادس حول طليطلة وحصانتها ، وأنها لا يمكن أن تسقط إلا عن طريق الحصار ، فسمع ذلك ألفونسو السادس ، وأسرها في قلبه ، وحين أتيحت له الفرصة بعد ذلك ، حين كان جالساً على عرش قشتالة ، استخدم نفس الأسلوب الذي سمعه من مضيفه



(٢٠) الجامع الأعظم الذي صلى فيه المغامي آخر صلاة

العربي ، فقد حاصرها ألفونسو السادس حتى أجبر أهلها على الدخول في الصلح ، وكان من شروط الصلح أن يؤمن الناس على أموالهم ودمائهم ، وأن يبقى المسجد الأعظم للمسلمين ، وأن يمكن من يريد أن يهاجر من الهجرة ، ولكن ألفونسو لم يف بوعده ، فسرعان ما نكل بالمسلمين ، وحول المسجد الأعظم إلى كنيسة ، في حفل بهيج في ديسمبر ١٠٨٥ م . ولسقوط المسجد قصة حزينة يذكرها الأمير شكيب أرسلان : أنه بينما كان الإسبان المسيحيون يتجمعون لتغيير قبلة المسجد وتحويله إلى كنيسة ، دخل الشيخ الطليطلي الجليل المغامي إلى المسجد وصلى فيه ، واستمع إلى قراءة القرآن من أحد مريديه ، ولما أكمل القراءة والإسبان متجمعون حوله سجد سجدة طويلة ورفع رأسه وهو يبكي على الجامع بكاء شديداً ، وخرج دون أن يجرؤ أحد من الإسبان المتجمهرين أن يعترض طريقه ، ويقال : أن المسيحيين كانوا يعلمون أن تلك الساعة هي الساعة الأخيرة للجامع ، فصبروا على هذا الشيخ حتى أتم نسكه ، وكانت آخر صلاة تؤدى في المسجد الأعظم .

ويذكر الأمير شكيب أرسلان في الحلل السندسية (الجزء الأول ص ٤٢٥) ما يلي : « كان في هذا المسجد الجامع حوض أمر ببنائه الظافر بن ذي النون سنة ٤٢٣ هـ ، وقد وجدوا كتابة على بلاطة رخام بأحرف الكوفي البارز ، هذا نصها بعد البسملة : أمر الظافر ذو الرئاستين أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون أطال الله أيامه ببنيان هذا الجب (الحوض) بجامع طليطلة حرسها الله ، فتم بعون الله في جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين وأربعمئة » .



(٢١) الهيكل داخل الكاتدرائية الذي خلد فيه القسس حصار غرناطه

وفي الكنيسة كنوز لا حصر لها ولا تقدر بمال ، وقد وقف بنا المرشد أمام لوحة مكتوبة باللغة الإسبانية ، ويشير إلى أن هذه اللوحة مكتوب عليها تاريخ

الانتهاء من بناء الكنيسة سنة ١٤٩٣ م ، بعد سنة من تاريخ سقوط غرناطة من يد المسلمين سنة ١٤٩٢ م ، وفي نفس الوقت إخراج اليهود من طليطلة ، ولا ينسى الرسامون أن يخلدوا ذكرى حصار غرناطة على يدي الملكة (إيزابيلا) والملك (فرديناند) في نقوش بارزة من الخشب تحت القبة الكبرى ، كما وقفنا أمام تحف ذهبية تذكرنا بما كان في طليطلة من نفائس حين وقعت في أيدي العرب .

ومن ضمن محتويات الكنيسة ثلاثة أعلام ، غنمها النصارى من المسلمين في إحدى المعارك ، وقد وضع علمان في قفص



(٢٢) أحد الأعلام المأسورة ونقوشه واضحة



(٢٣) أحد الأعلام وقد وضع أمامه الصليب
ويحتفظ بهذه الأعلام في قاعة الثياب المقدسة



(٢٤) الكاتب أمام مبنى الأسكوريال

زجاجي في قاعة جانبية ، أما الثالث فقد علق على الحائط وقد أصاب جزء منه التلف ، والأعلام مكتوب عليها الكثير من الآيات والشعارات في دوائر : « الملك الدائم » ، « العز القائم » ، ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ ، ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ ، وقد وضع الصليب أمام الأعلام .

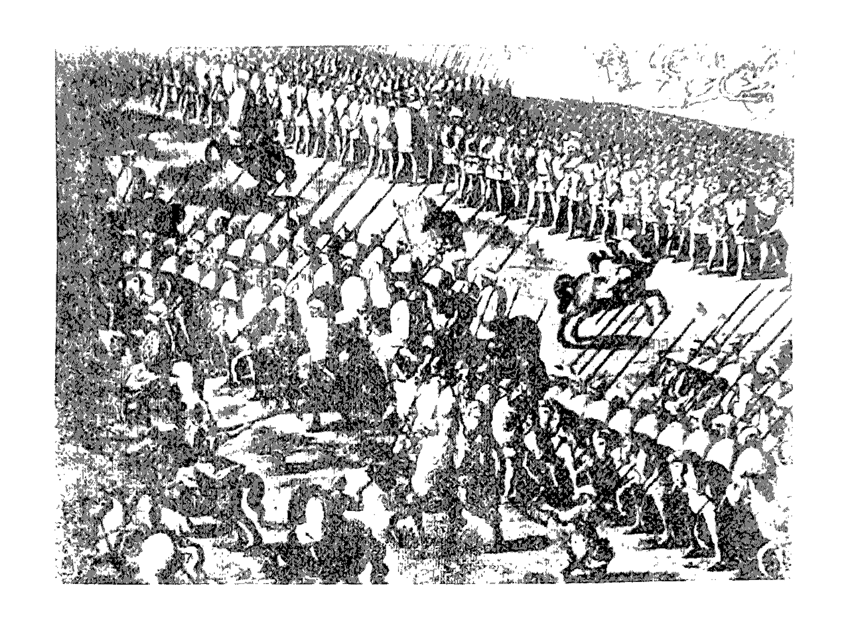
الرحلة إلى الأسكوريال ووادي الشهداء (ELESCORIL Y VALLE DE LOS CAIDOS)

الأسكوريال يبعد عن مدريد حوالي ٤٨ كيلو متراً ، وبجواره وادي الشهداء ، ويعتبر الإسبان الأسكوريال إحدى عجائب العالم الثامنة ، ويضم ديراً وكنيسة ضخمة ، ويضم المقابر الملكية ، كما يحتوي على مكتبة الأسكوريال[1] الشهيرة بالإضافة إلى القصر الملكي الذي تحول الآن إلى متحف يضم

(١) تحتوي المكتبة على أربعين ألف كتاب وبلغات مختلفة كاللاتينية واليونانية والعبرية ، ومعظم الكتب العربية قد جاءت عندما استولى الكابتن (بدرو دي لارا) PEDRO DE LARRA على سفينتين في البحر الأبيض المتوسط كانت تحمل هذه الكتب لسلطان مراكش مولاي زيدان وكانت تحتوي على أربعة آلاف كتاب .

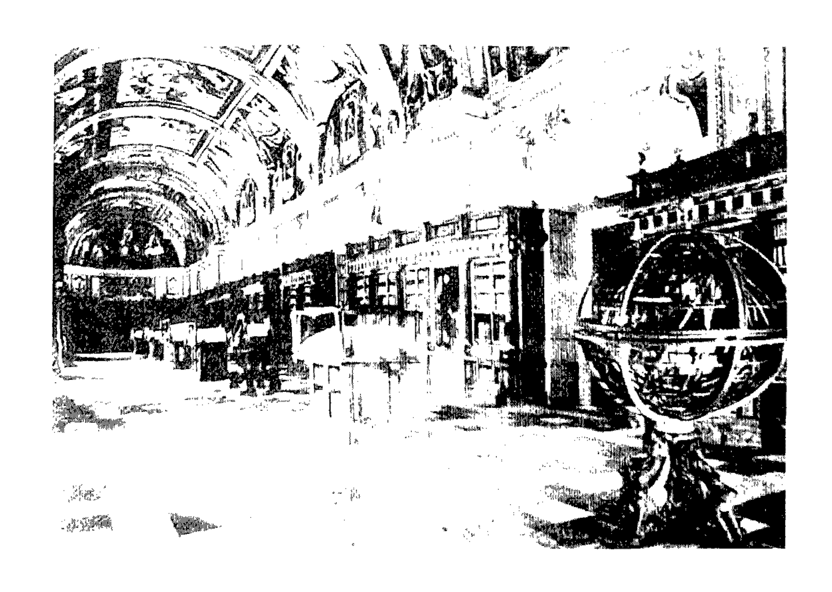
راجع : M. LOPEZ SERRANO

EL ESCORIAL



(٢٥) جزء من لوحة في الأسكوريال خلدت فيها المعارك بين العرب والآسبان

الكثير من اللوحات ، ومنها لوحة غطت قاعة طولها ٥٥ متراً وارتفاعها ٥ أمتار ، ويسمونها قاعة المعارك HALL OF BATTLES ، وهي تمثل إحدى المعارك الكبرى التي نشبت بين المسلمين والإسبان وانتصر فيها الإسبان انتصاراً ساحقاً ، وقد اشترك فيها العديد من الرسامين ، أما مكتبة



(٢٦) قاعة المكتبة التي تعرض فيها مخطوطات نادرة

(٢٧) صفحة من كتاب الجراحة للقرطبي رقم الكتاب في الأسكوريال ٨٧٦



(٢٨) صفحة من كتاب السلوانات محمد بن ظفر رقم الكتاب ٥٢٨

الأسكوريال فتضم حوالي ألفي كتاب عربي مخطوط في كل مجالات الفنون : النحو ، والشعر ، فقه اللغة ، المعاجم ، الفلسفه ، الطب ، التاريخ الطبيعي ، الفقه ، الجغرافيا والتاريخ ، وقد قدر لي أن أقابل الدكتور (براوليو خوستيل BARAULLO JUSTEL CALABOZO) ، وهو مدير المكتبة ، ويتكلم اللغة العربية بطلاقة ، وقد اشتريت منها فهرس للمخطوطات العربية الموجودة في المكتبة ، أعده أحد المستشرقين الفرنسيين HARTWIG DERENBOURG ، وقد فهرس (١٨٥٢) كتاباً في ثلاث مجلدات ، وقد نبهني مدير المكتبة أن الفهرس لا يشمل كتب الفقه ، وقد بدأ الفهرس بكتاب سيبويه في اللغة ، وكان رقمه (١)، أما رقم (١٨٥٢) نهاية المجلد الثالث فقد كان :

(٢٩) صفحة من خط ابن خلدون من كتاب لباب المحصل رقمها ١٦١٤

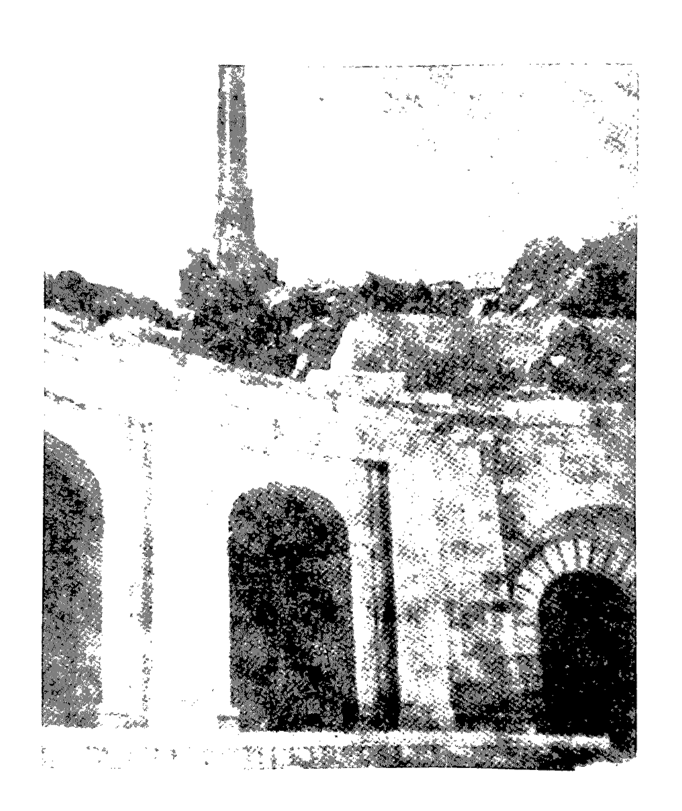
كتاب الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الحديث للحازمي ، وتحوي الـ ١٨٥٢ كتاباً المفهرسه كتباً في شتى أنواع المعرفة الإنسانية ، ومع المكتبة قاعة للاطلاع ، وكل ما تحويه المكتبة من مخطوطات وكتب تحت تصرف الباحث مع بعض الشروط ، كما أن هناك خدمات تقدم لمن يريد أن يقوم بالتصوير ، وقد شاهدت الكثير من الباحثين في قاعة المطالعة ، ومنهم كما عرفت مسلمون من المغرب العربي .

في وادي الشهداء :

وتوجهنا بعد ذلك إلى وادي الشهداء الذي لا يبعد إلا كيلومترات قليلة من الأسكوريال وقد بنى الجنرال (فرنسيسكو فرنكو) كنيسة داخل جبل ، وأقام في قمة الجبل صليباً هائلاً تخليداً لشهداء الحرب الأهلية الإسبانية ، وعمق الكنيسة داخل الجبل حوالي ثلاثمئة متر ، وعرضها ٢٢ متراً ، تزين الكنيسة لوحات من الداخل ، وفي نهاية الكنيسة في القبة الرئيسية لوحة تحتوي على رسوم من قطع المزايكو الصغير ، ويقال أن عدد القطع ستة ملايين قطعة ، وعلى جوانب الكنيسة تقع مدافن بعض ضحايا الحرب ، ويقال أن عدد المدفونين هناك ثمانون ألف جثة ، ولا يمثلون إلا عشر عدد الضحايا ، أي أن ضحايا الحرب الأهلية ثمانمئة ألف ضحية ، هذا كما روت لنا المرشدة ، وقد قبر الجنرال فرنكو في نهاية الكنيسة .

وكتب على القبر بـالحفر في البلاط (FRANCISCO FRANCO)، فرنسيسكو فرانكو إضـافـة إلى الصليب المحفور ، وقـد وضعت ثلاث بـاقـات من الزهـور أمـام القبر ، وقـد شـاهـدت كثيراً من الإسبان وهم يصلون أمام القبر ، ويظهرون له الود والاحترام .

أما الصليب الـذي يرتفع في قمـة الجبل الـذي تقع في جوفـه الكنيسـة فيبلغ ارتفـاعـه ١٥٠ متراً ، وذراعيه علامة الصليب ٤٦ متراً ، ويحيط بقاعدة الصليب تماثيل هائلة ، لأشخاص يمتطون حيوانـات مختلفـة ، وحقيقـة فـإن الكنيسـة والصليب يعتبران فعـلاً من عجـائب الـدنيـا ، وقـد قـارنت ذلـك بأهرامات الجيزة ، حينما تسخر الطاقات البشرية لبناء مثل هذه الأشياء ، فقد ظل فرنكو يعمل فيها لمدة تسعة عشر سنة أنفق فيها أموالاً كثيرة ، إضافة إلى استخـدام المسـاجين من كل إسبـانيـا ، لقضـاء عقوبة الأشغال الشاقة هناك ، في نزع التراب والحجارة من أعماق الجبل .



(٣٠) الكنيسـة في أعماق الجبل يعلوها الصليب

قرطبة

عاصمة الخلافة الأموية

كان الفندق قد حجز لي في قطار الساعة الثالثة مساء للتوجه إلى قرطبة ، وكان عليّ أن أخلي غرفتي قبل الساعة الثانية عشرة حتى لا تحسب ليلة ، والمسافة من مدريد إلى قرطبة حوالي أربعمئة كيلو متر ، وفي الموعد المحدد كنت في مقعدي في القطار النظيف ، أمسك بخريطة إسبانيا متتبعاً عليها أسماء المدن والمحطات التي نقف بها ، وما أكثر المدن التي مررنا بها ، وتبدأ أسماؤها بحرف : أل . وكانت أصول تسميات هذه المدن عربية .

عبرنا في رحلة الأربعمئة كيلو متر بالكثير من السهول والوديان ، وهذه الأماكن ، لا شك قد شهدت جند الله وهم يرسون دعائم الإسلام ، وشهدت بعد ذلك الأمن والاستقرار خلال حكم الأمويين ، لما يقارب ثلاثمئة عام ، وبعد ذلك شهدت عهد التجزئة ، فتارة تحت حكم ملوك الطوائف ، وتارة مع المرابطين ، وتارة مع الموحدين ، وأثناء فترة التجزئة هذه ، شهدت اقتتال الأشقاء ، وشهدت الدسائس والمؤامرات ، شهدت تحالف المسلم مع المسيحي ضد أخيه المسلم .

وأخيراً شهدت تحالف بل وتزاوج (ايزابيلا وفردناند) ضد المسلمين ، وطردهم من إسبانيا ، الأرض التي مررنا بها أرض خضراء كالقطيفة ، أشجار الزيتون بالملايين منسقة تنسيقاً جميلاً .

وللزيتون هذا قصة ، فعند دخول عبد الرحمن الداخل قرطبة أراد مع أصحابه أن يكون لهم علم فجاؤوا بقناة وعمامة ، ولكي لا تنثني القناة حين ربط العمامة في أعلاها ، أقاموا القناة بين شجرتي زيتون متجاورتين ، وصعد من عقد العلم في أعلى القناة ، وهي شامخة إلى أعلى ، وقيل أن تلك القناة قد ظلت مرفوعة الهامة إلى أعلى حوالي مئة عام ، ولم ينهزم جيش إسلامي كان يحملها ، وبدأت تحل الهزائم بالمسلمين ، بعد رمي بقايا العمامة التي اتخذت علماً[1] .

---

(١) يروى أن تلك الراية التي عقدت في بداية حكم عبد الرحمن الداخل قد استمر عقد الألوية الجدد فوقها « وهي مستكنة تحتها ولم يزل الأمر على ذلك حتى انتهت الدولة إلى عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل وقيل إلى ابنه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل » انظر نفح الطيب ٥٠/٣ .

عشرات الوجوه شاهدتها ، داخلة القطار وخارجة منه ، النـاس كخلية النحل ، شهـدت الكثير من الجنود الإسبان ، هذا مستدعى للتجنيد وذاك خارج منه ، وهذا في إجازة ، وذاك كلف بالذهاب إلى جهة أخرى . هكذا قرأت هذه الاستنتاجات من وجوههم ، تجدهم في مجموعات في المحطات ، والكل في فلكه يسبح .

قرطبة مدينة التاريخ :

« قرطبة جوهرة العالم الساطع ، مدينـة جـديـدة ورائعـة ، فخورة بقوتهـا ، شهيرة بمبـاهجهـا ، مزهوة بما تملك من خير وفير »[1] .

بـأربـع فـاقت الأمصـار قرطبـة وهن قنطرة الـوادي وجـامعهـا
هـاتـان ثنتـان والـزهراء ثـالثـة والعلم أكبر شيء وهـو رابعهـا

هكذا قال شاعر زمانه عن قرطبة ، عندما كان عدد سكانها حوالي نصف مليون نسمة ، أمـا اليوم فعدد سكانها حوالي ربع مليون ، لقد بلغت قرطبة أوج عظمتها في عهد عبد الرحمن الثالث ، كانت في عصره أعظم وأغنى مدن أوروبا ، وصل عدد مساجـدهـا إلى حوالي سبعمئـة مسجـد ، وحمـامـاتهـا إلى ثلاثمئة حمـام[2] ، أنجبت عشرات المفكرين والعلمـاء والشعراء ، أمثـال ابن رشـد وابن حزم وابن ميمون وابن زيدون ، واشتهر فيها ابن مسرة وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، والقالي عالم اللغة صاحب الأمالي .

إذاً فقرطبة هي بغـداد أو دمشق في بلاد الأنـدلس ، هي عـاصمـة الخلافـة ، وللقـارئ أن يتخيل الموقف ، وهو متجه نحو العاصمة التي شهدت هذا المجد ، وعايشت هذا الفكر ، يا هل ترى ، مـاذا بقي من السبعمئة مسجد ، ماذا بقي من حلقات العلم ، ومن نـدوات الشعر ، يـا هل ترى ، مـاذا بقي من مكتبة المخطوطات التي كانت تحوي أربعمئة ألف كتاب مخطوط[3] ، يروي التاريخ أنـه في عهـد الحكم

---

(١) قالت هذه الكلمات الشاعرة السكونية روزيتا (Hroswtha) في منتصف القرن العـاشر الميلادي وهي في ديرهـا منعزلـة في ألمانيا ، راجع الحضارة العربية في إسبانيا لليفي بروفنسال ترجمة الـدكتور الطـاهر أحمـد مكي - الطبعـة الأولى - دار المعارف ص ١٠٨ .

(٢) يذكر المقري في نفح الطيب ٥٤٠/١ « ويبلغ المساجد بها ثلاثة آلاف وثمانمئة وسبعة وثلاثون مسجـداً ، وعـدد الحـمامـات المبرزة للناس سبعمئة حمام ، وقيل ثلاثمئة حمام » وهناك حمامات أخرى .

(٣) المقري نفح الطيب ٢٩٥/١ .

ابن عبد الرحمن الناصر كانت النساء يشتغلن في نسخ الكتب ، وأنه في الربض الغربي من قرطبة ، كان هناك مئة وسبعون امرأة يشتغلن في هذه المهنـة ، وكان يصـدر في كل سنـة (ستون ألف مخطوط) في مختلف مجالات المعرفة ، أي بمعدل خمسة آلاف مخطوطة في الشهر .

وفي هذا المجال يقال : أن قرطبة كانت تعتبر مكتبة كبيرة ، فهنـاك مكتبـات عـامـة ومكتبـات خـاصـة ، فقـد كانت الكتب تعتبر جزءاً من زينـة البيت ، وكان سكان قرطبـة يتفـاخرون بـاقتنـاء الكتب النادرة ، ويشير المقري في نفح الطيب[1] إلى القصة التالية :

قال الحضرمي : « أقمت مرة بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة ، أترقب فيهـا وقوع كتـاب كان لي بطلبـه اعتنـاء ، إلى أن وقع وهو بخـط جيـد وتسفير (تجليـد) مليـح ، ففرحت بـه أشـد الفرح ، جعلت أزيد في ثمنه ، فيرجع إلي المنادي بالزيادة علي ، إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له :

ياهذا ، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي ، قـال : فـأراني شخصـاً عليـه لباس رياسة ، فدنوت منه ، وقلت له : أعز الله سيدنـا الفقيـه ، إن كان لـك غرض في هـذا الكتـاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده ، قال : فقال لي : لست بفقيه ، ولا أدري مافيه ، ولكني أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيـان البلـد ، وبقي فيهـا موضع يسع هـذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد ، استحسنته ، ولم أبـال بمـا أزيـد فيـه ، والحمـد لله على مـاأنعم علي بـه من الرزق فهـو كثير ، قـال الحضرمي : فـأحرجني ، وحملني على أن قلت لـه : نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك يعطي الجوز من لاعنده أسنان ، وأنا الذي أعلم مافي هذا الكتاب وأطلب الانتفاع بـه ، يكون الرزق عنـدي قليلاً ، وتحول قلـة مـابيـدي بيني وبينـه » ، وحين عملت مناظرة بين شهرة قرطبة وإشبيلية ، قيل في هذا المجال : أنه إذا مات عالم بـإشبيليـة وأريـد بيع كتبـه حملت إلى قرطبة لتباع هناك وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع أدواته الموسيقية حملت إلى إشبيلية لتباع هناك[2] ..

إذاً فشاعرنا على حق حين قال (والعلم أكبر شيء وهو رابعهـا) أمـا مـدينـة الزهراء المـذكورة في الشطر الأول فسوف يأتي ذكرها :

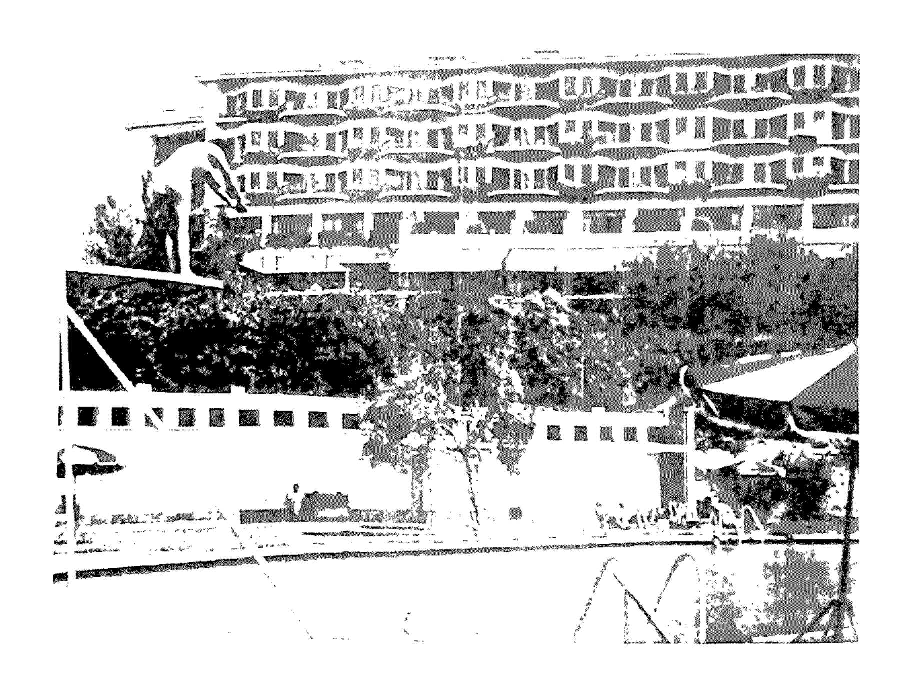
اتخذ عبد الرحمن الداخل قرطبة عاصمة لملكه ، فقد أسس قصراً خارج قرطبـة ، أسماه الرصـافـة[3]

---

(١) انظر ٤٦٣/١ .

(٢) انظر المقري نفح الطيب ٤٦٣/١ .

(٣) يحتل مكان قصر الرصافة الآن فندق فخم ويسمى جنة السياح ، أما القصر فقد حول إلى دير للرهبان قبل هدمه وبنـاء الفندق .



(٣١) بني هذا الفندق مكان قصر الرصافة الذي بناه عبد الرحمن الداخل

تخليداً لرصافة الشام التي بناها جده الخليفة هشام ، واستجلب إليها الكثير من مزروعات رصافة الشام ، ورغم أنه كان في بلاد الأندلس ، فقد كان يحن للديار الأموية في الشام :

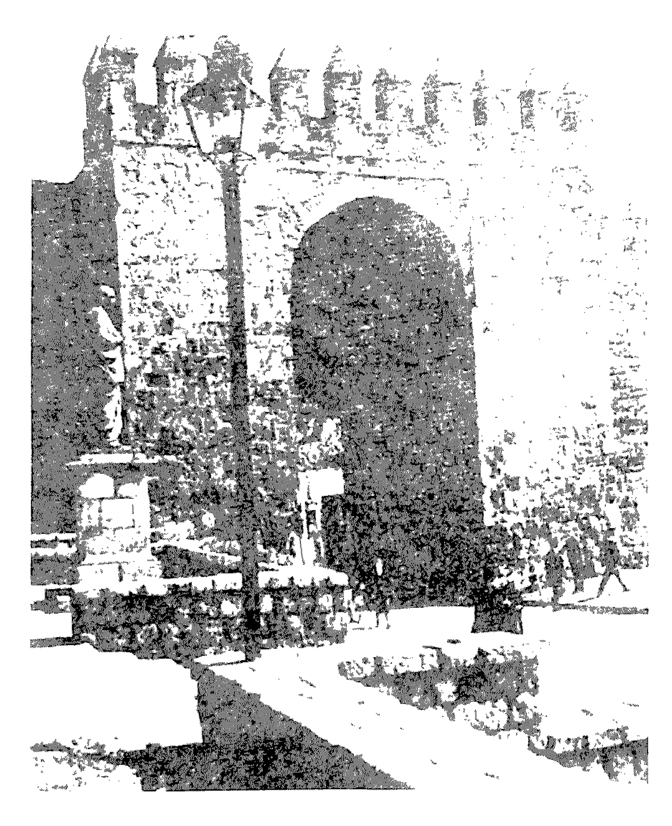
أيها الراكب الميم أرضي	إقرَ بعض السلام عني لبعضي
إن جسمي كما تراه بأرض	وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا	وطوى البين عن جفوني غُمض
قد قضى الله بالفراق علينا	فعسى باجتماعنا سوف يقضي

وظلت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية لمدة تصل إلى ثلاثمئة عام ، وانهارت قرطبة مع زوال الدولة الأموية .

هذه هي قرطبة التي يتلوى القطار نحوها مسرعاً الخطى ، ها نحن في محطة قرطبة ، حملت حقيبتي ، وبدأت أبحث عن سيارة لتحملني إلى وسط قرطبة إلى الحي الشعبي القديم حتى أشعر بالدفء ، إنني أنوي مصافحة كل من ألقى إنهم لازالوا في مخيلتي عرباً ، إنهم أبناء عمومتي ، ففيهم يمانيون كثير ، نعم سوف أقابل كثيراً ممن ينتسبون إلى الأوس والخزرج ، وهمدان وكهلان وخولان والمعافر فهم هنا معتزون بأصولهم اليمانية واعتزازهم هنا قد جعلهم يطلقون أسماء مناطقهم الأصلية في موطنهم الجديد كمنزل همدان وحصن مراد وقلعة خولان .. إلخ .

وما كدت ألقي بحقيبتي ، حتى خرجت تائهاً أتجول في شوارع المدينة ، متطلعاً إلى وجوه ساكنيها ، متفرساً في وجوه أحفاد النصف مليون عربي مسلم ، كنت أتخيل أنني سأقابل من يدلني في أي حي أنا ، هل أنا في ربض مسجد الكهف ، أو مسجد الروضة ، أو ربض جامع أم مسلمة ، أو ربض الرصافة .

لقد كنت أهم أن أسأل ، هل نحن في سوق العطارين ، أم سوق السراجين ، أم سوق الكتبيين ، مكثت أمشي دون هدف ، حتى وصلت أحد المطاعم ، فوجدت أن الساعة قد وصلت العاشرة مساء ، فتناولت عشائي وعدت أدراجي إلى الفندق ، لقد عدت خائب الظن ؛ لأن معظم من قابلتهم سياح ، ورغم خيبة الظن فقد كنت أنتظر الغد (وإن غداً لناظره قريب) ، سوف يأتي في الصباح (الأوتوبيس) السياحي ، وسأكون ضمن فوج من السياح ، وسأستكشف كل المواقع التي في مخيلتي ، كيف لا وقرطبة هي عاصمة الخلافة ، وسوف تكون معالمها المختلفة أكثر فهماً بالنسبة لي ، فأنا عربي والسياح لابد أن يكونوا في الغالب من أوروبا أو أمريكا ، كما شاهدت في الأيام الماضية ، أما أنا فأعرف حقائق كثيرة عن قرطبة ، أعرف كثيراً من أسماء مشاهيرها ، كابن حيان القرطبي شيخ المؤرخين الأندلسيين ، وابن حزم القرطبي صاحب طوق الحمامة ، وقاضي قرطبة منذر بن سعيد البلوطي صاحب الخطبة الشهيرة ، أمام عبد الرحمن الناصر لدين الله حين جاء وفد من مدينة قسطنطينة ، والذي أصبح فيما بعد خطيب جامع الزهراء .



(٣٢) باب المدور أحد أبواب قرطبة القديمة

لقد كانت هذه الأفكار تجول في خاطري قبل استسلامي للنوم ، وجاء (الأوتوبيس) السياحي في موعده في الصباح الباكر ، وكان غاصاً بالسياح ، صعدت فيه وكأنني ابن البلد ، إنني في قرطبة العربية ، واتجه بنا في أهم شارع من شوارع قرطبة ، إنه شارع



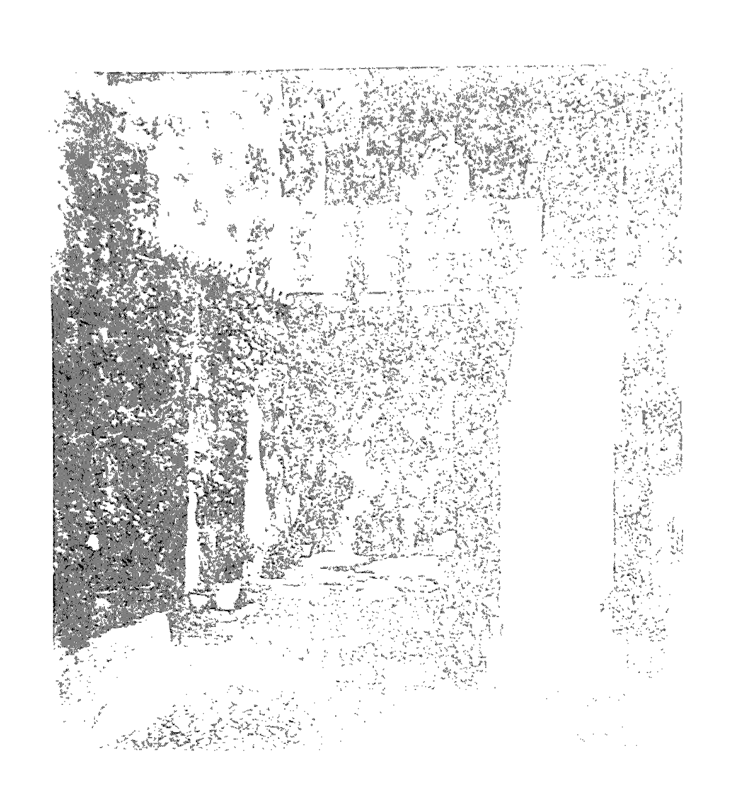
(٣٣) المعبد اليهودي في قرطبة



(٣٤) بجوار الفيلسوف العربي ابن ميمون

، (AVENIDA DELGRAN CAPITAN)
ورأينا في الطريق سهماً يشير إلى موقع فندق الخليفة ، ولربما يقصدون الخليفة الناصر فهو أول من لقب بهذا ، وحتى وصلنا إلى نهاية الشارع ترجلنا من الحافلة ، ودخلنا المدينة القديمة من باب المدور ، وبدأ المرشد يشرح أننا في طريقنا إلى المعبد اليهودي ، ومنه سنصل إلى الحي العربي ، ثم إلى المسجد ، وفي دقائق وجدنا أنفسنا نسير في شوارع ضيقة حولها بيوت بيضاء من طابق أو طابقين ، تتدلى من كل نوافذها تقريباً ومن أبوابها

مزهريات جميلة ، دخلنا المعبد اليهودي ذا النقوش العربية ، ولليهود قصة في إسبانيا كقصصهم في أي مكان عاشوا فيه ، ويقف قريباً من المعبد ، تمثال للفيلسوف ابن ميمون الطبيب اليهودي ، والفيلسوف الذي عمل طبيباً لصلاح الدين الأيوبي ، وقد ولد في قرطبة ، والمعبد يقال أنه الوحيد في إسبانيا ، وهو مجرد مزار وتسكن في غرف تكون جزءاً منه عجائز إسبانيات يبعن صوراً تذكارية لقرطبة ، ومضينا نحث الخطى في الحي العربي ، والتي تكاد تكون شوارعه متشابهة ، تغطي الحي رائحة زكية من الزهور الكثيرة التي يعتنى بها عناية فائقة .

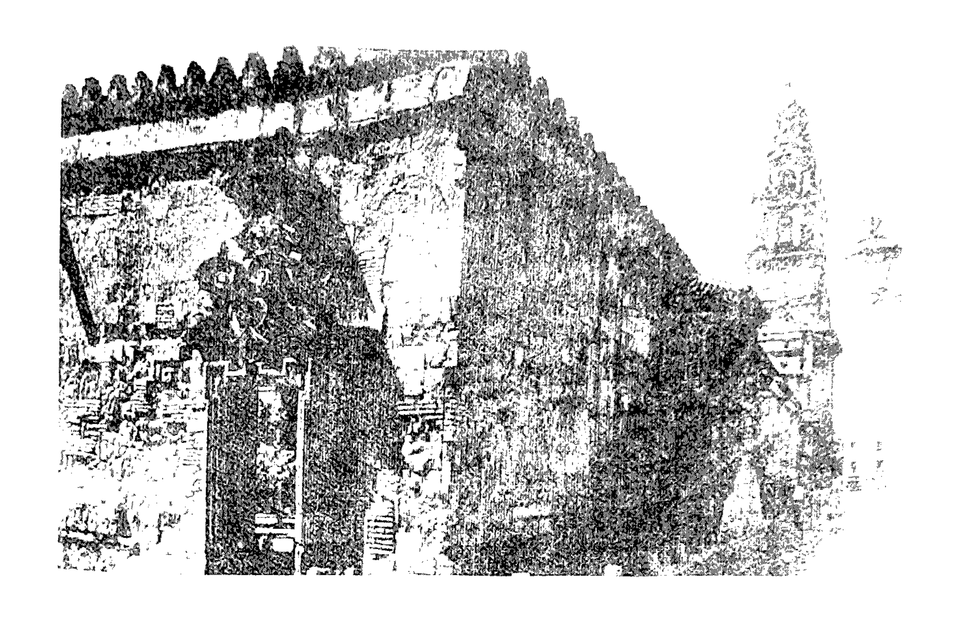


(٣٥) بيت عربي تتدلى عشرات المزهريات في فنائه الداخلي

أما ما اختفى من المزهريات داخل البيوت ، وفي الجدران الشمسية فهو أكثر ، وتعتبر المزهريات أحد الملامح الرئيسية لمدينة قرطبة ، ولربما أن هذه الزهور المشهورة بها قرطبة هي التي أكسبتها جوها العليل ، يحكى أن أبا بكر بن سعادة وأخاه قد وصلا إلى طليطلة ، وذهبا لزيارة الشيخ الأستاذ أبي بكر المخزومي ، فسألهما من أين وصلا ، فقالا من قرطبة قال : متى ؟ قالا : الآن . فقال لهم اقربا إلي ، أشم نسيم قرطبة فقربا منه ، فشم رأس أحدهما وقبله ، وقال اكتب[1] :

أقرطبة الغراء هل لي أوبة ... إليك وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانب الغربي منك غمامة ... وقعقع في ساحات دوحتك الرعد
لياليك أسحار وأرضك روضة ... وتربك في استنشاقها عنبر ورد

(١) انظر نفح الطيب ١٥٥/١ .



(٣٦) جامع قرطبة كما يبدو من الخارج وتبدو المآذنة وقد حملت بالأجراس

مضينا مع المرشد ؛ ليدخل بنا بيوتاً معينة ، يمكن للسياح الدخول فيها لمشاهدة كيف تتم العناية بمئات المزهريات المعلقة في الجدران البيضاء ، ومضينا إلى حيث الهدف ، إلى المسكيتا (LAMEZQUITA) ، أي المسجد كما يدعونه ، والذي يعتبر أثراً فريداً من نوعه ، ويتمثل فيه عهد الخلافة وعظمتها ، في أبدع صورة ولا يكاد المرء يقرأ نشرة سياحية أو كتاباً عن قرطبة إلا واحتل المسجد الجزء الأكبر من تلك النشرات والكتب ، وقد بدئ في تشييد المسجد في منتصف القرن الثامن الميلادي في عهد عبد الرحمن الداخل وأكمل ابنه هشام ماقام به والده ثم جاء عبد الرحمن الثاني فوسع فيه وأكمل التوسعة ابنه محمد بن عبد الرحمن ، ثم جاء الحكم الثاني فوسع فيه ، ثم المنصور بن أبي عامر ، وهكذا استمرت التحسينات والتوسعات ، حتى أصبح أكبر جامع في العالم الإسلامي في ذلك الوقت ، ومما يروى أن كل خليفة يوسع في الجامع يغدق على الذين تنتزع ملكياتهم لصالح التوسعة أموالاً كثيرة ، وفي التوسعة التي قام بها المنصور بن أبي عامر كان يؤتى بصاحب المنزل ، فيقال له إن هذه الدار التي لك ياهذا أريد ابتياعها لجماعة المسلمين ، من مالهم ومن فيئهم لأزيدها في جامعهم وموضع صلاتهم ، فاشطط واطلب ماشئت ، فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر (المنصور بن أبي عامر) أن يضاعف له ، وأن تشترى له بعد ذلك دار عوضاً منها ، ويقال أن امرأةً كانت لها دار فيه نخلة ، فقالت للمنصور بن أبي عامر : لا أقبل عوضاً إلا داراً بنخلة ، فأمر أن تبتاع لها دار بنخلة ولو

ذهب فيها بيت المال ، فحققت رغبتها وبولغ في ثمن بيتها[1] هذه بعض قصص بناء المسجد ، وقيل إن المنصور كان يعمل بنفسه في بناء المسجد .

وهنا لا بد لنا أن نذكر نبذة موجزة عن المنصور بن أبي عامر المعافري اليمني ، كان يلقب بالملك الأعظم ، المنصور بالله ، الملك الكريم والسيد ، يرتبه البعض أنه ثاني شخصية أندلسية بعد عبد الرحمن الناصر ، ويقول البعض أن هيبة المنصور ، وعظمة الدولة ، لم تصل كما وصلت في عهده ، وفد جده عبد الملك المعافري مع طارق بن زياد أيام الفتح ، كان شديد الذكاء ، واسع الحيلة ، تدرج في المناصب ، حتى أصبح من المقربين إلى القصر لدى الخليفة الحكم ، توفي الحكم وأورث الخلافة لابنه هشام ، الذي كان قاصراً (تسع سنوات) ، فأوكلت صبح أم هشام إلى المنصور إدارة أملاكها ، وبدأ يستولي على الحكم تدريجياً ، باستمالة أعيان الدولة بالعطايا أو بالقضاء على من استعصى عليه ، فقد قضى على الصقالبة في القصر ، وجعل البربر وقبائل زناته هم القادة ، وأخر العرب ، قضى على منافسيه الأقوياء ، استمال العلماء بأن أحرق كتب الفلسفة واعتنى بكتب الفقه ، وأخيراً جعل من هشام الخليفة مجرد رمز ، فقد كان المنصور هو الخليفة الحقيقي ، كانت المكاتبات توجه باسمه ، كان يدعى له على المنابر عقب الدعاء للخليفة ، مد حكمه حتى بعض أجزاء المغرب العربي ، وصل في غزواته إلى أقصى الشمال الغربي لشبه الجزيرة الأيبيرية ، وصل مدينة (شانت ياقب)[2] المدينة المقدسة لدى الإسبان ، ولم يمس القبر المقدس هناك بشيء ، فقد وضع عليه حراسه غزا أكثر من خمسين غزوة « لم تنتكس له راية ، ولا فل له جيش ، وما أصيب له بعث ، وما هلكت له سرية »[3] حكم سبع وعشرين سنة عندما مات كتب فوق قبره الأبيات التالية :

آثاره تنبيك عن أخباره   حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله   أبداً ولا يحمي الثغور سواه

قيل أن (ألفونسو) حين دخل مدينة سالم[4] التي يوجد بها قبر المنصور ، ومن شدة حقده على

---

(١) انظر المقري نفح الطيب ٥٤٦/١ ـ ٥٤٧ .

(٢) تسمى SANTIGO DE COMPOSTELA وتقع في أقصى الشمال الغربي لإسبانيا كانت ولا تزال المدينة المقدسة لدى الإسبان ، يقال أن فيها رفاة أحد الحواريين الإثنى عشر وهو يعقوب من زبده الذي نشر المسيحية في شبه الجزيرة الأيبيرية ، وبهذا القبر كان الإسبان يستغيثون في حروبهم مع المسلمين ، وصلها المنصور في ٩٩٧ م كانت هذه الغزوة بالنسبة للمنصور الغزوة الثامنة والأربعون .

(٣) المقري نفح الطيب ٣٩٨/١ .

(٤) يدعيها الإسبان مدينة سالي (Medinaceli) وهي تقع شمال شرق مدريد .

المنصور ، وضع سريره فوق قبر المنصور ، وامرأته متكئة إلى جانبه ، وقال لشجاع مولى المستعين بن هود : « أما تراني قد ملكت بلاد المسلمين وجلست على قبر ملكهم »[1] كان مهاباً عند النصارى ، حتى أن إحدى الرايات العربية نسيت مرفوعة في أحد المواقع ، ورغم انسحاب الجنود المسلمين من ذلك الموقع ، فإن جيش النصارى لم يجرؤ على الاقتراب من الراية لعدة أيام ، كان شديد الحزم ، فقد قال له تاجر بعد أن رد إليه أملاكه من الجواهر الثمينة ، كانت في صرة حمراء ، وخطفت عن طريق حدأه ، وسقطت أثناء طيرانها في مكان غير معروف ، قال للمنصور بعد أن ردت إليه جواهره : « والله لأحدثن في مشارق الأرض ومغاربها ، أن ابن أبي عامر يحكم على الطيور وينصف منها »[2] .

لمح بريق سيف في أحد الميادين في وقت السلم ، وفي مكان في أقصى الميدان ، فطلب المنصور بن أبي عامر الجندي الذي أشهر السيف ، فقال له ما حملك على أن شهرت سيفك في مكان لا يشهر فيه إلا عن أذن ، فاعتذر الجندي أنه قد انزلق عليه من غمده ، فلم يقبل عذره وأمر به فضربت عنقه ، كان يقف مع الحق حتى ولو ضد أقرب المقربين إليه ، فقد جاء أحد العامة يشكو أحد حراسه المقربين والملازمين له باستمرار ، فأمر بتجريد حارسه من سلاحه ، وأمره أن يقف بجوار خصمه حتى يدافع عن نفسه ، وأحال الاثنين إلى صاحب المظالم ، وبعد أن اقتص الرجل من



(٣٧) المحراب

---

(١) للقصة بقية أوردها المقري في نفح الطيب ٣٩٩/١ قال : ويقصد شجاع مولى المستعين بن هود : فحملتني الغيرة أن قلت له : لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه ماسمع منك مايكره سماعه ، ولا استقر بك قرار ، فهم بي ، فحالت امرأته بيني وبينه وقالت له : صدقك فيما قال ، أيفخر مثلك بمثل هذا ؟

(٢) انظر المقري نفح الطيب ٤٠٢/١ .

الحارس ذهب للمنصور يشكره ، فقال لـه : اذهب لسبيلـك ، وبقي انتصـافي أنـا ممن تهـاون بمنزلتي ، وعوقب الجنـدي لأنـه استغل قربـه من المنصـور ، كان كريمـاً عطـوفـاً على الفقراء ، فقـد أمر بختـان خمسمئـة صبي من أولاد الضعفـاء عنـد ختـان أحـد أولاده ، وقيل أن التكلفـة قـد بلغت خمسمئـة ألف دينار ، كان معظم جنوده من السبايا ، ولم يكن ليعود من غزوة إلا وبـدأ في الإعـداد لغزوة أخرى ، جمع كمية كبيرة من الغبار الذي تراكم عليه أثناء معاركه ، وأمر أن يدفن هذا الغبار معـه ، خـط بيـده القرآن الكريم ، وكان يحمله معـه لقراءتـه في سفريـاتـه وغزواتـه ، وكان يحمل أكفـانـه معـه توقعـاً لحلول منيته ، وقد صنع الكفن بناته من أطيب أمواله ، كان محباً للتعمير ، فقد أقـام مـدينـة الزاهرة وبنى العديد من القناطر ، ووسع جامع قرطبة الذي كنا بصدد التحدث عن توسعته .

ولنعـد إلى المسجـد ، لعـل من أهم مظاهر الإبداع فيه هو المحراب ، وقبته الفخمة ، والخزف الذي أهداه الإمبراطـور قسطنطين السـابـع إلى الخليفة الحكم الثاني ، وقـد كتب على المحراب : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي هـدانـا لهـذا ومـا كنـا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والمحراب يعتبر قطعـة فنيـة ، تعجـز الألسن عن وصفها .



(٣٨) المحراب الذي بناه الحكم الثاني

لقـد شـاهـدت الكثير من السياح ، يقفون الساعات الطوال ، وهم في مـواقعهم أمـام المحراب ، لا يتزحـزحـون ، تعلـو وجـوههم الـدهشـة ، يقفـون خـاشعين أمـام الإبداع والجمال ، أمام هندسة البنـاء وروعتـه ، أمـا الـزائر المسلم فـلا يتمالـك نفسـه إلا أن يـؤدي ركعتين بخشـوع ، تحيـة المسجـد ، والمسجـد كان يسـع لثمانين ألفـاً من المصلين ، وكان به ألف وأربعمئـة وسبع عشرة

سارية . والإنسان أياً كان موقعه في المسجد أو في أي زاوية بعيدة يمكنه أن يشاهد المحراب بكل وضوح ، وإن كان قد بني داخل المسجد كنيسة شوهت منظره البديع ، والمشاهد للكنيسة يشعر أن بناتها قد حاولوا على مدى قرنين ونصف من الزمن ، أن تكون نقوشها وأعمدتها ومحتوياتها في أحسن ما يتصورون ؛ حتى يضاهوا إن لم ينتزعوا الأنظار عن الإبداع الفني في المسجد ، ولكن محاولتهم لم تكن موفقة ، فقد كانت مثلاً بعض عقودهم توصل بعقود الجامع ، ولكن عندما يشاهد المرء جزء العقد الذي بناه بناة المسجد ، يشاهد البساطة والإتقان والإبداع ، وقد عبر عن ذلك مرشدنا السياحي إذ وقف في إحدى زوايا المسجد البعيدة ، وقال : هل تشاهدون المحراب من هذا الموقع ، وهكذا سوف تشاهدونه من أي ركن أو زاوية لولا هؤلاء الذين شوهوا هذا التناسق بإقامة هذه الكنيسة في قلب المسجد ، مما حال دون رؤية المحراب من بعض الزوايا كما تشاهدونه من هنا .



(٣٩) عقد من عقود المسجد وتحته الصليب

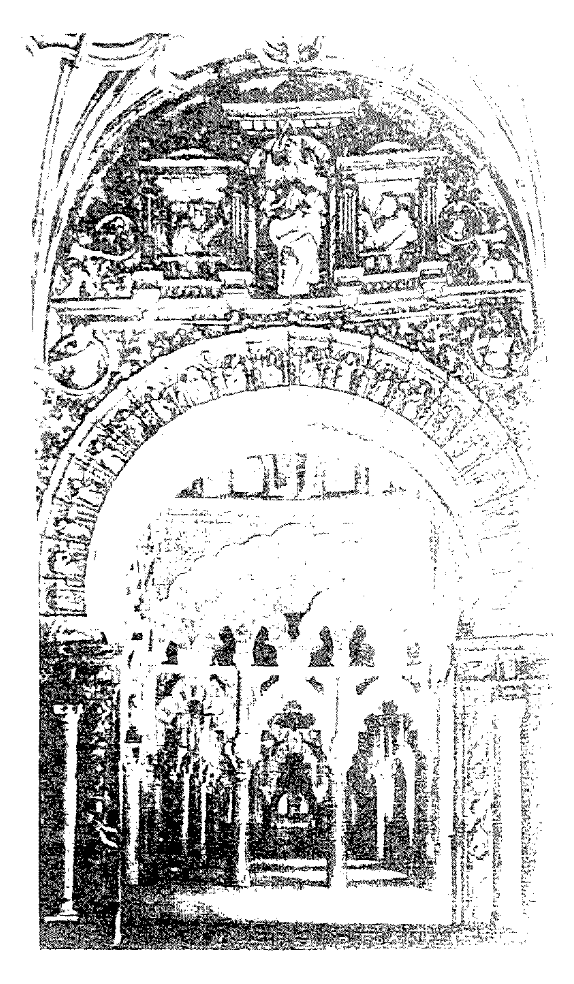
ويقول محمد عبد الله عنان « ومتى سرحت البصر في هذه التفاصيل مدى لحظة أدركت أنك تجوس خلال أثر إسلامي ، شوهت معالمه الإسلامية بطريقة منظمة ، ولكن ساذجة فجة ، وأشد ما يؤذي النظر خلال هذا الجلال المشوه ما يسود وسط الجامع وجوانبه من الظلام »[(١)] .

ويروي التاريخ أن الأمبراطور شارل الخامس قال للقسس الذين أشرفوا على بناء الكنيسة داخل المسجد « إن ما انجزتم هنا نجده في كل مكان ، وما هدمتموه ليس له نظير في العالم »[(٢)] مع العلم أنه هو الذي أعطاهم الإذن بالهدم .

---

(١) محمد عبد الله عنان « الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ص ٢٤ .

(٢) الدكتور عبد العزيز الدولاتلي (مسجد قرطبة وقصر الحمراء) ص ٣٤ .



(٤٠) صورة من المسجد وقد شوه بالنقوش المسيحية

والجدير بالذكر أن الأمبراطور نفسه هو الذي هدم جزءاً من مباني الحمراء ؛ ليقيم مبنى كبيراً على الطريقة الرومانية ، كما أنه قد هدم مسجد الحمراء ؛ ليقيم مكانه كنيسة تسمى الآن (سانتاماريا) أما بعض الأثريين الإسبان فقد وصفوا إقامة الكنيسة داخل الجامع بأنه (عمل همجي) ، أما العلامة (كونتريراس) فإنه يصف تشويه الجامع بأنه (تدنيس للفن)[1] .

لقد قيل لنا أن للمسجد عشرين باباً[2] والباب الرئيسي هو باب الرحمة الذي يؤدي إلى الجزء الشمسيّ من المسجد ، والذي يحتل جزءاً كبيراً ، وهو مملوء بأشجار البرتقال المثمرة وتمر فيه سواقي المياه التي كانت تستخدم للوضوء ، وينبع الماء من النوافير التي تصب في حوض ، ومن الحوض تنساب المياه إلى السواقي .

لقد وقفت متأملاً في وسط الجزء الشمسي من المسجد وتخيلت مئات المصلين وهم يتطهرون ، ومنهم الفلاسفة والعلماء والقضاة ، إنهم يتطهرون بماء يقال أنه قد أجراه الحكم الثاني المستنصر بالله ، من عين بعيدة من سفح جبل قرطبة ، وقد مده في أنابيب من الرصاص ، وكان الماء يصب في ثلاثة أحواض واسعة من الرخام ، ولذا قال الشاعر في حينه :

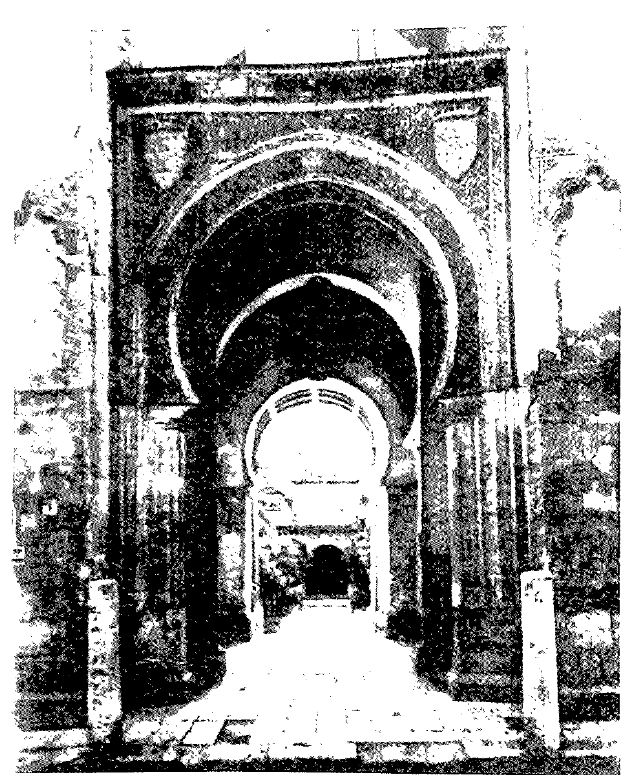
---

(١) محمد عبد الله عنان سابق الذكر ص ٢٦ .

(٢) تختلف الروايات عن عدد الأبواب وقيل ٢٤ باباً .

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف | من أعذب الماء نحو البيت تجريها
طهر الجسوم إذا زالت طهارتها | ريّ القلوب إذا حرّت صواديها
قرنت فخراً بأجر قل ما اقترنا | في أمة أنت راعيها وحاميها

نعم لقد تخيلت هذه العشرات ، وهم يهرعون للوضوء لأداء الصلاة وبعد أداء الصلاة ينتظمون في حلقات علم ونقاش ، ومعهم الوافدون الأوروبيون وأفيق من خيالي على أزيز نحلة وهي ترتوي من ماء الساقية ، التي كنت أقف عليها وأتابع مسيرتها ، فإذا بها تدخل في ثقب بعرض الجدار المقابل والعشرات ذاهبات آيبات إلى الثقب ، وإذا بالنحل قد اتخذن الجدار مكاناً مناسباً لصنع العسل المصفى وكان عليّ أن أتبع المرشد ليستكمل برنامجه المعدّ لنا ، أما المسجد فلا بد أن أزوره مرة أخرى وزيارتي له مع المرشد لا تشبع غليلي .



(٤١) باب الرحمة ومنه يدخل زوار المسجد

الزيارة الثانية للمسجد :

وأنفق في دين الإله ووجهه | ثمانين ألفاً من لجين وعسجد
توزعها في مسجد أسها التقى | ومنهجه دين النبي محمد
ترى الذهب الناري بين سموكه | يلوح كبرق العارض المتوقد

ما كدنا ننتهي من البرنامج المعدّ من قبل المرشد السياحي الذي أوصلني إلى الفندق ، إلا وعدت مرة أخرى للجامع ، وتوجهت إلى باب الرحمة ، وبينما أنا أرقب الباب والمأذنة التي تنتصب شامخة فوقه ، إذ بإسباني في مدخل الباب يرقبني وكأنه يريد أن يقول لي شيئاً ، وكان منتظراً فقط السبب الذي يدعوه للكلام معي ، حتى ولو كان التفاتةً مني إليه ، وفعلاً بادرني بلهفة عربي ، عربي بلهجة

إسبانية ، قلت له : نعم إيماءً فإذا به يسرع إليّ مصافحاً ومبتهجاً ومحتضناً ، وكأنه لاقى صديقاً قديماً ، وبدأ يشرح لي بالإسبانية : المأذنة ، الباب ، المسجد ، وكأنه يريد أن يقول : انظر ماذا ترك الأجداد ، لقد كان معجباً بما يشاهد ، كانت تقاسيم وجهه عربية ، قلت في نفسي من يدريك لربما كان جدك الأبعد سادناً أو طالباً أو شيخاً أو على الأقل أحد المصلين في هذا المسجد ، من يدري ؟.

ومضيت عبر شماسي المسجد لأشرب مرتين من إحدى ينابيع المياه شراباً عذباً ، وواصلت المسير إلى المحراب لأقف خاشعاً هناك مع الخاشعين .

(٤٢) أحد أبواب المسجد الذي احتفظ بطابعه العربي

والمحراب ليس كما اعتدنا عبارة عن نصف دائرة ، ولكن المحراب الذي أقف أمامه عبارة عن شكل مثمن ثمان بلاطات رخامية كونت المحراب ، والجدار المحيط بالمحراب مزين بعدة أشرطة ، فهناك شريط أفقي ذو أرضية ذهبية ، مكتوب بها أسماء الله الحسنى ، وشريط آخر أزرق كتب عليها (أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين وفقه الله مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله بتشبيك هذه البنية ، فتم بعون الله بنظر محمد بن تمليخ وأحمد بن نصر وخالد بن هشام أصحاب شرطته ، ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب) .

واتجاه المحراب هو نحو الجنوب ، ويقال أن الحكم أراد أن يوجه القبلة الاتجاه الصحيح ولكن قاضي قرطبة نصحه وقال له : ياأمير المؤمنين إنه قد صلى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمة من أجدادك الأئمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم ، منذ أن فتحت الأندلس إلى هذا الوقت متأسين بأول من نصبها . من التابعين كموسى بن نصير وحنش الصنعاني وأمثالهم رحمهم الله تعالى ، وإنما فضل من فضل بالاتباع



(٤٣) المحراب «لقد صلى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمة»

وهلك من هلك بالابتداع[١] ، وبقيت القبلة بنفس الاتجاه إلى الآن ، وحنش الصنعاني[٢] هذا هو من صنعاء قرية بجوار دمشق غير صنعاء اليمن ، وهو تابعي جليل ، روى عن بعض الصحابة ومنهم ابن عباس وأبي هريرة ، وروى عنه آخرون ، دخل مع موسى بن نصير ، ويقال أنه أذن في قرطبة في وقت غير وقت الأذان ، فانتقد لفعله هذا ، فقال إن هذه الدعوة لاتنقطع من هذه البقعة إلى أن تقوم الساعة .

لقد عملت الحكومة الإسبانية حاجزاً حديدياً يبعد الزوار عن لمس النقوش والآيات المكتوبة في القبلة ، وتذكرت ما كتبه أحمد بن مهدي الغزال[٣] في رحلته إلى الأندلس ، والتي تمت في

---

(١) انظر عبد العزيز الدولاتلي سابق الذكر ص ٧٨ .

(٢) يروى أن أحد الصحابة قد دخل الأندلس وهو المنيذر الأفريقي ويروى له حديث « من قال رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً فأنا الزعيم لآخذن بيده فأدخله الجنة » أما التابعون فقد دخلها موسى بن نصير ، أبو عبد الله علي بن رباح اللخمي ، أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري وحيان بن أبي جبلة ، المغيرة بن أبي بردة ، نشيط بن كنانة العذري ، حيوة بن رجاء التميمي .
انظر المقري نفح الطيب ٥/٣ ـ ١٠ .

(٣) « نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد » ص ٩٧ .

سنة ١٧٦٧/١٧٦٦ م ، أي قبل حوالي مئتين وخمسة عشر عاماً ، قال يصف مثل هذا الحاجز : « إنهم (أي النصارى) لم يقتربوا من المحراب ، واضطروا إلى تسويره ، ولربما أن ذلك قد جاء بسبب شيء حدث لهم ، فقد اعتادوا (القسس وأسماهم : الفرايلية) أن يقتطعوا أجزاء من المسجد ليكون سكناً لهم ، ولكنهم لم يعملوا ذلك في المحراب » ، وقد استحسن هذا ، ولكي يعمّق في نفوسهم الخوف من المحراب ، وحتى لا يشوهوه قال لهم : « إننا و يقصد المسلمون ، لا ندخل المحراب إلا وقت الصلاة فقط ، ومن دخله في غير أوقات الصلاة يخاف على نفسه الهلاك والعياذ بالله » .

ويشير الغزال إلى أن القسيس قد أمن على قوله هذا ، ثم يشير إلى تردد القسيس لفتح الحاجز ليدخل الغزال ، ولكن حاكم قرطبة الذي كان مرافقاً للغزال أمره بإحضار المفتاح ، ودخل إلى داخل المحراب ووجده مثمناً كل ثمن مستقل بلوحة رخامية طولها عشرة أشبار ، وعرضها سبعة أشبار .... وتركت الحكومة الإسبانية هناك مراقباً بل عدة مراقبين داخل المسجد ، فالكثير من الزوار يشرعون أقلامهم ويكتبون على الأعمدة ذكرياتهم ، وقد قرأت كتابات عربية على الأعمدة لزوار عرب من العراق والكويت والمغرب ولبنان وعشرات الكتابات بمختلف اللغات ، ويعتقد الزوار لهذا الأثر الخالد ، أنهم بفعلهم هذا يخلدون أسماءهم وذكرياتهم ، وهم بفعلهم هذا يشوهون ، وعملهم ليس إلا من قبيل العبث ، كان الليل قد بدأ يرخي سدوله ، وبدأ الحراس يبحثون في زوايا المسجد عن من بقي من السياح ، ليقفلوا الأبواب .

جولة في الحي العربي حول المسجد :

سرت في طريقي في أزقة الحي العربي ، لأجد مدرسة ليلية للموسيقى ، كانت تصدح الموسيقى إلى خارج المدرسة وتجرأت ودخلت لأجد فرقة موسيقية من الجنسين ، تعزف ألحاناً أندلسية شجية ، وتذكرت أبا الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب ، الذي كان لقرطبة الفضل في شهرته ، فقد تعلم فن الغناء على يد إبراهيم الموصلي في بغداد ، ثم تعلم على يد إسحاق من بعده ، ولكنه نبغ نبوغاً أغاض إسحاق ، وكاد يحتل مكانه لدى هارون الرشيد ، ويبدو أن إسحاق قد خير زرياب إما بالرحيل أو مواجهة الاغتيال ، فآثر زرياب الهرب إلى الشمال الأفريقي ، ولم يطب له العيش ، فعبر البحر إلى الأندلس ، واستقبله أميرها في ذلك الوقت عبد الرحمن بن الحكم ، الذي أكرمه وأغدق عليه ، وأصبح بعد ذلك جليس وأنيس عبد الرحمن في ملذاته ، ومما يروى أن زرياب كان يعد الجواري الجميلات لعبد الرحمن ، يجالسنه ويغنين له ويسقينه الشراب ، كان منهن جارية اسمها متعة أعجب بها الأمير ، وأبدى رغبته بها ، وكان يتجنب أن يعرف هذه العلاقة جليسه زرياب وولي أمرها ، فأنشدت الجارية :

يـــا من يغطي هــواه — من ذا يغطي النهـــارا
قـــد كنت أملـــك قلبي — حتى علقت فطـــــارا
يـــــا ويلتـــــا أتراه — لي كان أو مستعـــــارا
يـــــا بــــــأبي قرشي — خلعت فيـــه العـــذارا

واكتشف زرياب هذه العلاقة ووهبها له ، ويقال أن زريـاب كان يحفـظ عشرة آلاف مقطوعـة من الأغاني وألحانها ، وقد كان أديباً وعالماً في الفلك ، خلف مدرسة موسيقية وتلاميذ في هـذا المجـال ، وكان له الدور الأول ، في غناء الموشحات الأندلسية ، وهنا تذكرت بعض مقاطع من هذه الموشحات ، تذكرت موشح ابن زهر :

سلم الأمر للقضـــــــاء — فهـــو للنفس أنفـــع
واغتنم حين أقبـــــــلا — وجـــه بـــدر تهـلـلا
لاتقـــل بـــــالهمـــوم لا — كل مـــافـــات وانقضى
ليس بالحزن يرجع

أو قوله :

مــا للمــولـــه — من سكره لا يفيـــق — يـــا لـــه سكران
من غير خمر — مــاللكئيب المشوق — يـنـدب الأوطـــان
هــل تستعــاد — أيـــامنـــا بـــالخليج — وليـــــاليـنــــــا

أو موشح ابن الخطيب :

جـــــــــادك الغيث إذا الغيث همى — يــا زمــان الــوصــل بـــالأنـــدلس
لم يكن وصلـــــــك إلا حلمــــــاً — في الكرى أو خلســـــــــة المختلس

وجدت نفسي المتفرج الوحيد في المدرسـة ، رغم أنني لم أثر انتبـاه أحـد من العـازفين الموسيقيين ، فقد كان كل واحد منهم يدغدغ أوتار آلته ، أو يفتش صفحات نوتته .

لقد كانت المدرسـة في بيت عربي ، من يـدريـك لربمـا بيت زريـاب نفسـه ، أو لربمـا مـدرسـة زرياب ، ولكي لاأكون متطفلاً انسحبت إلى حديقة صغيرة في أحـد أطراف الحي ، شـاهـدت مجموعـة من الشباب والشابات الإسبان يجلسون على مقاعد مرمريـة قـد رصت حول نصب تـذكاري ، اقتربت من النصب ، فإذا بي ألمح كتابة عربية ، ورغم أن الأنوار كانت خافتة فقد حاولت قراءة تلك الكتابـة

بل واستخدمت يدي على طريقة برايل لأعرف الحروف التي لم أتبينها ، وإذا بها على النحو التالي :

أغــــار عليـــــك من عيني ومني ومنــــك ومن زمــــانـــــك والمكان
ولــو أني خبـــأتــــك في عيـــوني إلى يــوم القيــامــة مــــا كفـــاني
(ولادة)

وتحت الأبيات نفسها :

يـا من غـدوت بـه في النــاس مشتهراً قلبي يقـــاسي عليـــك الهم والفكرا
إن غبت لم ألــق إنســانــاً يـؤانسني وإن حضرت فكل النــاس قــد حضرا
(ابن زيدون)

وخلف النصب كتب : من مدينة قرطبة والجامعة الإسلامية إلى الشاعرين ولادة وابن زيـدون بمناسبة انقضاء المئة التاسعة لوفاة ابن زيدون ١٠٧٠ م - ١٩٧٠ م .

وفي قمة النصب شاهدت كفين متشابكين يرمزان إلى مـا كان بين العـاشقين من حب وود ، والنصب التذكاري لاشك يعبر عن القصة الغرامية لابن زيـدون وولادة بنت المستكفي ، ولربمـا أن



(٤٤) كَفَّيْ ولادة وابن زيدون مشتبكين

الحكومة الإسبانية قد عملت النصب في المكان الذي كان يختلي ابن زيدون بمعشوقته ولادة ، وأصبح ذلك الموقع ملتقى العشاق ، كما شاهدت ، ولربما أن ابن زيدون كان يكمن لمعشوقته ولادة في هذا المكان ، مترقباً مجيئها إذ كانت تقول له :

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر
ولي منك مالو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

أما ابن زيدون فيصف نتائج وثمار لقائه مع محبوبته في الليل على النحو التالي :

« فلما طوى النهار كافوره ، ونشر الليل عنبره ، أقبلَت بقد كالقضيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، وفي ورد الخجل . فملنا إلى روض مدبج وظل سجج ، وقد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره . ورد الطل المنثور ، وجيب الراح مسرور ، فلما شببنا نارها ، وأدركت فينا ثارها ، باح كل منا بحبه ، وشكا أليم مابقلبه ، وبتنا بليله نجني أقحوان الثغور ، فلما انفصلت عنها صباحاً أنشدتها ارتياحاً :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنى حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطل بعدك ليلي فلكم بت أشكو قِصَرَ الليل معك

نعم لقد كان ابن زيدون ومعشوقته ولادة ، ينتظرون الليل خجلاً ، حتى يجنوا أقحوان الثغور وتعطيه ولادة صحن خدها :

أمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

أما أحفاد أحفاد ولادة وابن زيدون فإنهم على المقاعد حول النصب التذكاري ، لا ينتظرون ليلاً ، ولا يخافون من نهار ، يلعبون ويمرحون متمتعين بجو قرطبة الدافئ ، ونسيمها العليل ، والحرية المطلقة .

مضيت في طريقي ، والمنطقة التي تحيط بالجامع تخلع على السائر فيها ، وخاصة في الليل جو الرهبة ، فلقد كانت هذه المنطقة قلب عاصمة الخلافة ، فعلى مسافة ليست بعيدة ، تقع قصور الخلافة العربية ، وفي هذه الساحات والمناطق كانت تتجمع الجيوش العربية ، وهي في طريقها لنشر كلمة

(لاإلـه إلا الله) ، وفي هـذا الموقع لاتسمع في مثل هـذه السـاعـة من الليل إلا قعقعـة السـلاح وصهيل الخيل .

وفي هذه السـاحات كان الخلفاء يقيمون مراسم الاستقبال لزوار قرطبة ، ومنهـا ذلـك الحفل الـذي أقامه الخليفة عبد الرحمن الناصر في بهو القصر ، للوفد العالي المستوى الذي جاء من ملـك الروم ، ومرّ الوفد الزائر من هذه الساحات ، وهي غاصة بالناس من أبنـاء قرطبـة والجنود المـدججين بـأسلحتهم ، والمتطين صهوات جيادهم ، ووجهاء قرطبة وعلمائها جاؤوا ليشاهدوا هذا الحـدث ، ويروي التـاريخ أن الوفد الزائر قد أدهشه ماشاهد ، وقدم رسالته للخليفة ، وكانت معنونة كالتالي :

« إلى عظيم الاستحقـــاق للفخر الشريف النسب عبـــد الرحمن الخليفـــة ، الحـــاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله بقاءه » .

وقام الخطباء ليجدوا هذه المناسبة ، قام الفقيـه محمـد بن عبـد البر الكسنيـاني ، ولكن بهره هول المقام وأبهة الخلافة ، ولم يهتد إلى لفظه ، وغشي عليـه وسقـط إلى الأرض ، وكلف الأديب اللغوي أمير الكلام القالي : « قم فـارقع هـذا الوهي » ، فقـام وحمـد الله وأثنى عليـه ، وصلى على رسولـه ، ثم وقف سـاكتـاً ولم يستطع كلامـاً ، وكاد يسقـط هـو الآخر من عظمـة المـوقف ، وقـام بعـده قـاضي قرطبـة منذر بن سعيد البلوطي ، وأنقذ الموقف بخطبة رنانة ، أدهشت الحاضرين ، وأعجبت الخليفـة النـاصر لدين الله أيما إعجاب ، رغم مهاجمته لعبد الرحمن الناصر بشكل خفي ، وقد سأل الناصر ابنـه الحكم عن هذا الخطيب فعرفه به ، وقال الناصر : « لقد أحسن ماشاء ، فلئن كان حبر خطبتـه هـذه وأعـدهـا ، مخافة أن يدور مادار فيتلافى الوهي إنه لبديع في قدرتـه واحتيـاطـه . ولئن كان أتى بهـا على البـديهـة لوقته ، إنه لأعجب وأغرب »[1] وسنورد حكايات أخرى للبلوطي مع عبد الرحمن الناصر .

كنت وأنا أسير في هذه السـاحات ، أتخيل هـذه الأحـداث والمواقف ، وإذا بي على أبواب القصر ، ويسمى الآن قصر الملوك المسيحيين ، وعند إحدى البوابـات وهي بوابـة إشبيليـة الآن ، وكانت تسمى قديماً باب العطارين ، ينتصب تمثال بلباس العلماء ، ويحمل بيده اليسرى كتاباً ، وعلى رأسـه عـمامـة وبلحية متوسطة ، وهو تمثال لابن حزم القرطبي ، مكتوب عليـه بـاللغـة العربيـة ، وبـالخـط الكوفي الجميل : « بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفـاة أبي محمـد علي بن حزم القرطبي تقـدم مـدينـة قرطبـة أعظم آيات التقدير لمن تعتبره علماً من أعلام ثقافتها .

---

(١) انظر : تاريخ قضاة الأندلس ، للشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي ، ص ٦٦ .

ويقال : أن هذا المكان قد اختير لأن ابن حزم كان يمر منه عند ذهابه إلى جامع قرطبة غير البعيد لإلقاء محاضراته في علم الكلام والعقائد والفلسفة ، ووقفت متأملاً هناك لبعض الوقت ، متطلعاً إلى أسوار القصر الذي شهد أحداثاً جساماً ، ومنها سجن آخر ملوك غرناطة أبي عبد الله الصغير ، كما شهد هذا القصر استقبال (كرستوفر كولمبس) قبل بدء رحلته إلى العالم الجديد ، ويقال : أن الملكة (إيزابيل) الكاثوليكية قد استقبلت (كرستوفر كولمبس) مرتين ، كما أنه قد شهد محاكم التفتيش التي عقدت فيه ، وبجوار أحد الأسوار وجدنا تمثالاً لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، وهو أيضاً من أعلام قرطبة ومن مواليدها ، وقد تولى القضاء في مواقع كثيرة في الأندلس ، كان فيلسوفاً وطبيباً ، وبسبب أفكاره اضطهد ونفي إلى مراكش ، ثم عفي عنه وله عدة مؤلفات ، وقد شرح بعض الكتب لأرسطو .

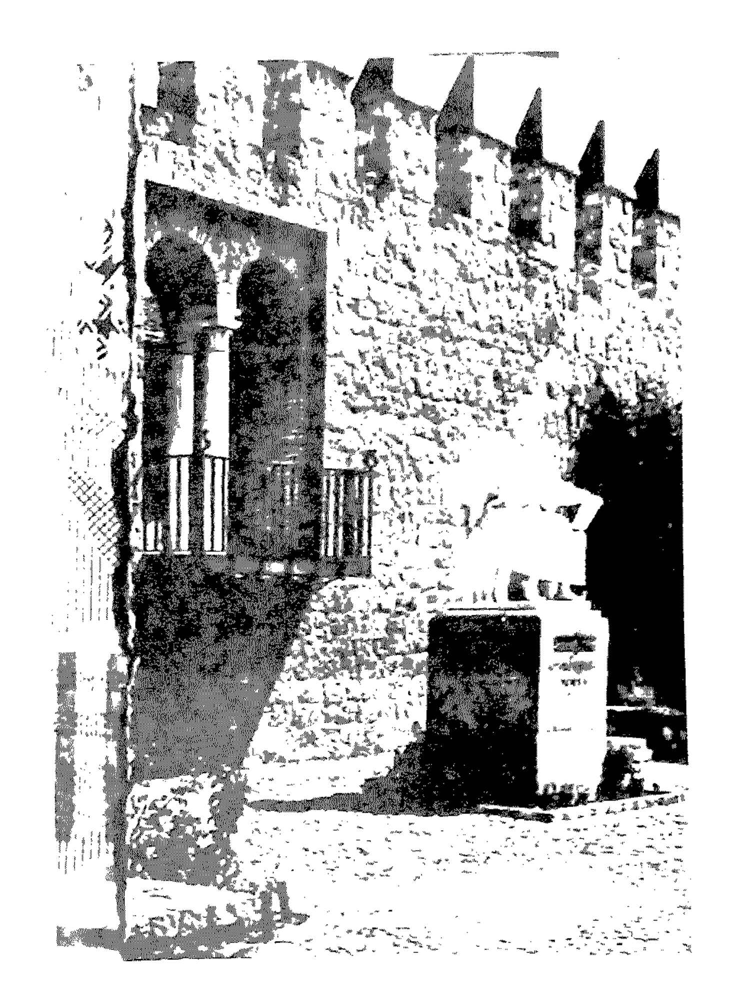


(٤٥) ابن حزم يحمل كتبه بيده ويرقب من هنا ما يجري في مسقط رأسه

لقد كانت الساعة العاشرة مساء عندما قادتني قدماي خلال حدائق ومناظر جميلة إلى ساحة شعبية ، أمام نافورة جميلة بجوار فندق ميليا قرطبة ، لأستريح في قهوة تقدم المرطبات ، أتأمل وجوه القرطبيين وملامحهم ، أستمع إلى نبرات أصواتهم وتصرفاتهم ، كان نسيم قرطبة يفوح عليلاً ، ورذاذ ماء تحمله نسمات الرياح من النافورة ، والوجوه مشرقة ، والناس ذاهبة آيبة ، وصرت أردد مع أبي إسحاق ابن خفاجة شاعر الأندلس الأبيات :

يــا أهـل أنــدلس لله دركم — مــاء وظـل وأنهـار وأشجــار
مــاجنـة الخلـد إلا في ديــاركم — ولــو تخيرت هــذا كنت أختــار
لاتحسبوا في غـد أن تـدخلوا سقراً — فليس تـدخـل بعـد الجنـة النــار

اليوم الثالث في قرطبة :


(٤٦) ابن رشد يتأمل بجوار أحد الأسوار

عــودة مرة أخرى إلى الأثر الخالد ، إلى جامع قرطبة وما حولـه من مرابض ، ولكن قبـل ذهـابي إلى الجـامـع (مسكيتـا) كان عليّ أن أتوجه إلى محطـة القطـارات ، لقـد عقدت العزم أن أتوجـه إلى إشبيليـة في نفس اليوم ، ولكن بعـد الظهر ، وبعد أن تأكـدت من الحجز وموعـد القطـار ، توجهت إلى المسجـد حتى أبقى فيـه فترة أطول متـأملاً ، لقـد وصف كثير من الزوار مشاعرهم وهم في رحــاب المسجــد ســواء شعراً أو نثراً .

ولكنني وجــدت مــاقــالــه الدكتور عبد العزيز الدولاتلي ، في كتابه مسجد قرطبـة وقصر الحمراء ، أعمـق تعبير للشعور الـذي ينتــاب الزائر ، قال : « ولا نكاد نعبر بـاب النخيـل حتى يغمرنــا نــور خفيف لطيف ، تتفكــك في رحــابــه الأجسام ، وتتلاشى الأشكال والقوالب فتخالها سراباً ، وتبدو الأعمدة بأقواسها المعلقة والمتشابكة كغابة النخيل الكثيفة ، فنشعر كأننا في واحـة مظللـة ، ولكن سرعـان مـا تتعود أبصـارنـا بـذلـك الظليل ، فتتجلى الصورة وتتضح الألوان ، وتمتد المسافات ، وتأخذ الأشكال قوالبها الحقيقية ، وإذا بنا في قاعة متباعدة الأطراف فسيحة الأرجاء ، تصطف في رحابها الأعمدة المرمرية المتعددة الألوان ، متجهـة نحو حائط القبلة ، حيث المحراب الذي بنـاه الخليفـة المستنصر ، ونبحث عن المصلين فلا نجـد لهم أثراً ، إذ

خريطة جامع قرطبة

بوابة الرحمة وفوقها المئذنة التي بناها عبد الرحمن بن محمد

الشمال

فناء المسجد

(صحن البرتقال)

صحن عبد الرحمن الداخل

(أكمله ابنه)

الغرب

توسعة عبد الرحمن الثاني

أكمله ابنه محمد بن عبد الرحمن

الكنيسة

صحن المنصور (المنصور بن أبي عامر)

الشرق

١٨٠م

توسعة الحكم الثاني

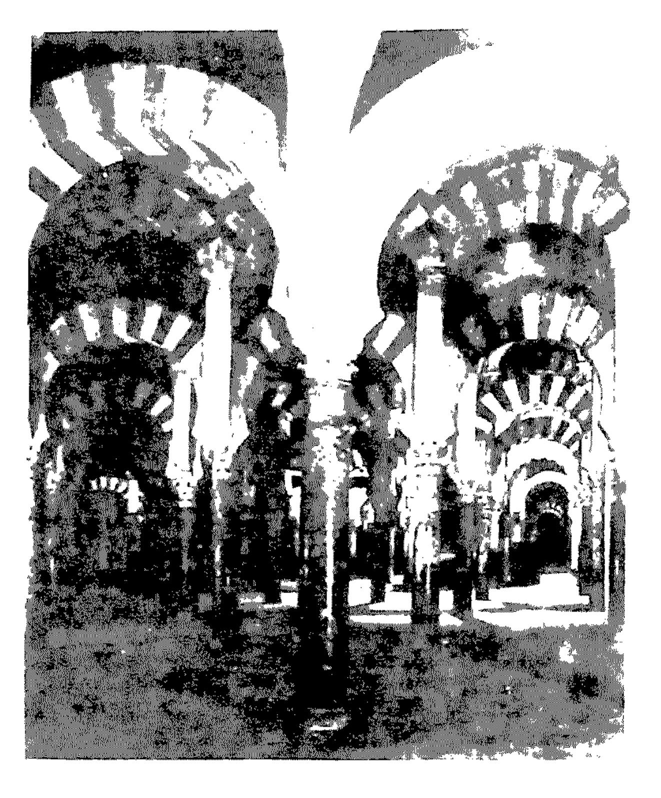
المحراب

الجنوب

١٣٥م

هي بيت صلاة بلا مصلين ، ومحراب بلا إمام ، وقبلة بلا كعبة ، وجامع بلا جماعة .

هذا ما صنعه التاريخ وما ترفضه مخيلتنا ، التي تومض لنا بلا انقطاع صوراً تلتقطها من أعماق الماضي البعيد ، فيرتفع صوت المؤذن ويصطف المصلون ، ويتسرب فينا شعور عميق كله خشوع وإجلال وابتهال إلى الله »[١] .



(٤٧) غابة من الأعمدة في المسجد

هذا فعلاً ما يشعر به المرء وهو في داخل الجامع ، أما أحمد بن مهدي الغزال في كتابه (نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد) فيقول عن الجامع :

« ومنذ عبرنا هذا المسجد لم تفتر لنا عبرة مما شاهدناه من عظمته ، وتذكرنا ما كان عليه على عهد الإسلام ، وما قرئ فيه من العلوم ، وتليت فيه من آيات ، وأقيمت فيه من الصلوات ، وما عبد الله به ، وقد تخيل في الفكر أن حيطان المسجد ، وسواريه تسلم علينا ، وتهش إلينا من شدة ماوجدناه من الأسف ، وحتى صرنا نخاطب الجماد ، ونعانق كل سارية ، ونقبل سور المسجد وجدرانه »[٢]، ويصف مشاعره حين رأى لوحتين مكتوب على كل واحدة منهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكانتا ملقيتين على الأرض ، فلما أشرفت على اللوحتين المذكورتين ، بادرتني العبرة وسقطت على اللوحتين ، أمرغ عليهما شيبتي ، وأزيل عنهما الغبار بلحيتي ، ولم أستطع رفع رأسي عنهما من القشعريرة التي أدركتني عند مشاهدتي لذلك »[٣] .

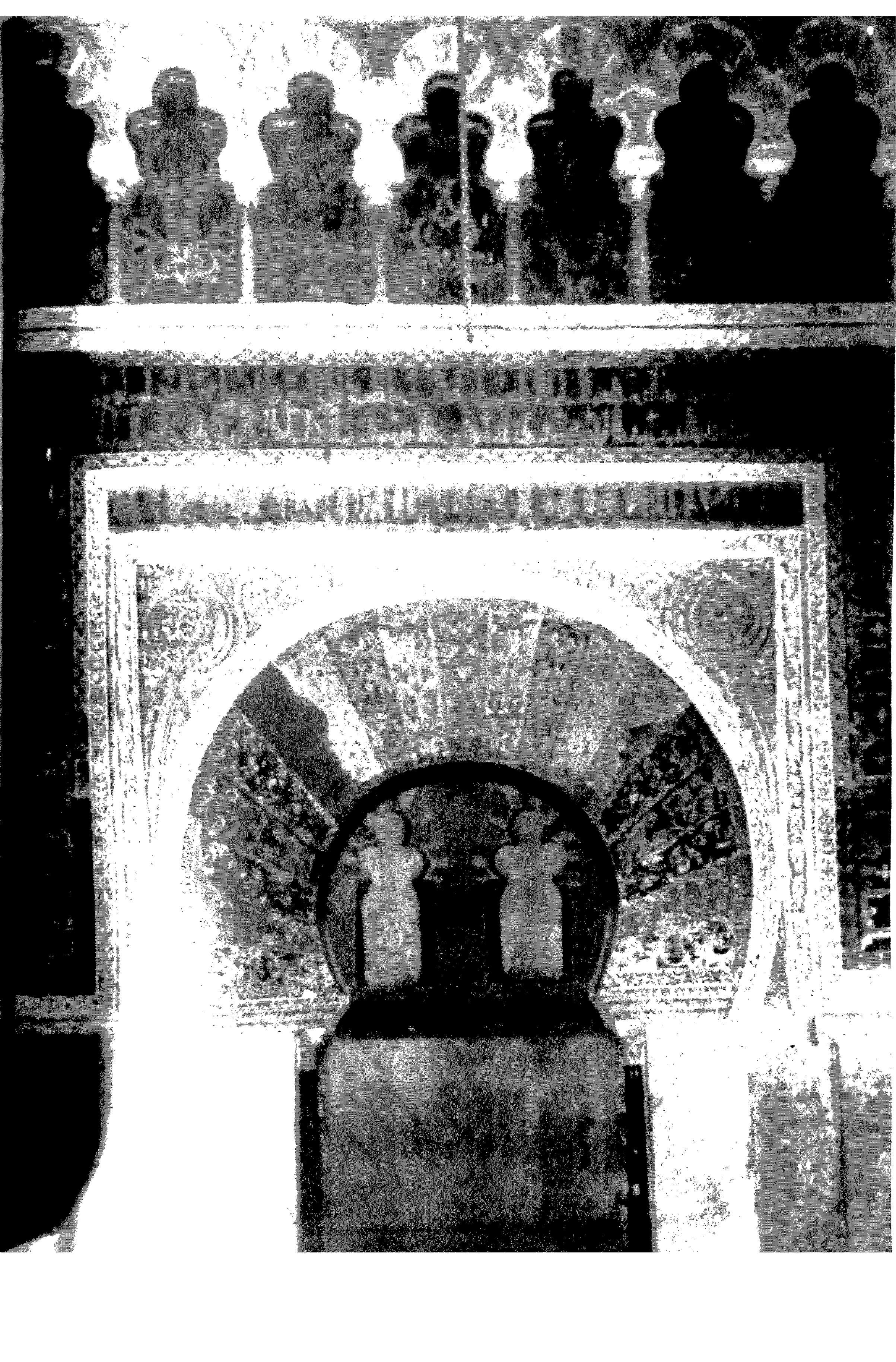
---

(١) انظر الدكتور عبد العزيز الدولاتلي ص ٥٤ .

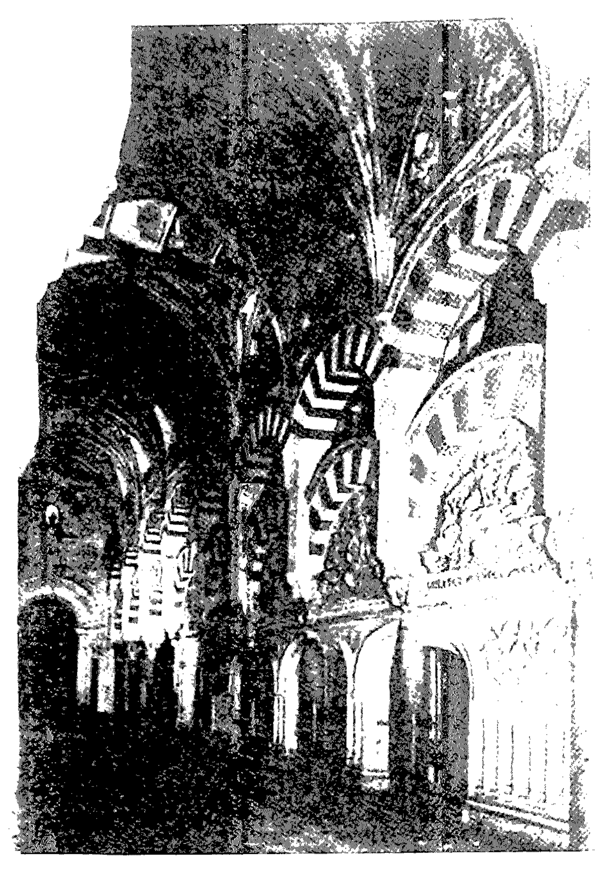
(٢) الغزال ص ٩٦ ـ ٩٧ .

(٣) الغزال ص ١٠١ ـ ١٠٢ .





وبينما كنت في السوق المحيط بالجامع (Zoco) ، دخلت مكتب الاستعلامات فوجدت شخصاً ملامحه عربية تماماً ، ولاحظت أنه يتكلم اللغة الأنجليزية ، ودخلت عليه مجموعة من السياح الفرنسيين ، وكان يرشدهم باللغة الفرنسية ثم إيطاليون وألمان ، وجدته أيضاً يتكلم هذه اللغات ، وسألته باللغة الأنجليزية ماإذا كانت لديه نشرات أيضاً باللغة العربية ؟ وأجابني بالإيجاب ، وبدأ يتكلم معي اللغة العربية ذات اللهجة المغربية ، وعرفت أن اسمه خيم سيلان(١) ، هذا حسب الكرت الذي أعطاني إياه ، أما هو فقد عرفني باسمه حميد سيلان ، وأنه أسباني مسلم متعصب لإسلامه ، قال لي أنه درس في تونس ومتزوج بمغربية ، وأنه حفظ القرآن الكريم وهو صغير ، ويحفظ ألفية ابن مالك ومتن الأجرومية ، وأطلعني على أحد أعداد مجلة العربي والتي نشرت تحقيقاً صحفياً عن الأندلس ، وكانت صورة ابنته تزين غلاف المجلة الخارجي ، ومن غرائب الصدف أنه كان قد طلب مكالمة مع الرياض في المملكة العربية السعودية وكان حديثه ـ نقلته وهو يتكلم باللغة العربية ـ على النحو التالي :



(٤٨) هكذا شوهت معالم المسجد

هالو ، الرياض هذه قرطبة تتكلم معكم .

هل بالإمكان أن أتكلم مع الشيخ علي الكتان ، ـ كما يبدو أنه لم يجده ـ .

---

(١) عنوانه كالتالي :

Jaim Sellan

Oficina Municipal De Turismo

Telf. 290740

Taller : Bazar oriente

Marroquineria, Zoco, 3 (CORDOBA)

إذاً أخبروا الشيخ علي ، هل تسمعونني إنني حميد سيلان
أخبروا الشيخ علي عندما يصل ، أن عمدة قرطبة قد سلم لي مفتاح مسجد أبي عثمان .
نعم أبو عثمان الذي بناه عبد الرحمن الثالث .. بناه للقاضي أبي عثمان .
أخبروا الشيخ علياً أن الدوائر الرسمية هنا تطلب حضوره ، أخبروا الشيخ علياً أن حميد سيلان اتصل من قرطبة .
والجامع في حاجة إلى بعض الترميمات ، ولا زالت منارة المسجد سليمة ، أخبروه أن يتصل ، فتلفوني لديه .
انتهت المكالمة .

وعلمت بعد ذلك من الأخ الإسباني المسلم ، أنه يتصل بمستشار الأمانة العامة للمؤتمر الإسلامي لشؤون الأقليات الإسلامية ، وأنه يبحث عن مقر ليكون صالحاً لتكوين جمعية إسلامية هناك .

ثم بدأ يحكي لي وعلامات الحزن بادية عليه قصصاً وحكايات ، قال وهو ينظر نحو المسجد ، لقد حاول الملك فيصل بن عبد العزيز شراء هذا الجامع بمبالغ كبيرة لإعادة تحويله إلى جامع كا كان ، ولكن الحكومة الإسبانية أبت ، وقال : إن الجامع الذي يتصل بشأنه لربما يستخدم كمقر لجمعية قرطبة الإسلامية .

حدثني عن حالة المسلمين ، وخاصة الطلبة العرب الذين يأتون للدراسة هناك ، حدثني عن قرطبة الإسلامية ومشاعر أهلها ، حدثني عن السياسة والخلافات العربية وآثارها عندهم ، حدثني عن أنه بعض الأحيان يصعد إلى المأذنة المثقلة بالنواقيس لكي يؤذن ، قال : إنه صراع الأذان مع أصوات النواقيس ، قلت في نفسي مادمت تؤذن هناك ، فحنش الصنعاني على حق حين قال : أن الأذان لن ينقطع من هذه البقعة إلى أن تقوم الساعة .

لقد قدم لي دفتراً كبيراً سجل فيه الكثير من الزوار العرب أسماءهم وعناوينهم ، ومنهم كثير من المؤرخين والأساتذة ، ولقد كتبت له اسمي وعنواني .

لقد حاول أن يقدم لي هدية وجدتها ثقيلة ، وهي عبارة عن أحجار قديمة واعتذرت له عن حملها ، وقدم لي في النهاية عملة نحاسية أثرية لازلت أحتفظ بها .

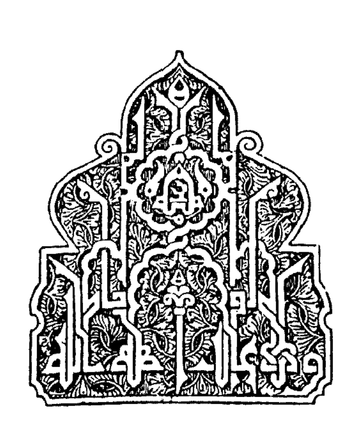
لقد مرّ عليه أثناء وجودي أصدقاء له من الإسبان ، وقد كلمني باللغة العربية أن أصولهم عربية ، وكانوا يهزون رؤوسهم تأميناً لما يقول .

لقد أتحفني بقصيدة قال : أنها لحمدة بنت زياد المؤدب من وادي آش ، حين قرأت له شعر ولادة بنت المستكفي المكتوب على النصب ، وقد أنشدت هذه الأبيات في وصف واد كانت تلتقي مع خليلها فيه :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحة فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً ألذّ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنّا واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

لقد ودعت صاحبي ، ومضيت في طريقي إلى المسجد لأودعه الوداع الأخير ، قبل سفري لإشبيلية :

أستودع الله أهل قرطبة حيث عهدت الحياة والكرما
والجامع الأعظم العتيق ولا زال مدى الدهر آمناً حرماً[1]



(١) الأبيات للإمام أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطبة .

الفصل الخامس

مدينة الزهراء

« التاريخ والحطام »

كما يبدو أن قرطبة العاصمة قد ضاقت بسكانها ، وكان على الخليفة عبد الرحمن الناصر بناء مدينة تليق بعظمة الملك وأبهته ، فابتنى مدينة الزهراء ، وقيل أن الخليفة عبد الرحمن الناصر قد بناها بناء على رغبة حبيبته الزهراء ، وقيل أن المال الذي بنيت به مدينة الزهراء كان قد خصص لفك الأسرى المسلمين في بلاد النصارى ، ولما لم يجد أسيراً واحداً طلبت الزهراء جارية الناصر أن يبتنى لها مدينة تسمى باسمها ، فقام الناصر ببناء هذه المدينة التي كانت من عجائب الدنيا ، والتي لم يبن مثلها قط ، وقيل : إنها كانت هدفاً لزوار الأندلس ، ليروها ويتحدثوا عنها ، وقيل أن عبد الرحمن قد اختار القاضي منذر بن سعيد البلوطي لكي يكون خطيباً لجامع الزهراء ، وفي بداية أول جمعة في المسجد ، وقف الخطيب فكان أول بداية له قوله تعالى :

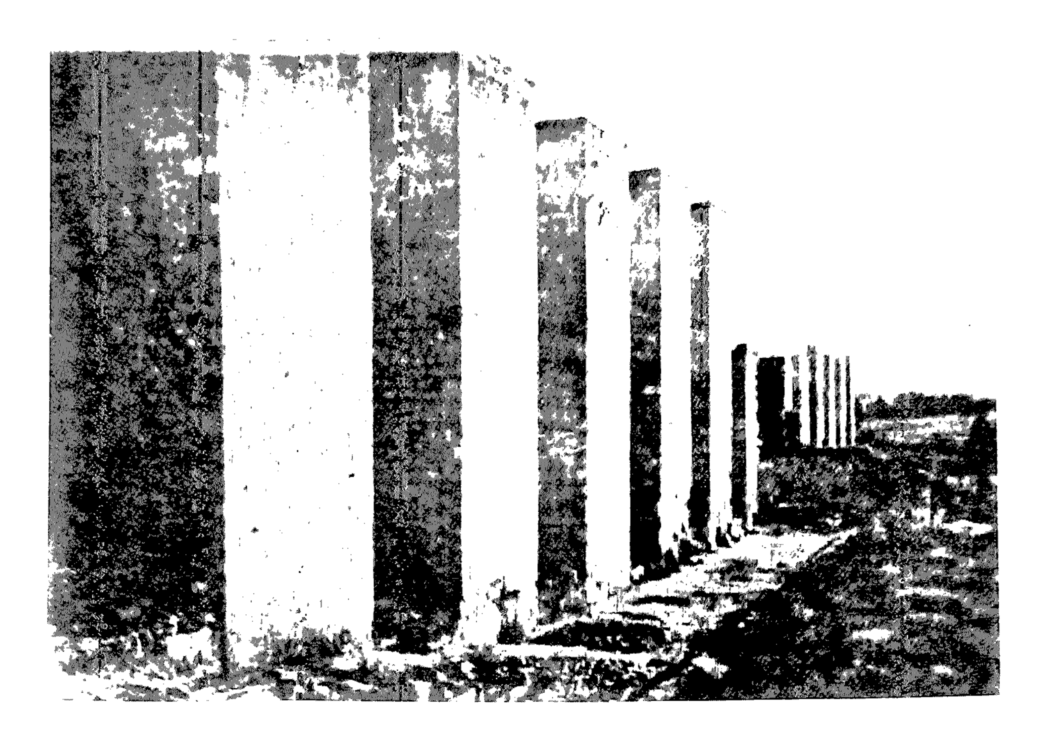
﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعبثُون ، وتَتَّخِذُونَ مَصانِع لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُون ، وإذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارين ، فَاتَّقُوا الله وأطيعُون ، واتَّقُوا الَّذي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعلَمُونَ ، أَمَدَّكُمْ بأنعامٍ وَبَنِينَ ، وجنَّاتٍ وعُيُونٍ ، إني أخافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظيمٍ ﴾[1] .

ثم وجه كلامه لعبد الرحمن الناصر ، وقال له : والله ياأمير المؤمنين ، ماظننت أن الشيطان أخزاه الله يتمكن منك هذا التمكن ؛ حتى أنزلك منازل الكافرين ، فجعلت قراميد بيتك من الذهب والفضة ، وقيل أن المصلين قد نسوا أنفسهم ونسوا المناسبة ، ونسوا أن بينهم الخليفة من شدة تأثرهم بخطبة البلوطي ، وبدؤوا يبكون حتى ارتج المسجد من البكاء ، ويخرج الخليفة بعد انتهاء الجمعة ، ويقول لابنه : أرأيت جرأته علينا ؟ ويقسم الناصر ألا يصلي جمعة مع البلوطي مازال إماماً ، ولكن ابنه الحكم قال له : إن المنذر بن سعيد ماتكلم إلا بالقرآن ، ونصحه إذا كان ولا بد فيمكنه عزل البلوطي من منصب الإمامة ، وقيل أن الخليفة قد نهر ابنه حين عرض عليه عزل منذر بن سعيد البلوطي ، وقيل أنه قد نقض الذهب والفضة من الزهراء بعد هذه الخطبة[2] ، ولكن كيف كانت هذه

---

(١) الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣٥ .

(٢) انظر تاريخ قضاة الأندلس للاطلاع على تفاصيل أكثر عن سيرة منذر بن سعيد البلوطي ص ٦٦ ـ ٧٤ ، وكذلك نفح الطيب ١/٥٧٠ ـ ٥٧٧ .



(٤٩) هذه الناحية الجنوبية من جامع الزهراء الذي خطب فيه منذر بن سعيد البلوطي

المدينة التي كانت محور الخطبة ، قيل أنها اشتملت على أربعة آلاف سارية مابين كبيرة وصغيرة ، جلبت كثير منها من الشمال الأفريقي ، ويقال أن قصر الخليفة كان يحتوي على حوضين ، الأول من البرونز المطعم بالذهب وهو هدية من قيصر القسطنطينية ، والثاني من المرمر الأخضر جلب من الشام وضع عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر .

أما قاعة الاستقبال فقد كانت من عجائب الدنيا ، تحتوى على بركة من الزئبق تبهر الأنظار وتخلب الألباب ، ومما يروى أن مدينة الزهراء كان بها ثلاث عشر ألف خادم ، وأكثر من ستة آلاف خادمة وجارية . وقد سقطت بأيدي البربر بعد أربعة وسبعين عاماً من أول أساس وضع بها ، وأتت عليها النيران وتركتها ركاماً . وقد قال الشاعر السميسر يصف حال المدينة بعد دمارها :

وقفت بالزهراء مستعبراً ... معتبراً أندب أشتاتاً
فقلت يا زهرا ألا فارجعي ... قالت وهل يرجع من ماتا
فلم أزل أبكي وأبكي بها ... هيهات يغني الدمع هيهات
كأنما آثار من قد مضى ... نوادب يندبن أمواتا



(٥٠) وقفت بـــالـــزهراء مستعبراً معتبراً أنـــدب أشتـــاتـــاً

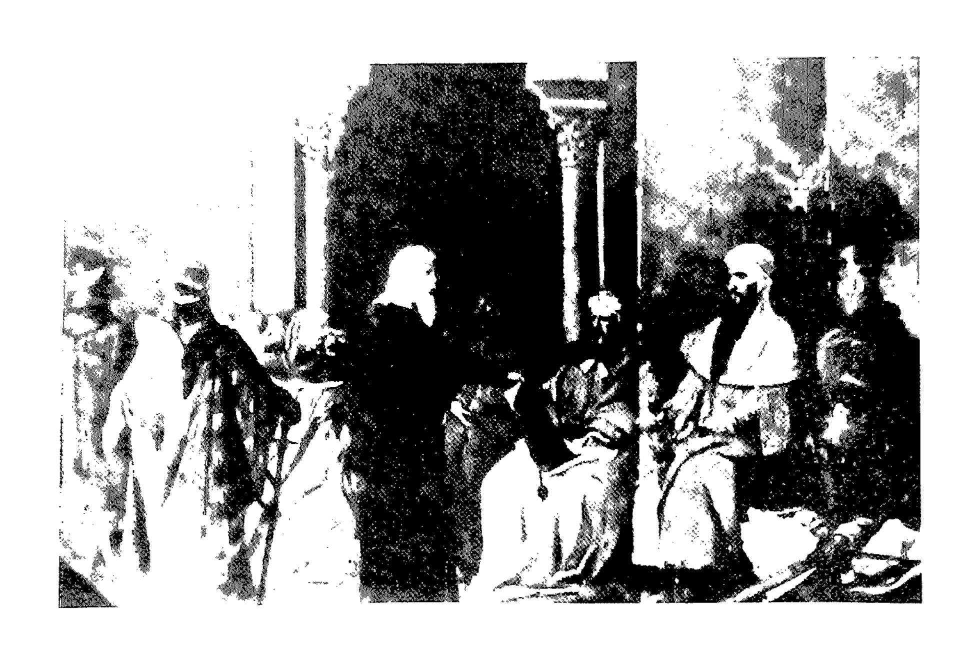
أما محي الدين بن عربي فقد قال عن الزهراء بعد تدميرها :

ديـــار بـــأكنـــاف المـلاعب تلمع وما أن بهـا من ســاكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جـانب فيصمت أحيـانـاً وحينـاً يرجع
فخـــاطبت منهـا طـائراً متفرداً لـــه شجن في القلب وهـــو مروع
فقلت : على مـاذا تنـوح وتشتكي فقـال : على در مضى ليس يرجع

تلك حال مدينة الزهراء في أوج مجدها وعظمتها ، أيام الخليفة عبـد الرحمن النـاصر ، وأصبحت بعد حين خراباً يبـاباً ، ولكن هل كان النـاصر سعيـداً بهـذه العظمـة والملـك ؟ يـذكر المقري في نفح الطيب الجزء الأول[1] ، أنه وجد بخط الناصر أيام السرور التي صفت له دون تكدير ، فوجد أنها أربعة عشر يوماً ، رغم أنه قد مكث في الخلافة خمسين سنة ونصف سنة .

وتقوم الحكومة الإسبانية الآن بعملية ترميم ، وقـد ترجم الـدكتور الطـاهر أحمـد مكي في كتـاب (الفن العربي في إسبانيا وصقلية)[2] تقريراً أعده عـالم قرطبـة السنيور (رفـائيل كستيخون) ، وقـد

(١) انظر ص ٣٧٩ .
(٢) انظر ملحق رقم ٣ حفائر مدينة الزهراء ص ٢١٥ ـ ٢٢٥ .



(٥١) عبد الرحمن الناصر يستقبل السفير الألماني

قدم هذا التقرير لمؤتمر الدراسات العربية والإسلامية الذي عقد في إيطاليا في سبتمبر ١٩٦٦ م .

وملخص التقرير أن الحفر للكشف عن آثار الزهراء قد بدأ في سنة ١٨٥٤ م ثم توقف ، ثم استؤنف في عام ١٩١٠ م ، وقد نشرت النتائج الأولى لهذه الحفريات في سنة ١٩٢٤ م ، وقد كشفت هذه النتائج الأجزاء الهامة من مدينة الزهراء ، كقصر الخلافة في الجانب الأعلى من المبنى ، والمجلس الغربي وأبنية أخرى أقل أهمية ، ثم توالت الحفريات منذ عام ١٩٢٤ م ، وكان من نتائجها : اتضاح المخطط العام للمدينة ، وتوزيع مبانيها وأسوارها ، ومواقع القاعات والقصور الرئيسية ومسجد المدينة ، وقد بدء منذ عام ١٩٣٠ م بعمليات ترميم على مهل ، وتحقق ترميم أسس المدينة ، وبعد توقف الحفريات بسبب الحرب الأهلية استؤنفت الحفريات في عام ١٩٤٤ م ، واكتشفت قاعة من سبع بلاطات مزخرفة في ثراء بالغ ، وسميت قاعة عبد الرحمن الناصر .

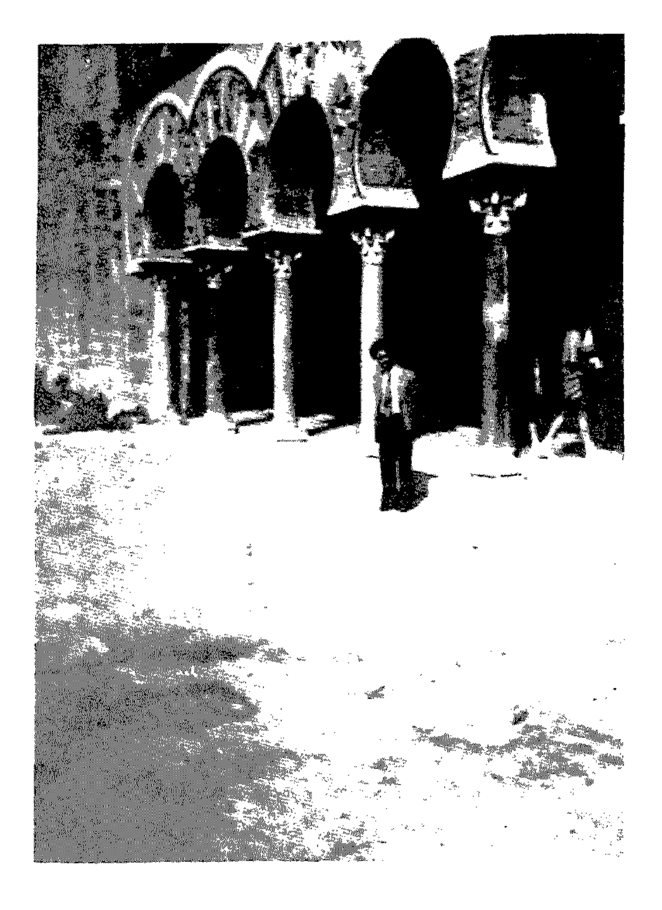
وخلال ١٩٤٤ م - ١٩٦٣ م تم ترميمها مع ملحقاتها وهو حمام بالغ الروعة والفخامة ومصلى صغير ، وعدد من الغرف والساحات ، وفي عام ١٩٦٤ م تم الحصول على بقية أجزاء مدينة الزهراء ، وقد تم تنظيف مسجد الزهراء تماماً ونقوشه الأدبية .

أما في عام ١٩٦٥ م ، فقد تم اكتشاف دار الرخام ، وسميت هكذا لثراء الرخام الذي استخدم فيها ، وكذلك دار الجند الذي كان يستعرض عبد الرحمن الناصر جنده منها ، وقد بلغت الأعمال في عام ١٩٦٦ م نهايتها ، وتمثلت في الكشف عن هذه القطاعات ، وترميم الجدران الكبرى التي تحمل

الشرفـــات ، والاستمرار في ترميم زخارف القاعـة الملكيـة ، والمسجـد والممرات التي تربــط بين المنشـآت المختلفـة ، بخـاصـة وترميمها بــالـغ الصعوبة ، نظراً لحالة الهدم والدمار التي حلت بهـا ، ويقــوم أثريــون متخصصــون في الإشراف على الكشف والترميم .

هـذه خـلاصـة لتقرير مكـون من إحدى عشرة صفحة يمكن العودة إليه ، لراغبي التفاصيل في الكتـاب المشار إليه .

وكما يبدو ، فإن الدمـار الـذي حل بها لم يعد من السهل إصلاحـه ، أو كما قــال ابن حـزم القرطبي وهــو يصف حال قرطبـة بعـد وقوعهـا في يد البربر ، بعد أن سأل أحـد زواره



(٥٢) دار الملك قديماً ، وقاعة عبد الرحمن الناصر حديثاً



(٥٣) مدينة الزهراء وجبل العروس

الذي عاد منها بعد ستة أعوام من غياب ابن حزم ، قال : « إنه رأى دورنا وقد انمحت رسومها ، وطمست معالمها ، وخفيت معاهدها ، وغيرها البلى ، وصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافي بعد الأنس ، وخرائب مقطعة بعد الحسن ، وشعاباً مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، ومعازف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش بعد رجال كالليوث ، حتى يقول :

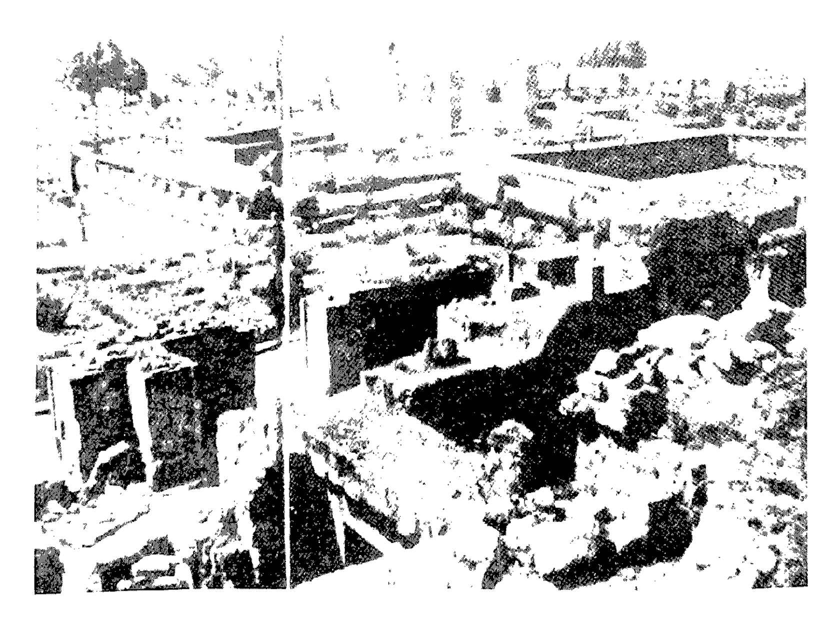
فأبكى عيني ، وأوجع قلبي ، وقرع صفاء كبدي ، وزاد في بلاءٍ لبي ، فقلت شعراً :

لئن كان أظمأنا فقد طالما سقى وإن ساءنا فيها فقد طالما سرا

أو قول ابن حزم بن جهور ، يخاطب دياراً هجرها أهلها :

قلت يوماً لدار قوم تفانوا أين سكانك العزاز علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلاً ثم ساروا ولست أعلم أينا

نعم لقد زرنا مدينة الزهراء ، وهي تقع أسفل جبل العروس ، غرب قرطبة على بعد حوالي عشرة كيلو مترات من قرطبة ، وهي عبارة عن كتلة سكنية كبرى مع مرافقها المختلفة طولها ١٥٠٠ متراً ، وعرضها ٧٥٠ متراً ، ومن ملامح الحفريات التي تمت حتى الآن والخرائط التي رسمت للزهراء ، فإنها تتدرج من أعلى إلى أسفل ، ففي الوسط ـ في قمة المدينة ـ يقع قصر الخليفة ، أي القصر الخاص للسكن ، وشرق قصر الخليفة يقع قصر صاحب الجند ، ثم قصر الحاجب ـ رئيس الوزراء ـ وجنوب

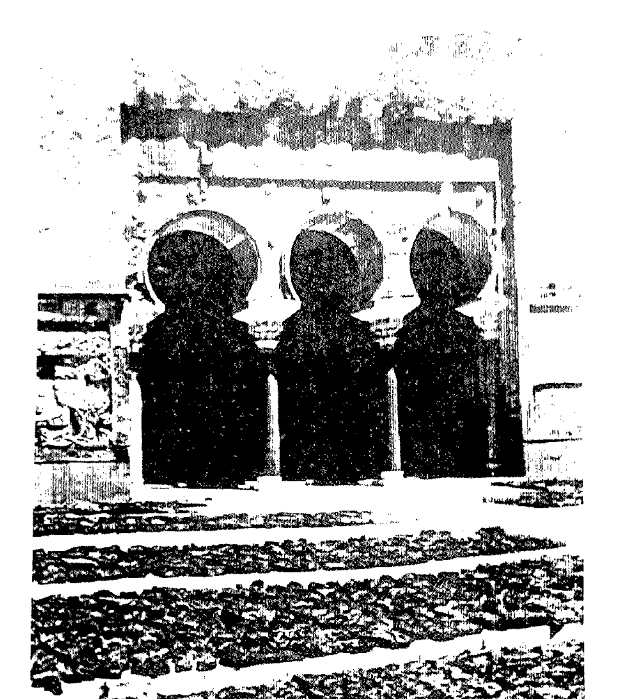


(٥٤) الزهراء وقد انمحت رسومها ، وطمست معالمها ، وخفيت معاهدها

مخطط تقريبي لمدينة الزهراء

القصر تقع مرافق الخدمات الإدارية والمالية .

ومن الناحية الغربية مجموعة ٤٠٠ مسكن للحاشية والوزراء والخدم ، ومن الناحية الشرقية مجموعة من القاعات الشرقية ، وتسمى المجلس المؤنس ، والغربية المجلس الغربي ، والوسطى وكانت تسمى قاعة العرش ، وفي الجوانب الشرقية والغربية من المدينة تقع الثكنات للحرس الخاص ، ويقال أنها كانت تحتوي على اثني عشر ألف حارس ، وفي وسط المدينة تقع دار الملك أو دار الجند الأوسط والمسجد والحدائق والأسواق ، وبصفة عامة يمكن تقسيم الزهراء إلى ثلاثة أقسام ، قسم يشمل المباني الرئيسية كالقاعات والمنازل ، وقسم مباني إدارية وثكنات ، والقسم الثالث الحدائق والبرك ، وكان هناك حديقة حيوان يقال أنها كانت تحتوي على الكثير من الحيوانات المتوحشة التي جلبت من أفريقيا وآسيا والكثير من الطيور النادرة ، أما حدائق الزهراء فقد جلبت إليها الكثير من الأشجار ، وقد تجولت في مدينة الزهراء حوالي أربع ساعات وشاهدت الكثير من المواقع المحاطة بالأسلاك الشائكة ، ولعل العلماء الإسبان يقومون بالتنقيب فيها أو الترميم .



(٥٥) صورة أخرى لدار الملك
وقاعة عبد الرحمن الناصر حديثاً

وقد قامت السلطات الإسبانية ، بتحديد ممر من أعلى إلى أسفل ، يمكن للسائح أن يتعرف على بعض الأجزاء المحدودة للمدينة ، ويمكنه أن يصعد على الأسوار ليستكشف أكثر ، والممر يؤدي في النهاية إلى قاعة ضخمة في مقدمتها أربعة أعمدة ، وعلى جانبها قاعتان مستطيلتان لا زالتا مقفلة ، أما الوسطى فإن الترميم فيها تقريباً شبه منته وإن كانت أدوات الترميم لا زالت باقية ، والقاعة الوسطى تحتوي على صفين من الأعمدة عدد كل صف سبعة أعمدة ومرصوفة أرضيتها بقطع رخام ذات حجم كبير ، ويطلق على هذه القاعة دار الملك ، وأطلق عليها العلماء الإسبان (بهو عبد الرحمن الثالث) ، وأمام هذه القاعة بركة كبيرة والمسجد ليس ببعيد عن هذه القاعة ، ويشاهد المرء مئات بل آلاف القطع من النقوش الملقاة على الأرض ، والحقيقة أن الدمار شديد يعتبر اصلاحه من المستحيلات ، عدا بعض الأجزاء البسيطة التي قد تكون عامل جذب للسياح .

الفَصْلُ السَّادِسُ

إشبيلية

عاصمة ابن عباد

عدت إلى الفندق لأحمل حقيبتي لكي ألحق قطار الساعة الرابعة ، وإشبيلية تبعد عن قرطبة حوالي (١٣٩) كيلو متراً ، والمناظر في رحلة القطار تكرر نفسها ، سهول خضراء تخلب الألباب ، كان القطار يمرّ بعض الأحيان بمحاذاة نهر الوادي الكبير ، ولا يزال الإسبان يسمونه بهذا الاسم ، مع شيء من التحريف في النطق كما سيأتي ، وصلنا إلى محطة إشبيلية المبنية على الطراز العربي الجميل ، حملتني سيارة الأجرة إلى فندق (أنترناشنال) الذي حصلت على عنوانه من فندق قرطبة ، والفندق صغير ولكنه يقع في وسط إشبيلية ، مرت السيارة في أزقة ضيقة كادت جوانبها تلتصق بجدران المنازل ، دخلت الفندق فإذا بوسطه بهو والغرف تحيط بهذا البهو ذي العقود والنقوش العربية الأندلسية المزخرفة .

ومدينة إشبيلية تمثل كل ماشتملت عليه الروح الإسبانية من تنوع ، ففيها الثروة الفنية ، وبها المناظر البديعة ، والجمال الأندلسي العربي ، بها سوق تجارية نشطة إذ أنها تعتبر ميناء كبير ، شوراعها ضيقة ومتعرجة ، وإشبيلية مشهورة بتقديم حفلات مصارعة الثيران الأكثر وحشية ، وكل ما يمكن أن يطلبه السائح في إشبيلية يجده ، ولعل الأديب العربي الأندلسي الشقندي لم يكن مبالغاً حين قال في حينه « لو طلبت حليب العصفور في إشبيلية لوجدته »[١] أما المقري فقد نقل ماقاله صاحب (مناهج الفكر) عن إشبيلية قوله :

« هذه المدينة من أحسن مدن الدنيا ، وبأهلها يضرب المثل في الخلاعة ، وانتهاز فرص الزمان الساعة بعد الساعة ، ويعينهم على ذلك واديها الفرج وناديها البهيج »[٢] .

وإشبيلية ازدهرت ازدهاراً كبيراً بعد اكتشاف العالم الجديد ، (أمريكا) ويربط نهر الوادي

---

(١) النص مأخوذ من نشرة لوزارة الإعلام والسياحة الإسبانية تحت عنوان SEVILLA أما الشقندي فاسمه أبو الوليد إسماعيل بن محمد الشقندي نسبة إلى شقندة وهي بلدة بجوار قرطبة وقعت فيها المعركة بين اليمنيين والمعديين .

(٢) نفح الطيب ١٥٩/١ .

الكبير إشبيلية بالمحيط الأطلسي ، وبالتالي أصبحت الميناء الذي ينظم المعاملات مع العالم الجديد ، أما تاريخها العربي فهو تاريخ حافل ، فقد كانت عاصمة أثناء حكم بني عباد ، وشهدت هذه المدينة مجد الشاعر الأمير المعتمد بن عباد[1] أحد ملوك الطوائف ، فقد تولى إمارة إشبيلية سنة ١٠٦٨ م ، ووسع من إمارته حتى ضم قرطبة وبلنسية ومرسية ، يقال أنه كان لا يستوزر إلا شعراء باعتباره شاعراً ، وأنه لم يقف شعراء بباب أحد كما وقف ببابه ، وأخيراً شهدت إشبيلية انتكاسته المبكية ، وللمعتمد حكايات وروايات في هذه المدينة وخاصة مع زوجته الرميكية التي كان اسمها اعتماد ، ويقال أنه قد أخذ لقب المعتمد من اسم اعتماد ، ومن حكاياته مع الرميكية زوجته ، أنها قد شهدت قرويات يحملن اللبن في القرب وهن في طريقهن لبيعه ، واجهن في طريقهن وحلاً من الطين ، فرفعن ملابسهن عن سوقهن ليجتزن هذا الوحل ، وعندما شهدت اعتماد هذا المنظر ، تمنت على زوجها أن تعمل مع جواريها ماعملته القرويات ، فأمر المعتمد بأنواع الطيب والكافور والمواد الغالية الثمن ، والتي تشكل مستنقعاً صناعياً في القصر ومن أرقى المواد ، وخرجت هي وجواريها يخضن غماره ، حتى أشبعت رغبتها مع جواريها وبناتها ، وعندما خلع عن العرش كانت تتكلم معه مرة ، وقالت له والله مارأيت منك خيراً ، فقال لها حتى ولا يوم الطين ، ويقال أن الأمير ابن عباد قد أشار إلى هذه الحادثة في قصيدته في سجنه في أغمات في المغرب ، وقد قال هذه القصيدة حين رأى بناته وقد جئن لزيارته في السجن ، وهن حافيات ويغزلن للناس .

فيما مضى كنت في الأعياد مسروراً ... فجاءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

إلى أن قال :

من بات بعدك في ملك يسر به ... فإنما بات بالأحلام مغرورا

وللمعتمد بن عباد حكايات كثيرة تروي أسلوب حياته ، والترف الذي كان يعيشه أثناء فترة حكمه ، وقد وصفه كثير من الشعراء منهم ابن زيدون ، كما كان يستدعي الكثير من الشعراء والمغنيين لموآنسته في مجالسه الخاصة ، وكان يغدق عليهم الأموال الوفيرة ، ولعل انصرافه هذا إلى حياة الترف ، قد دفعه إلى التحالف مع أعداء أمته من ملوك الإسبان ، بغية اتقاء شرهم ، ولكنهم كما يبدو اضطروه

---

(١) للوقوف على حكايات ابن عباد مع زوجته اعتماد ، والبعض من شعره ، ارجع إلى نفح الطيب ٢١١/٤ ـ ٢٢٨ .

في النهاية ليس فقط للبقاء على الحياد ، بل إلى الاشتراك مع ملك قشتالة (ألفونسو) السادس في محاصرة طليطلة الحصن العربي المنيع حتى سقط ، وأخيراً فرضوا عليه الجزية ، وما أن انتهى ملك قشتالة من الاستيلاء على المناطق الشمالية حتى بدأ يزحف نحو الجنوب للاستيلاء على مملكة بني عباد .

وقد بدأ (ألفونسو) بإرسال رسوله إلى ابن عباد ، فقتل ابن عباد رسول (ألفونسو) ، ثم قال : لأن أكون راعي جمل عند يوسف بن تاشفين خير من أن أكون قائداً كبيراً عند (ألفونسو)[1] ، وهناك رواية بأن سبب الخلاف بين ابن عباد و (ألفونسو) هو إصرار (ألفونسو) على أن تلد زوجته في جامع قرطبة في مكان منه كان أصلاً كنيسة ، وأن تقيم أثناء بقائها في قرطبة في مدينة الزهراء[2] السابق ذكرها ، وكان رسوله يهودياً ، وكما يبدو أن اليهودي أساء التخاطب مع المعتمد بن عباد ، فما كان من المعتمد إلا أن قتل الرسول ، فلما بلغ (ألفونسو) مافعله المعتمد جهز جيشاً لغزو إشبيلية ، وجرت مراسلات بين المعتمد و (ألفونسو) أظهر فيها المعتمد قوة عزيمة ورباطة جأش ، فاستبشر البعض من زملائه حكام الطوائف ، واستنكر البعض ، فقال للمستنكرين : « رعي الجمال خير من رعي الخنازير » ولعل ابن عباد كان يدرك أنه في كلا الحالتين منتهٍ لا محالة ، سواء في حالة استعانته بيوسف ابن تاشفين ملك المرابطين ، أو استسلامه لخصمه (ألفونسو) ملك قشتالة ، ولكن كان هناك نوع من المفاضلة ، فلربما أن يوسف بن تاشفين يرعى أواصر الدم والدين ، ولكن كانت دعوة ابن عباد ليوسف ابن تاشفين وبالاً عليه وعلى أسرته ، صحيح أنهما تحالفا في البداية وانتصرا انتصاراً باهراً في موقعة الزلاقة المشهورة في التاريخ الإسلامي ، وكانت موقعة لا شك مهدت لحكم المرابطين في الأندلس ، وأخرت استيلاء المسيحين على مابقي من أجزاء في الأندلس لفترة طويلة ، ولكن كان من سوء حظ المعتمد الداعي ليوسف ابن تاشفين أن يموت مهاناً ذليلاً محتاجاً مكبلاً بالأغلال والقيود ، سيق من معقله وقصوره في إشبيلية إلى أغمات في المغرب ، وقد عبر عن هذا المشهد المقري في نفح الطيب حيث وصف طريقة خروج ابن عباد من إشبيلية : « ثم جمع هو وأهله ، وحملتهم الجواري المنشآت وضمتهم جوانحها ، كأنهم أموات بعد ماضاق عنهم القصر ، وراق منهم العصر ، والناس قد حشروا بضفتي الوادي . وبكوا بدموع كالغوادي ، فساروا والنوح يحدوهم ، والبوح باللوعة لا يعدوهم »[3] .

أما ابن عباد فبعد أن أثقلت قدماه بالقيود ، فقد وصف حاله على النحو التالي :

---

(١) انظر أحمد أمين ظهر الإسلام ص ١٧٠ .

(٢) أورد هذه الرواية المقري في نفح الطيب ٣٥٧/٤ .

(٣) انظر ٢١٤/٤ من نفح الطيب .

تبـــدلت من عــز ظــل البنــود　　ببـذل الحـديـد وثقـل القيــود
وكان حـديــدي سنــانــاً ذليقــاً　　وعضبـاً رقيقـاً صقيـل الحـديـد
فقـــد صـــار ذاك وذا أدهمــا　　يعض بســـاقي عض الأســـود

هذا هو حال المعتمد ، لكن ماذا يقول المؤرخون عن تصرف يوسف بن تاشفين ، يقول أحمد أمين في كتابه ظهر الإسلام « وتَبَعة ابن تاشفين قوية على كل حال ، فمها كانت الأسباب التي حملت على إزالة ملوك الطوائف ، سواء أكانت أسباباً وضيعة كحبه لمال الأندلس وخيراتها ، أو كانت أسباباً شريفة كتوحيد المملكة ضد أعدائه . فقد كان يستطيع أن يحبس ابن عباد في قصر فخم يليق به ، من غير قيود وأغلال ، ويجري عليه من الرزق ما يكفيه من سعة ، وبذلك يضمن تحصيل رغبته ، ويخفف من وقع الألم على ابن عباد ، ولكنه بدوي جلف لا يفهم كثيراً معنى الإنسانية »[1] .

نعم هذه بعض حكايات المعتمد ، والتي كان مسرحها إشبيلية التي حَلَلْت بها ، ومن شدة شوقي لمشاهدة هذا المسرح ، وضعت حقيبتي في الغرفة وخرجت لأجمع بعض المعلومات من غرفة الاستعلامات ، وقد حصلت على خريطة للمدينة عرفت منها الكثير من المناطق التي يجب زيارتها ، وحددت فيها موقع الفندق ، وعلمت أن هناك رحلة سياحية ستبدأ من فناء الكتدرائية الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ، وانطلقت وخريطتي في يدي أتجول في شوارع إشبيلية المتعرجة ، وأزقتها التي لا تحصى ولا تعد ، ورغم تعرجها وضيقها فإنها جميلة ونظيفة ، كل زقاق له اسم ومدلول ، اقترن بأسطورة أو حكاية ، فهناك زقاق الحياة وزقاق الماء وزقاق الفلفل وزقاق المجد ، وهذا زقاق (سوزونا) ويقال أنها فتاة يهودية ارتكبت الفاحشة أثناء حياتها ، وعاقبت نفسها بأن أوصت بوضع جمجمة رأسها على باب دارها ، عبرة وعقاباً لخطاياها .

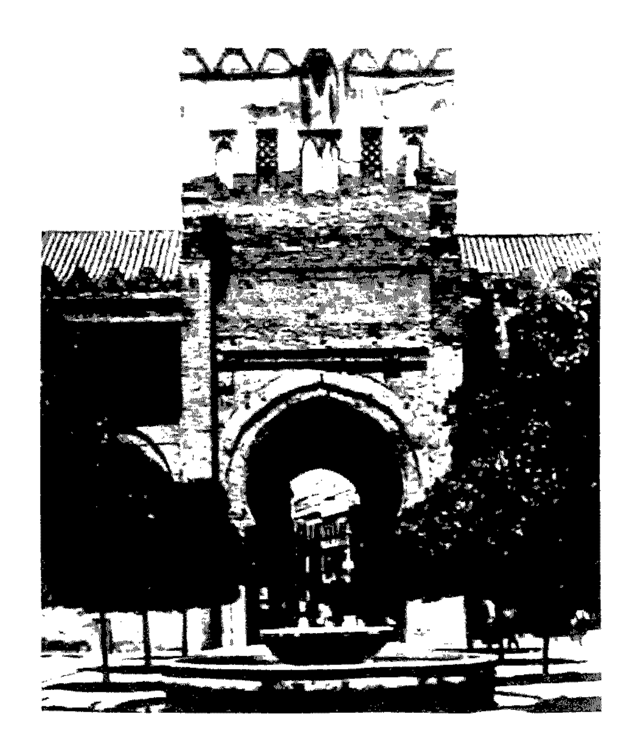
ومن الأشياء التي أضْفَت الجمال على الأزقة الضيقة ؛ بأن كل مجموعة منها تنتهي بحديقة صغيرة وضعت فيها مقاعد للاستراحة ؛ أو تنتهي بساحات مليئة بالزهور والتماثيل لمشاهير إشبيلية ، ولكن ليس بينهم عربي .

اليوم الثاني في إشبيلية :

في الموعد المحدد توجهت إلى ساحة الكتدرائية ، ووجدت عشرات بل المئات من السياح قد تجمعوا في الساحة ، من كل لون وجنس ، وجاء المرشدون ليوزعوهم إلى مجموعات ، وبدأنا نتجه نحو القصر الذي

(١) انظر ص ١٨٠ .

لا يفصله عن الكتدرائية سوى شارع ، ودخلنا الباب إلى ساحة مكشوفة ، ثم دخلنا القصر وبدأت المرشدة الإسبانية تشرح لنا باللغة الإنجليزية تاريخ هذا القصر ، وأنه كان أصلاً قصر الملك المعتمد بن عباد ، ولكنه تم توسيعه بواسطة الملك (دون بدر) ، أما القصر القديم فلم يبق منه إلا الفناء الذي يسمى فناء الجص ، ولكن التوسعات الجديدة التي حدثت في القصر كانت على نمط البناء الأصلي ، ويسميه المؤرخون الفن المدجن[(١)] .



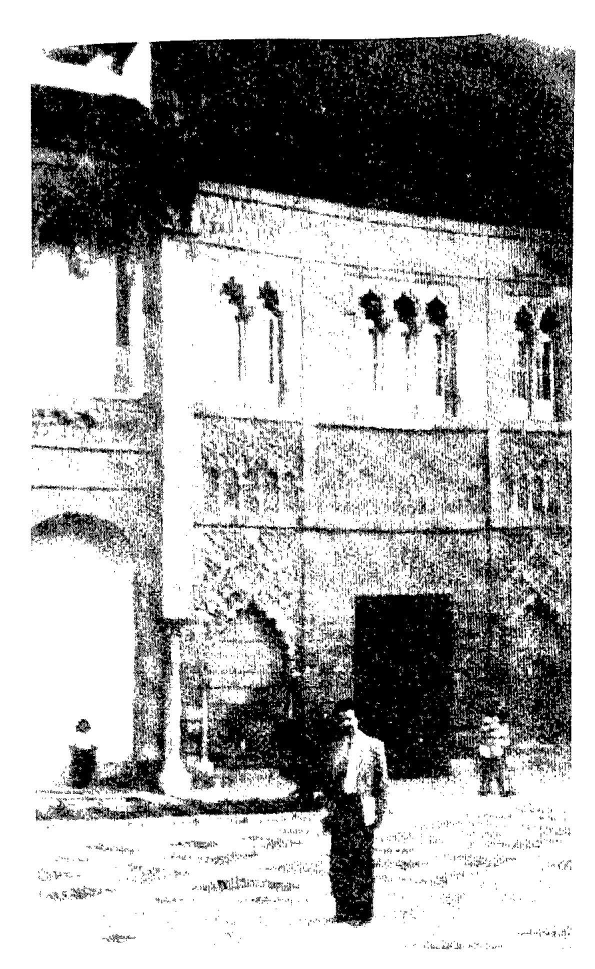
(٥٦) بوابة الكاتدرائية

وبدأنا نتجول من ساحة لأخرى ، ومن قاعة إلى صالة ، فهذه ساحة العذارى ، وتلك ساحة الدمى ، وهذه قاعة السفراء ، وتلك غرفة نوم ملوك العرب ، والقصر ونقوشه والآيات والأبيات الشعرية المرصعة على جوانبه تعتبر آية من الفن والإبداع ، وقد نقشت على جدرانه الكثير من الأشعار والعبارات العربية والدعوات لبانيه ، وبعض الشعارات التي كانت لبني نصر في غرناطة ، كما نقشت آية الكرسي في فناء العرائس ، ويشير محمد عبد الله عنان إلى أنه « ومن المعروف أن الصناع المدجنين كانوا ينقلون كثيراً من الآيات المحرفة بطريق التقليد الوضعي فقط ، حتى أنهم كانوا يثبتون بعض هذه الآيات محرفة في زخارف الأديار ذاتها ، دون أن يشعروا أنها من القرآن »[(٢)] .

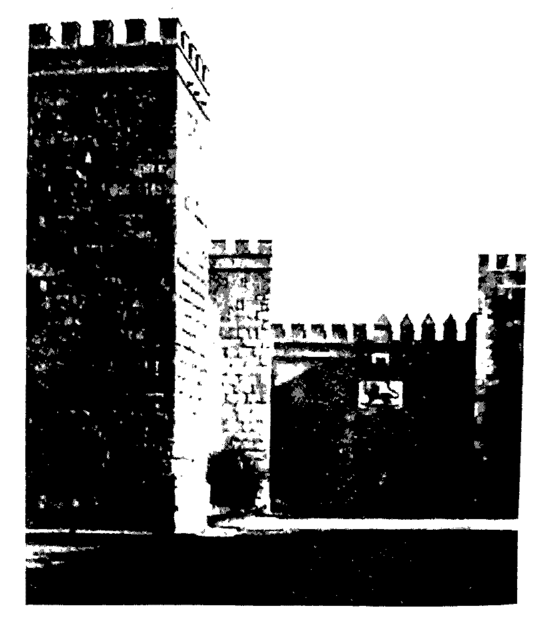
---

(١) ورد في الكتاب اسم المدجنين MUDEJARS والموركسيين MORISCOS المدجنين أطلقت على المسلمين الذين كانوا تحت الحكم المسيحي واحتفظوا بدينهم وحقوقهم وكان هذا قبل سقوط غرناطة ، أما بعد سقوط غرناطة فقد سمي المسلمون (موركس) وقد أجبروا على اعتناق المسيحية .

(٢) انظر الآثار الأندلسية الباقية لمحمد عبد الله عنان ص ٦٢ .

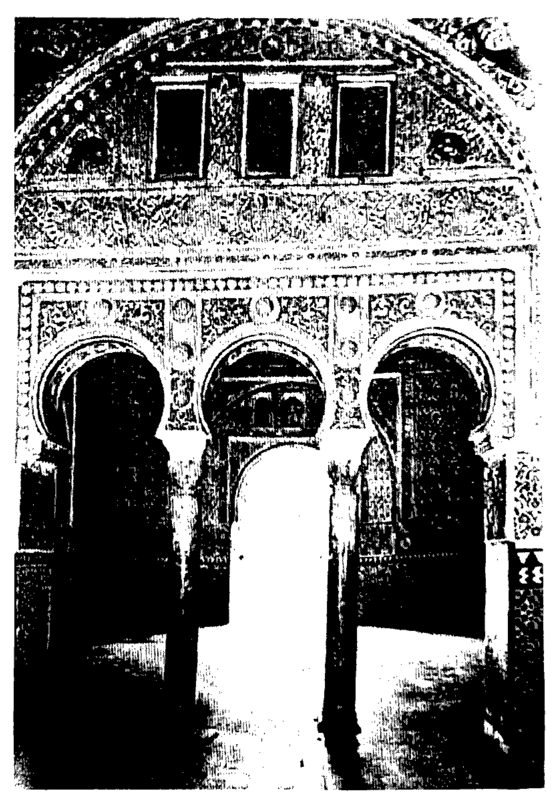


(٥٨) ساحة القصر



(٥٧) بوابة القصر

والقصر يعتبر مضاهاة لقصر الحمراء في غرناطة ، كما أنه يعكس حياة الترف التي كان يعيشها ساكنوه ، ويقال أن جيش المرابطين قد حاصر ابن عباد في هذا القصر ، وقاومهم مقاومة شجاعة حتى صدهم وقد قال :



(٥٩) قاعة السفراء داخل القصر



(٦٠) حديقة القصر

إن يسلب القـوم العـدى ملكي وتسلمني الجمـوع
فـالقلب بين ضلـوعـه لم تسلم القلب الضلـوع
قـد رمت يـوم نـزالهم أن لا تحصنني الـدروع
وبرزت ليس سـوى القميص على الحشـاشى دفـوع
أجلي تـأخر لم يكن بهـواي ذلي والخضـوع
مـاسرت قـط إلى القتـال وكان من أملي الرجـوع
شيم الأولى أنـا منهم والأصـل تتبعـه الفروع

وملحق بالقصر أيضاً حديقة جميلة واسعة الأرجاء ، وبرك صغيرة ربى فيها الإسبان أسماكاً ملونة جميلة ذات أحجام كبيرة ، ويقال أن القصر قد استخدم لتصوير جزء من فلم لورانس والعرب .

في الكتدرائية :

« فلنبني كنيسة كبيرة لدرجة أن يتصور الناس أننا مجانين » ، هذا هو الهتاف الذي كان يهتفه القسس والرهبان الذين بنوا الكنيسة على أنقاض المسجد الأعظم في إشبيلية بجوار القصر ، وهذا المسجد قد شيده الخليفة أبو يعقوب يوسف الموحدي ، كبديل لجامع بن عدبس الذي كان المسجد الأصلي في إشبيلية ، وأصبح هذا المسجد مقارباً لجامع قرطبة ، ولكن بعد هدمه وتحويله إلى كنيسة لم يبق منه إلا الجزء الشمسي ، أو فناء البرتقال ، وهو الفناء الذي تجمعنا فيه ، كما بقيت بعض الأبواب أو العقود .



(٦١) منظر لكاتدرائية إشبيلية موقع الجامع

والكنيسة بضخامتها تعتبر ثالث كنيسة في العالم ، من حيث السعة وعظمة البناء ، بعد القديس بطرس في روما ، والقديس بولس في لندن ، وتتطلب يوماً كاملاً لزيارتها ، والتعرف على معالمها ، ويقال أن بناءها قد استغرق ثلاثمئة عام ، وتحتوي على عدة أجنحة ومذابح ونقوش وصلبان ، ومتاحف لكنوز لا تقدر بمال ، ففيها خمسة أروقة تضم العديد من المشاهد التي تمثل حياة السيد المسيح والعذراء مريم ، وتضم قبوراً للقديسين والرهبان ، وبها مكتبة تسمى مكتبة (كرستوفر كولومبس) . يقال أن ماسلم من المكتبة حوالي ثلاثة آلاف كتاب ، بها نسخ فريدة مغلفة بجلود البقر المدبوغة ، وتحكي قصة اكتشاف أمريكا ، وفي إحدى جوانب الكنيسة يشاهد المرء قبر (كرستوفر كولومبس) وهو عبارة عن نعش رخامي بالحجم الطبيعي للنعش ، ويقال أن بداخله رفاة المستكشف[(١)] العظيم ، ويحمل هذا النعش أربعة تماثيل أيضاً بالحجم الطبيعي ، ويقال أنهم يمثلون الممالك الإسبانية الأربع في ذلك الوقت وهي (قشتالة ، أرجون ، ليون ، بافاريا)[(٢)] .

---

(١) كان كولومبس مدفوناً في كنيسة القديس فرانشيسكو في مدينة بلد الوليد في شمال إسبانيا ثم نقلت جثته سنة ١٥٠٩ م إلى كنيسة (لاس كويقاس) ثم نقلت مرة أخرى إلى كاتدرائية سانتو دمنجو ، كانت جثته مع ابنه ديبجو ، ثم نقلت الجثتان ١٧٩٥ م إلى مدينة هافانا عاصمة كوبا ، وحين استقلت كوبا نُقِلت رفات المستكشف العظيم إلى مقرها الآن في كنيسة إشبيلية ، ويلاحظ القارئ أن مغامرات جثته لاتقل عن مغامراته وهو حي ، راجع في هذا الصدد مجلة اكتوبر المصرية العدد ٢٦٧ ديسمبر ١٩٨١ ص ٥٠ .

(٢) راجع ناجي جواد « رحلة إلى الأندلس » ص ١٠٧ ـ الطبعة الأولى ـ دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت .

وقد كان للبلاط الإسباني الفضل الكبير على (كرستوفر كولومبس) حين شجعته (إيزابيلا) وأمدته بالعون لاستكشاف أمريكا بعد فشله بإقناع ملك البرتغال ، وقد صاحب استكشاف أمريكا سقوط آخر معاقل المسلمين في الأندلس في عام ١٤٩٢ .

كما أشرت سابقاً أن الكتدرائية قد بنيت في مكان الجامع الأعظم الذي هدموه ليبنوا مكانه ، ولكن إرادة الله شاءت إلا أن تبقى مئذنة هذا الجامع شامخة إلى السماء ، مبرهنة أنه مهما هدموا وطمسوا من معالم ؛ فإن المنارة لا زالت هدىً ومناراً للآفاق الإشبيلية وقد غير اسمها إلى كلمة (الجيرالدا) ويعلوها تمثال عظيم ، يقال أنه يرمز إلى الإيمان ، ويستخدم كدوارة هواء ، ولذا يقال أن معنى (جيرالدا) دوارة هواء أو (جيرالديو) بالعامية الإسبانية .



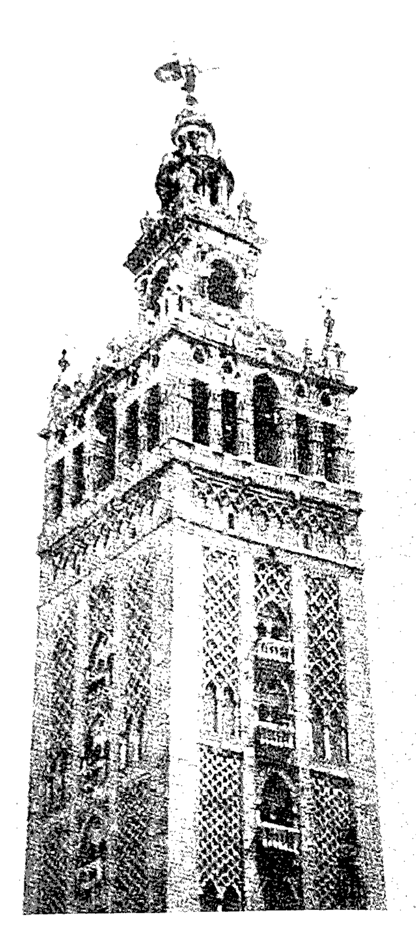
(٦٢) نعش كرستوفركولمبس

لم أتمكن نفس اليوم من الصعود إلى المئذنة ، إذ أننا قد ارتبطنا بالزيارة التي رتبتها المرشدة الإسبانية ، وقد تفرست فيّ ، وعرفت أنني عربي وبدأت تستعين بي لتصحيح نطقها باللغة العربية إذ كانت تشرح للسياح أصول التسميات للمواقع التي زرناها باللغة العربية .

لقد كان برنامجاً مزدحماً في ذلك اليوم ، فقد زرنا الحي اليهودي زرنا الميناء القديم ، وتجولنا على نهر (جودال كيفير) وقد كتبتها كما نطقتها المرشدة الإسبانية ، وهي من الكلمات التي سألتني المرشدة لكي أصحح نطقها العربي ولم أستطع .

عدت إلى الحروف اللاتينية التي يكتب بها اسم هذا النهر ، ووجدتها على النحو التالي :

(Guadalquivir) ولما لم أهتد إلى أصل التسمية بدأت تشرح لي باللغة الإنجليزية ماذا تعني التسمية ، وأخيراً اهتديت أنها تحريف لاسم الجدول الكبير ، قلت في نفسي : هكذا الدنيا لم أحتكم أنا ومرشدتنا الأندلسية إلا إلى اللغة الإنجليزية ، حتى أفهم تسميتها للجدول الكبير ، بينما كان هذا النهر سبباً في جدول كبير من الحب ، وفي النهاية الارتباط الأبدي بين إحدى بنات جنسها (اعتماد) ، وبين ابن عباد قبل أن يحمل اسم زوجته (المعتمد) ، وكان هو ينتمي إلى آخر ملوك الحيرة بينما هي إسبانية أصيلة ، وكان أحد أسباب اقترانه بها ، هو أن اللغة العربية كانت طوع بنانها . ولربما أبلغ من ابن عباد نفسه ، وكانت الحكاية أنه - أي ابن عباد - وهو في جولة على ضفاف النهر الذي نسير عليه الآن مع مجموعة من الشباب والشابات ، وكان من ضمن المجموعة صاحبه وأنيسه الشاعر ابن عمار ، وأراد ابن عباد أن يعبر عما حوله شعراً فجادت شاعريته بالمقطع الأول من البيت على النحو التالي : صنع الريح من الماء زرد[1] ... وحاول ابن عباد أن يكمل البيت ولم تسعفه القريحة والتفت إلى زميله الشاعر يستحثه لإكمال البيت ، ولم يكن ابن عمار بأحسن من ابن عباد وانبرت إحدى المرافقات لتنقذ الشاعرين بقولها « أي درع لقتال لو جمد » ويلتفت ابن عباد ، وإذ هو بفتاة جميلة سريعة البديهة بارعة في اللغة العربية ، وكان الشطر الأخير من البيت هو البداية لشراكة الحياة ، وسمي ابن عباد بالمعتمد بن عباد .



(٦٣) المئذنة العربية

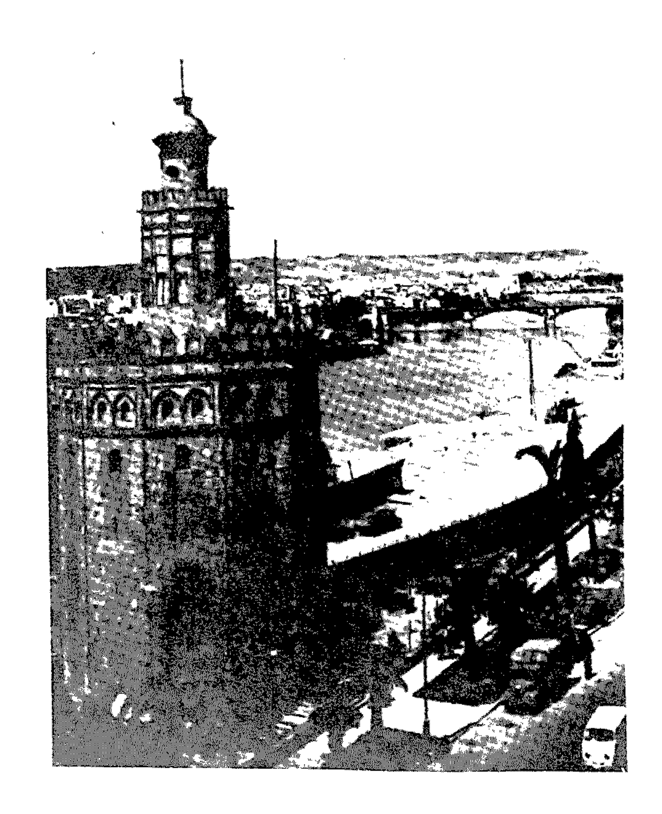
زرنا برج الذهب ، وهو على شاطئ النهر ، وقد بني على الطراز العربي وسمي بهذا الاسم ، لأن

---

(١) الزرد : الدرع .

الذهب الذي كان يحضره الإسبان من العالم الجديد (أمريكا) كان يخزن فيه ، ثم ينقل في سراديب متفرعة منه إلى أماكن آمنة .

لقد أمضينا يوماً حافلاً بالزيارات مع المرشدة ، زرنا بعض الكنائس البديعة التي أطلعنا فيها على تحف لا تقدر بثمن ، وأهدي لنا صورة لسيدة الأمل وعيونها تترقرق من الدمع الذي يتساقط على خدودها ، وعدت إلى الفندق لأنتظر الغد ، لأقوم ببرنامجي الخاص فسوف أصعد منارة المسجد (الجيرالد) وسوف أزور أحد متاحف إشبيلية .



(٦٤) برج الذهب

اليوم الثالث في إشبيلية :

في قمة المنارة أو الجيرالدا[1] (LA GIRALDA) بدأ في بناء هذه المنارة أبو يعقوب بن يوسف ، ثم واصل البناء أبو يوسف يعقوب (المنصور) ، وقيل أن المنصور كان يشرف بنفسه على بنائها ، وأن جزءاً من مواد بنائها قد أخذت من قصور المعتمد بن عباد القريبة منها ، وصممها المهندس العربي جابر ، والمئذنة مطلة على إشبيلية ، ويمكن للمرء أن يشاهد كل أنحاء إشبيلية من قمة المئذنة ، إذ أن ارتفاعها حوالي (٢٥٠) قدماً ، وقد عددت اللفات داخل المنارة فوجدتها أربعة وثلاثين لفة وقد

---

(١) يذكر محمد عبد الله عنان في كتابه الآثار الأندلسية الباقية ص ٥٤ « أن الجيرالدا هي شقيقة لمنارتين أقيمتا في المغرب هما منارة جامع الكتبية ومنارة حسان وقد بناها أيضاً الخليفة يعقوب المنصور بنفس النمط من الداخل والخارج » أما فون شاك في كتابه (الفن العربي في إسبانيا وصقلية) ترجمة د . الطاهر أحمد مكي ص ٧٦ فيشير إلى وصف مدونة الملك فرناندوا المقدس لمنارة الجيرالدا أنها منارة بالغة الدقة رائعة الفن في نقوشها عرضها ستون ذراعاً وارتفاعها مئتان وأربعون ، ويستطرد « إنه بالإمكان البلوغ إلى قمتها على ظهور الخيل والبغال » .

شوهت قمتها ، بأن أزيلت نهايتها وتوجت في نهايتها ، بتمثال كبير كا أسلفنا ، وفي قمة المئذنة خمسة وعشرون ناقوساً يزن الناقوس الواحد عدة أطنان من الحديد .

لقد شاهدت وأنا في داخل المئذنة الكثير من الكتابات بالقلم ، أو بأقلام الروج لزوار هذه المئذنة ، وممن كتبوا أسماءهم زوار عرب وخاصة من المغرب العربي ، ويزين المنارة من خارجها نقوش عربية جميلة .

في متحف إشبيلية :

متاحف إشبيلية كثيرة ومتعددة ، فهناك متحف الفنون الجميلة ، ومتحف الفن المعاصر ، والمتحف الأثري ، ومتحف الفنون والعادات الشعبية ، ومتحف البشارة ، ومدافن الإشبيلين الأعيان ، وقد قصرت الزيارة على المتحف الأثري ، والذي يحكي قصة الحضارات التي ترعرعت في إسبانيا ، ومنها الحضارة العربية الإسلامية ، وفي القسم الخاص بالعصر العربي وجدت بعض النقوش ، من القص وبعض الأعمدة من مساجد وبعض اللوحات ، وأهم ماوجدت لوحتين مكتوبتين بخط عربي واضح الأولى على النحو التالي :

« يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العادل (المهتدي) ، الآمر ببنيان هذا المسجد على يدي عمر بن عدبس ، قاضي إشبيلية في سنة أربع عشرة ومئتين ، وكتب عبد البر بن هارون » .

وتشير اللوحة إلى المسجد الأصلي الذي أشرنا إليه قبل بناء الموحدين للجامع الأعظم الذي بنيت على أنقاضه كاتدرائية إشبيلية .

أما اللوحة الثانية فقد كانت :

« قد أمر ببنائه المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبو القاسم محمد بن عباد ، وذلك عقب تهدمه بسبب الزلزال في شهر ربيع الأول سنة اثنين وسبعين وأربعمئة » .

وقد اختيرت ساحة أمريكا ، لكي تكون موقعاً للمتحف الأثري ومتحف الفنون والعادات الشعبية وهي ساحة خضراء جميلة تفنن الإسبان في تشجيرها واختيار زهورها ، وعدت إلى الفندق بعد الظهر لأحمل حقيبتي متوجهاً إلى بغيتي الأخيرة غرناطة .





غرناطة

آخر معاقل الدولة الإسلامية

تبعد غرناطة من إشبيلية حوالي (٢٥٥) كيلو متراً ، لم يكن هناك قطار مباشر ، وكان عليّ أن أنزل من قطار إلى قطار آخر في مدينة ليست بارزة في الخارطة ، وقد أوضحت لي موظفة الاستعلامات في محطة إشبيلية الموقع التقريبي على الخارطة ، كانت الرحلة قبل المغرب ، كنت في انتظار القطار في القهوة في محطة القطارات ، لفت انتباهي بلاط القيشاني الذي يغطي جزءاً من جدار القهوة ، لقد كان من ضمن النقشة أحد أسماء الله الحسنى الحق . الحق ، وكان القيشاني يغطي معظم جدار البوفيه ، ولعل صاحب ذلك المصنع قد اقتبس ذلك النقش من نقش عربي .

وقد سبق أن أشرنا أن المدجنين كانوا ينقلون بعض النقوش العربية والآيات القرآنية المحرفة ، وينقشون بها بعض الجدران في الأماكن الهامة ، كالقصور والكنائس ، وهم لا يعرفون أنها آيات قرآنية ، وهنا في بوفيه المحطة والتي تقدم أيضاً المشروبات الكحولية ، نجد أن كلمة الحق قد زين بها القيشاني الذي يغطي جزءاً كبيراً من البوفيه ، وتذكرت مواقف للغزال السابق ذكره في زيارته لجامع قرطبة والحمراء ، وقد سبق ذكر موقف جامع قرطبة أما موقفه في الحمراء ، فإنه يشير أنه قد مرّ في أحد الأبواب فوجد بعض المقاعد يقعد عليها الكفار ، ومكتوب فيها (لا غالب إلا الله) فلم ينتقل من ذلك المكان ، إلا بعد أن أبعدها إلى مكان بعيد ، حتى لا تظل تحت أقدام الكفار[1] .

ها نحن الآن متجهون نحو غرناطة ، آخر معاقل المسلمين في الأندلس ، لقد كانت رحلتي متجهة على النحو الذي سار به انحسار المسلمين عن بلاد الأندلس من الشمال إلى الجنوب ، لقد كان المسلمون يزحفون من الشمال إلى الجنوب حتى وصلوا إلى غرناطة . وأصبحت غرناطة بتوافدهم مركزاً للفنون والحضارة الأندلسية ، حتى وصل تعداد سكان غرناطة في ذلك الوقت إلى نصف مليون نسمة ، ازدهرت فيها كل جوانب المعرفة ، ففي مجال البناء والتشييد أنشئت قصور الحمراء وغيرها من القصور والمنتزهات ، وفي المجال الاقتصادي انتشرت الأسواق المتخصصة ، على غرار ما كان في قرطبة

---

(١) انظر أحمد بن مهدي الغزال « نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد » ص ٢٠٦ .

وإشبيلية ، وفي مجال الأدب والشعر برز لسان الدين بن الخطيب ، وابن زمرك شاعر الحمراء ، وأبو الحسن علي بن محمد القلعاوي من أكبر علماء العرب في الحساب والجبر وعلم الفلك ، وفي الطب أبو مروان ابن زهر ، وقد كانت غرناطة مطمعاً للطامعين من النصارى الزاحفين من الشمال ، بعد أن تساقطت المراكز الإسلامية في جميع أنحاء الجزيرة عدا الركن الجنوبي من شبه الجزيرة ، الذي قدر له أن يظل تحت حكم إسلامي طيلة قرنين ونصف من الزمن ، وقد ساعد على ذلك الحروب والفتن بين النصارى أنفسهم .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن حكام غرناطة قد اضطروا في كثير من الأحيان لعقد معاهدات الصلح ، وبعض الأحيان دفع الجزية للملوك الإسبان الأقوياء ، والذين كانوا يهددون بين آن وآخر مملكة غرناطة فقد اضطر أميرها محمد بن الأحمر إلى التحالف مع ملك قشتالة ، بل ودفع الجزية وتعاون مع ملك قشتالة على حصار إشبيلية حتى سقطت بأيدي النصارى ، وهذا يذكرنا بما عمله المعتمد بن عباد ، حينما تعاون مع أعداء أمته لحصار طليطلة ولعل بني الأحمر قد تذكروا مصير المعتمد بن عباد على يد يوسف بن تاشفين ، وفضلوا التحالف مع المسيحيين ، وكما يبدو أنهم كانوا يقومون بهذا العمل ، والتحالف على مضض ، حتى يتقوا شر جيرانهم الشماليين من الإسبان الذين يفوقونهم عدداً وعدة ، ولكن حالما يجدون أن بإمكانهم الوقوف أمام أعدائهم ، فإنهم لا يترددون من المواجهة ولو بمفردهم دون عون من أبناء جلدتهم في الشمال الأفريقي ، أما حين تَدْلَهِمُّ الخطوب عليهم ، ويضيق الأعداء الخناق عليهم ؛ فإنهم سرعان ما يبعثون برسلهم إلى الشمال الأفريقي ، حاملين الرسائل نثراً وشعراً مستغيثين بأبناء جلدتهم ، مستصرخين بكل القيم والمثل ، كانت هذه الاستغاثات تعبر عن عمق المأساة وفداحة النكبة التي تحل بالمسلمين في الأندلس ، بدأت هذه الاستغاثات حين بدأت تساقط الحصون في أقصى الشمال الإسباني ، وبدأت بشكل وعظ حينما كانت المأساة في بدايتها ، كان الشعراء والأدباء الأندلسيون يشخصون الأسباب التي أدت إلى النكبات ، التي بدأت تحل بالمسلمين في الأندلس ، ويدعون بني قومهم إلى تجنب أسباب الهزيمة ، ويحثونهم على الشجاعة والوحدة فيما بينهم ، بدأ هذا بعد سقوط الخلافة الأموية ، وظهور ملوك الطوائف من عرب وبربر[1] يتناحرون فيما بينهم ،

---

(١) نذكر من الممالك الصغيرة التي برزت بعد سقوط الخلافة الأموية وسميت (ملوك الطوائف) بنو زيرى وهم طائفة من البربر استقلوا بغرناطة ، بنو حمود استقلو بملقة وقرطبة ، بنو هود وهم عرب كانت دولتهم في سرقسطة ، بعض موالي بني عامر في بلنسية ، بنو عباد وهم عرب كانت دولتهم في إشبيلية ، دولة بني الأفطس كانت دولتهم في بطليوس ، دولة بني جهور وقد كانت في قرطبة ، دولة بني النون وهم بربر في طليطلة ، وقد كانت الحرب سجالاً بين هذه الدويلات ، وقد استمر عصر ملوك الطوائف من ٤٣٠ ـ ٥٣٦ هـ (١٠١٢ ـ ١١٤١ م) وجاء بعد ذلك عهد المرابطين على يد يوسف بن تاشفين .

وأصبحت الأمة الأندلسية أشتاتاً كل مجموعة لها جزء من الأرض الأندلسية ، وبدأ الإسبان يلتهمون هذه الأشتات قطعة قطعة ، فحين سقطت طليطلة قيلت تلك المرثية التي هزت المشاعر ، وقد أوردناها في مكان آخر ، ومن أبياتها :

طليطلة أباح الكفر منها　　حماها إن ذا نبأ كبير

وحين يشخص الشاعر الأسباب التي أدت إلى هذه الفاجعة يقول :

أنأمن أن يحل بنا انتقام　　وفينا الفسق أجمع والفجور
وأكل للحرام ولا اضطرار　　إليه فيسهل الأمر العسير

ثم يحث بني قومه للصمود ، ولكنه لم يستصرخ النجدة من قوم آخرين :

خذوا ثار الديانة وانصروها　　فقد حامت على القتلى النسور
ولا تهنوا وسلوا كل عضب　　تهاب مضاربا عنه النحور
وموتوا كلكم فالموت أولى　　بكم ، من أن تجاروا أو تجوروا

لقد كانت القصيدة صرخة يخاطب فيها جميع أبناء الأندلس ، وتتساقط الحصون تباعاً ، وكان لابد للأندلسيين من مد بصرهم إلى المكان الذي أتى منه طارق إلى الشمال الأفريقي ، فهذه قصيدة موجهة لصاحب أفريقية أبي زكريا ابن عبد الواحد بن حفص حين سقطت بلنسية :

نادتك أندلس فلبِّ نداءها　　واجعل طواغيت الصليب فداءها

ومن أبياتها مخاطباً بني قومه في البر الأفريقي :

أولوا الجزيرة نصرة إن العداء　　تبغي على أقطارها استيلاءها
نقصت بأهل الشرك من أطرافها　　فاستحفظوا بالمؤمنين نماءها

وهي قصيدة مؤثرة من حوالي تسعين بيتاً ، ويزداد الأمر سوءاً وتنكمش الدولة الإسلامية في الأندلس ، لتنحصر في جزء صغير في أقصى الجنوب من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وكلما زحف الأعداء بجحافلهم ، كثُرَ الرسل الحاملون للاستغاثات شعراً ونثراً[1] ، ولم يكتف الأندلسيون بتوجيه الشعر إلى الحكام ، بل كانت الرسائل والقصائد تلقى في المساجد أمام الشعب تستثير عواطفه وحميته ، فقد

---

(١) كان للشعر في الأندلس دور تسجيلي في وصف الحياة بمختلف مظاهرها ومراحلها فهناك الشعر الذي نظم أثناء العزة والمجد والانتصارات ، ثم شعر المجون والانحلال ، ثم شعر الانحدار والسقوط ، ثم شعر المأساة الذي يصف القهر والذلة والهوان وقارئ الكتاب سيجد ألواناً من هذا الشعر .

ألقيت قصيدة في جامع القرويين في فاس بعد صلاة الجمعة للشاعر مالك بن رحيل ، وقيل إن المصلين قد بكوا تأثراً لسماعها ، ومن أبياتها :

استنصر الدين بكم فأقدموا ... فإنكم إن تسلموه يسلم
لاذت بكم أندلس ناشدة ... برحم الدين ونعم الرحم
ياأهل هذي الأرض ماأخركم ... عنهم وأنتم في الأمور أحزم
ماهمة إلا قتال أمة ... يكبر عيسى قولهم ومريم
تشرك بالله وتدعو معه ... خلقاً يصح حبسه ويسقم
وتدعي أن له صاحبة ... وابناً ولا صاحبة ولا ابنم

ونداء آخر للشاعر أبي عمران المرابط ، من ضمن أبياته :

هذا الهدى داع فهل من مسعف ... بإجابة وإنابة أو مسعد
هذا سبيل الرشد قد وضحت فهل ... بالعدوتين من امرئ مسترشد
يرجو النجاة بجنة الفردوس أو ... يخشى المصير إلى الجحيم الموقد
ياأمل النصر العزيز على العدى ... أجب الهدى تسعد به وتؤيد
أتعز من أرض العدو مدائن ... والله في أقطارها لم يعبد
وتذل أرض المسلمين وتبتلى ... بمثلثين سطوا بكل موحد
كم جامع فيها أعيد كنيسة ... فاهلك عليه أسى ولا تتجلد
القس والناقوس فوق منارة ... والخمر والخنزير وسط المسجد
أسفا عليها أقفرت صلواتها ... من قانتين وراكعين وسجد
كم من أسير عندهم وأسيرة ... فكلاهما يبغي الفداء فما فدي
كم من عقيلة معشر معقولة ... فيهم تود لو أنها في ملحد
كم من تقي في السلاسل موثق ... يبكي لآخر في الكبول مقيد
وشهيد معترك توزعه الردى ... مابين حدي ذابل ومهند
ضجت ملائكة السماء لحالهم ... ورثى لهم عن قلبه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم إخواننا ... مما دهانا من ردى ومن ردي
أفلا تراعون الأذمة بيننا ... من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم في إخوانكم ... وسيوفكم للثأر لم تتقلد

واستغاثة من ابن الخطيب من ضمن أبياته :

إخواننا لا تنسوا الفضل والعطف   فقد كاد نور الله أن يطفا

ويقول :

تحكم في سكان أندلس العدا   فلهفاً على الإسلام ما بينهم لهفا
وجاشت جيوش الكفر بين خلالها   فلا حافراً أبقت عليها ولا ظلفا
ثغور غدت مثل الثغور ضواحكاً   أقام عليها الكفر يرشفها رشفا
وكيف يعيث الكفر فينا ودوننا   قبائل منكم تعجز الحصر والوصفا

وصرخة للسلطان أبي عثمان من ابن الخطيب ، من أبياتها :

نادتك أندلس ووجدك ضامن   ألا تخيب لديك في مطلوب
غصب العدو بلادها وحسامك الماضي   الشبا مسترجع المغصُوب

أما أبو عبد الله محمد الفازازي ، فقد قال أبيات شعر في رقعة وجدت يوم وفاته :

الروم تضرب في البلاد وتغنم   والجور يأخذ ما بقي والمغرم
والمال يورد كله قشتالة   والجند تسقط والرعية تسلم
وذوو التعين ليس فيهم مسلم   إلا معين في الفساد مسلم
أسفي على تلك البلاد وأهلها   الله يلطف بالجميع ويرحم

ماسبق كان استعراضاً لبعض جوانب الشعر في مأساة سقوط الأندلس[1] أما جانب النثر فقد كان هناك استغاثات كثيرة ترسل لسلاطين الشمال الأفريقي نذكر هنا نماذج لها ، فمن رسالة للسان الدين ابن الخطيب موجهة إلى أحد سلاطين بني مرين ، واصفاً حال الأندلس ، يقول في جزء من هذه الرسالة «فإننا في هذه الأيام ، أهمنا من أمر الإسلام ، مارنّق الشراب ونغص الطعام ، وذاد المنام ، لما تحققنا من عمل الكفر على مكايدته وسعي الضّلال ـ والله الواقي ـ في استئصال بقيته » .

---

(١) يمكن العودة لبحث تحت عنوان (الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي) للكاتب الطرابيسي أحمد إعراب الأستاذ بكلية الآداب في الرباط في المغرب نشر في عالم الفكر التي تصدر عن وزارة الإعلام في دولة الكويت .
المجلد الثاني عشر العدد الأول إبريل ـ مايو ـ يونيو ١٩٨١ ، وهناك الكثير من القصائد المحزنة في نفح الطيب .

ثم يقول في جزء منها « وقد أصبحنا بدار غربة ، ومحل روعة ، ومفترس نبوة ، ومظنة فتنة ، والإسلام عدده قليل ، ومنتجعه في هذه البقعة جديب ، وعهده بالإرفاد والإمداد من المسلمين بعيد » .

ويستطرد « وإذا تداعت أمم الكفر نصرة لدينها المكذوب ، وحمية لصليبها المنصوب ، فمن يستدعى لنصر دين الله ، وحفظ أمانة نبيه إلا أهل ذلك الوطن » .

ورسالة أخرى على لسان يوسف بن نصر إلى سلطان فاس ، وفي جزء منها « وفي هذه الأيام عميت الأنباء ، وتكالبت في البر والبحر الأعداء ، واختلفت الفصول والأهواء . وعاقت الوُرّاد الأنواء ، وعلى ذلك من فضل الله الرجاء ، ولو كنا نجد للاتصال بكم سبباً ، أو نلقى لإعانتكم مذهباً لما شغلنا البعد الذي بيننا اعترض ، والعدو بساحتنا في هذه الأيام ربض »

وقد لاقت تلك الاستغاثات شعرها ونثرها استجابة وصدى في نفوس أبناء المغرب العربي :

شهد الإله وأنت يا أرض أشهدي ... أنا أجبنا صرخة المستنجد

فقد كانت جحافل الجيوش الإسلامية وكتائب المجاهدين العابرة من المغرب العربي لا تنقطع طوال محنة الأندلس ، فقد سبق أن أشرنا إلى دور يوسف بن تاشفين في نصرة الأندلسيين ، ووقعة الزلاقة[1] التي أعادت للمسلمين معنوياتهم ، وأصبحت الأندلس فيما بعد تحت حكم المرابطين ، وقد كان وصول جيوش المرابطين إلى الأندلس تلبية لاستغاثة المعتمد بن عباد ، وبعد انقضاء عصر المرابطين[2] ، جاء عهد الموحدين[3] الذين ساروا على نفس الدرب في كبح جماح النصارى ، ثم جاء بنو مرين[4] الذين جهزوا الأساطيل ، وناصروا بكل إمكانياتهم أخوانهم فيما بقي من الأندلس ، ولقد ساعد استمرار

---

(١) الزلاقة مدينة تقع الآن في الجانب البرتغالي بجوار الحدود الإسبانية تسمى Sagrajas تعتبر المعركة التي وقعت فيها نقطة تحول في التاريخ الإسلامي في الأندلس ، فقد كانت قويت شوكة النصارى ، وكادوا يقضون على ابن عباد ، ثم جاء يوسف بن تاشفين من المغرب والتقى يوسف قائد المسلمين و (ألفونسو) السادس قائد النصارى في ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م وكانت الغلبة للجيش الإسلامي وبسبب هذه الوقعة امتد عمر الإسلام ما يقارب أربعمئة عام في ربوع الأندلس ، يمكن العودة لنفح الطيب : ٣٥٤/٤ لمزيد من التفاصيل .

(٢) المرابطون فرقة سياسية دينية بدأت دعوتهم من رباط وهي أماكن تقام للعبادة ولذا دعوا بالمرابطين . وقد تطورت هذه الحركة إلى أن أصبحت دولة إسلامية قوية ضمت إليها الأندلس كما سبق ، استمر حكمهم في الأندلس من (١٠٥٦ ـ ١١٤٦ م) .

(٣) الموحدون فرقة سياسية دينية قامت دولتهم على أنقاض دولة المرابطين في المغرب والأندلس ، بل كانت أعظم شأناً يستمدون تسميتهم من توحيد الله تعالى والعودة إلى جوهر العقيدة ، استمر حكمهم من (١١٢٩ ـ ١٢٦٨) م .

(٤) المرينيون لم يحكموا الأندلس وإنما ناصروا الأندلسيين بأساطيلهم ، وكان حكمهم في المغرب .

المسلمين في هذه البقعة من الأرض في بداية سقوط الخلافة الأموية حتى تسليم مفاتيح غرناطة التمزق الذي كان بين الإسبان أنفسهم ، والحروب فيما بينهم ، ولكن قويت شوكتهم في المراحل الأخيرة ، وبدأت الدولة الإسلامية في الأندلس تنحصر إلى شريط حدودي ، ودب الخلاف في صفوف الحاكمين العرب في غرناطة ، وتَشَتُّت أخوانهم في الشمال الأفريقي ، وتزاوج (فردناند وإيزابيلا) وكونا مملكة متحدة ، وزحفت جيوشهم على غرناطة ، ويقال أن حصار مدينة غرناطة قد استمر سبعة أشهر ، وكانت تأتيهم المؤن من جهة (جبال شلير) ولكن ما أن حل فصل الشتاء ، وتراكمت الثلوج ، إلا وانقطعت عنهم المؤن من جهة الجبل ، ومات الكثير من الجوع ، ويختار القدر أبا عبد الله محمد بن السلطان أبي الحسن الذي يلقب بأبي عبد الله الصغير ليسلم قصور الحمراء في فجر الثاني من ربيع الأول ٨٩٧ هـ الموافق الثاني من يناير ١٤٩٢ م .

وللقارئ أن يتساءل عن أبي عبد الله من هو ؟ وما تاريخه ؟ وهل يتحمل المسؤولية التاريخية ، لإسدال الستار على تاريخ وحضارة ومجد دام ثمانمئة عام ؟.

لقد كانت البداية على يدي طارق بن زياد ، الذي رفع الراية الإسلامية فوق شبه الجزيرة الأيبيرية سنة ٩٢ هـ (٧١٣ م) ثم كانت النهاية على يدي أبي عبد الله الصغير الذي سلم الراية ، وخرج طريداً من حيث دخل طارق فاتحاً ، تولى فيها حكم الأندلس ٢٢ والياً قبل الأمويين ، ثم (٢٤) حاكماً أموياً ، ثم تلا ذلك ملوك الطوائف الذين تقاسموا الأندلس ، وحولت إلى ولايات حكم منهم حوالي (٣٧) حاكماً في مواقع مختلفة ، ثم جاء بنو نصر في غرناطة تولى منهم الحكم (٢٨) حاكماً ، وكانت النهاية المحزنة على يدي أبي عبد الله الملقب بالصغير . لا شك أن أبا عبد الله محمد بن السلطان أبي الحسن قد ورث مخلفات تراكمت على مدى فترة طويلة ، كان من سوء حظه أنه هو الذي اختاره القدر ليكتب النهاية للبقعة الصغيرة التي بقيت تحت الحكم العربي ، ولكن كيف كانت بداية النهاية ، كان والده السلطان أبو الحسن رغم تقدمه في العمر ، قد أخلد إلى حياة الترف واتباع ملذاته .

يقول صاحب نفح الطيب « كان صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن قد استرسل في الملذات ، وركن إلى الراحات وأضاع الأجناد ، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه ، واحتجب عن الناس ، ورفض الجهاد والنظر في الملك ، ليقضي الله تعالى ما شاء ، وكثرت المغارم والمظالم ، فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه »[1] .

فلم يمنعه سنه المتقدم من الاقتران بفتاة إسبانية يافعة كان اسمها المسيحي (إيزابيلا) ، وإن

---

(١) انظر : ٥١٢/٤ .

كانت قد سميت فيا بعد بثريا ، ولسوء الحظ كان لسميتها (إيزابيلا) الدور الكبير في سقوط غرناطة .

كانت هذه الإسبانية جارية لدى أبي الحسن . ولكنها عرفت بالدهاء والذكاء ، وبدأت تتدخل في شؤون الدولة ، ويذهب بعض المؤرخين إلى اعتبارها جاسوسة لصالح بني جنسها[١] .

كان للسلطان ولدان من ابنة عمه عائشة هما محمد ويوسف ، وكُنيا فيا بعد بأبي عبد الله محمد وأبي الحجاج يوسف . وكانت لها مواقف نذكر ماقاله محمد عبد الله عنان عنها « وتحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة ، وليس ثمة في تاريخ تلك الفترة الأخيرة من المأساة الأندلسية شخصية تثير من الإعجاب والاحترام ، ومن الأسى والشجن ، قدر ما يثير ذكر هذه الأميرة النبيلة الساحرة ، التي تذكرنا خلالها البديعة ، ومواقفها الباهرة ، وشجاعتها المثلى إبان الخطوب المدلهمة ، بما نقرأه في أساطير البطولة القديمة من روائع السير والمواقف »[٢] .

أما (إيزابيلا) المرأة الإسبانية التي استولت على قلب الشيخ الكهل ، فقد أنجبت أيضاً سعداً ونصراً اللذين تبرآ من دينهما فور تأكدهما من أن النصر حليف الملكين الكاثوليكيين ، وسمي سعد (ضون فرناندو) وسمي نصر (ضون خوان) فقد كانت (إيزابيلا) تحاول أن تكون الخلافة في أحدهما ، ونجحت في طرد عائشة بل وزجها مع ولديها في السجن ، وكان هذا بداية لخلافات بين سكان غرناطة ، ففريق يؤيد الشيخ الكهل مع زوجته الجديدة ، وفريق آخر كان يؤيد الملكة عائشة ذات الأصل والحسب مع ولديها ، واستطاعت عائشة أن تهرب مع ولديها ، وظهر أبو عبد الله محمد ولدها في وادي آش مع أنصاره .

كانت هذه الأحداث لاشك تثلج قلوب الأعداء من الإسبان ، فكانوا يزحفون على القلاع والحصون والمدن العربية ؛ التي كانت تتساقط بين أيديهم ، بينما كان الخلاف قد نشب بين الابن أبي عبد الله والأب أبي الحسن ، اللذين تقاسما مملكة غرناطة ، فقد جلس أبو عبد الله مكان والده وطاعته بعض المناطق ، بينما بقيت بعض المناطق تدين بالولاء لوالده ، ويحدثنا التاريخ أن أبا عبد الله قد جهز جيشاً وبدأ يزحف على قرطبة واستولى على الكثير من الحصون في طريقه ، وهزم النصارى في عدة مواقع ، وأثناء عودته وفي موقعة (اللسانة) أدركه النصارى وهزموه هزيمة قاسية[٣] ، وكان أبو

---

(١) أحمد أمين (ظهر الإسلام) ص ٤٦ .

(٢) انظر : (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين) ص ١٩٧ .

(٣) في هذه الموقعة سلبت منه العباءة التي يحتفظ بها الآن في متحف مدريد الحربي كما أشرنا سابقاً .

عبد الله نفسه أحد الأسرى ، وسيق إلى قرطبة حيث ظل أسيراً هناك في قصرها بجوار الجامع[1] ، ثم نفي إلى قلعة نائية .

وللقارئ أن يتخيل حال المسلمين حين يعودون دون أمير ، فقد تولى الحكم أثناء فترة أسر أبي عبد الله والده العجوز أبو الحسن ، ثم عمه محمد أبو عبد الله (الزغل) الذي دخل في حرب مع يوسف أبي الحجاج شقيق أبي عبد الله .

وأخيراً ، وبعد مفاوضات مع الملك (فرناندو) وزوجته (إيزابيلا) وبعد أن شعرا أنهما قد حققا أهدافهما ، وعرفا مواطن الضعف والقوة في أبي عبد الله أطلق سراحه بعد أن وافق على شروطهما ومنها دفع الجزية ، وإطلاق سراح الأسرى النصارى ، وتقديم رهائن من عِلّية القوم ، ولا شك أن الإسبان قد درسوا نفسية أبي عبد الله ، أثناء أسره دراسة دقيقة .

وهنا ننقل ماقاله محمد عبد الله عنان في تحليله لشخصية أبي عبد الله : « كان أبو عبد الله أميراً ضعيف العزم والإرادة ، قليل الحزم والخبرة ، ولم يكن يتمتع بشيء من تلك الخلال الباهرة ، التي امتاز بها أسلافه وأجداده العظام من بني الأحمر ، وكان الملك والحكم غاية يبتغيها بأي الأثمان والوسائل ، وقد ألفى ملك قشتالة القوي في ذلك الأمير الضعيف الطموح أداة صالحة يوجهها كيفما شاء ، فاتخذه وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيديه في غرناطة وغيرها ، وليقنع المسلمين بأن الصلح مع ملك قشتالة خير وأبقى »[2] .

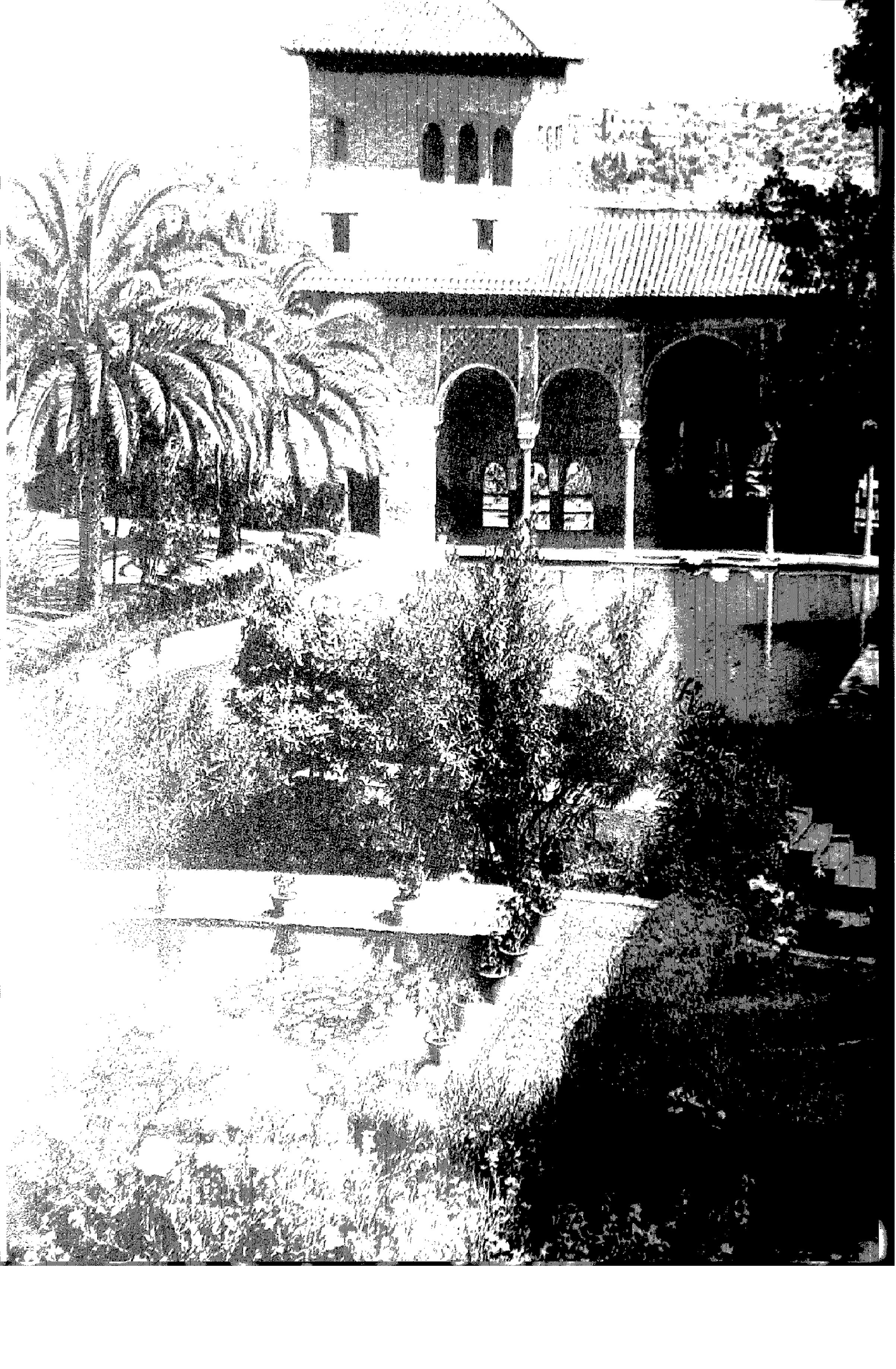
هذا هو تحليل شخصية أبي عبد الله ، الذي خرج من السجن ليدخل في خلاف مع عمه الزغل ، ونشبت الحرب بينهما في نفس الوقت الذي كانت فيه بقية الحصون تتساقط بيد الإسبان ، وقيل : أن لوشة قد سقطت بيد الإسبان وفيها أبو عبد الله ، وقيل : أن سقوط لوشة بيد الإسبان قد تم بالاتفاق بين أبي عبد الله وملك قشتالة ، يذكر المقري في نفح الطيب : « وصرحت الألسن بأن ذلك الاتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة »[3] ، وقيل : أنه قد أسر مرة أخرى ، وقيل : أنه قد اتفق مع الإسبان بأن يساعدوه على استعادة العرش من يد عمه ، بينما كانوا في نفس الوقت يحاصرون بلش ومالقة حتى سقطت في أيديهم ، ونصب أبو عبد الله على عرش غرناطة مرة ثانية بينما كانت بعض

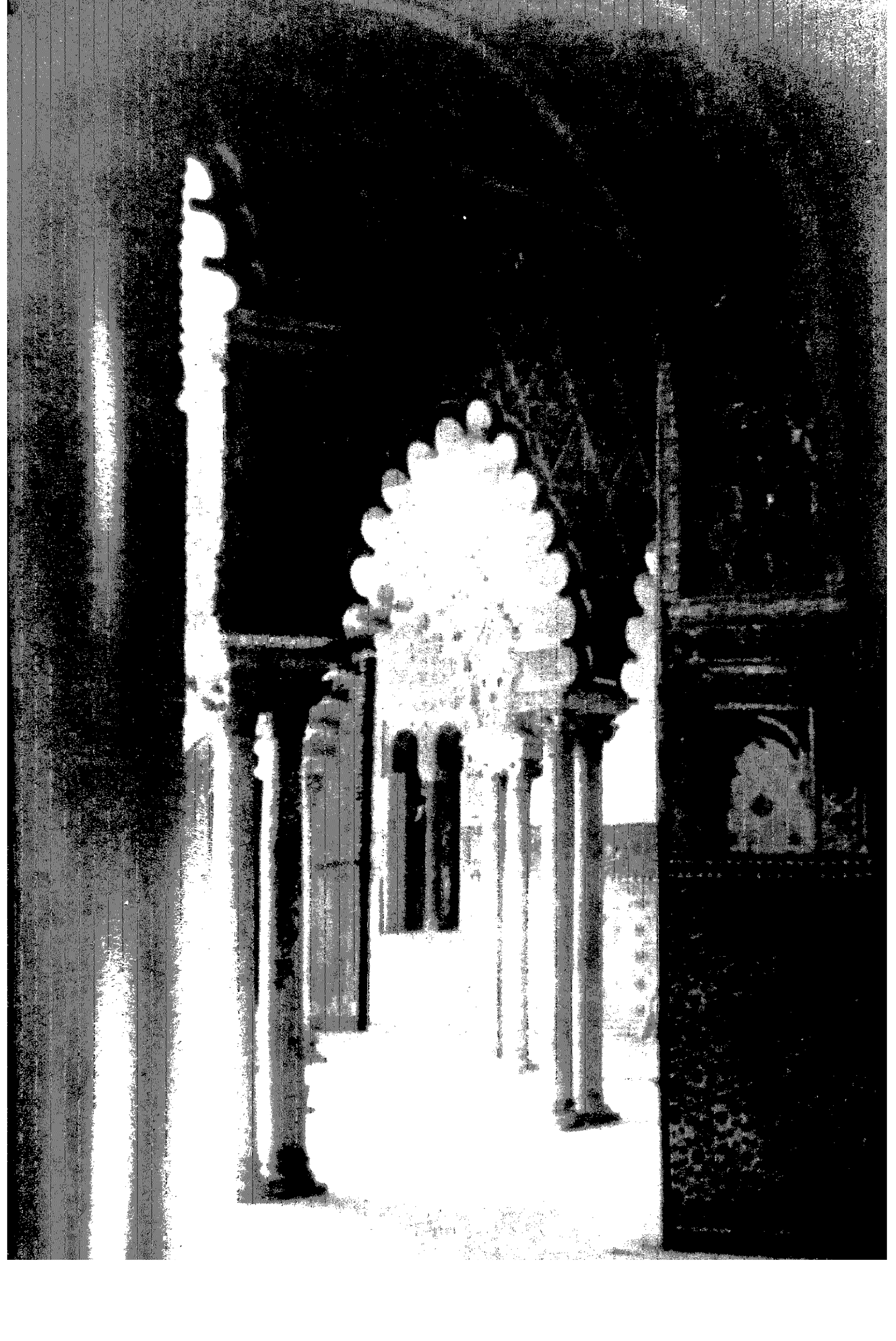
---

(١) يمكن العودة إلى الصورة التي رسمت لأبي عبد الله ، ومنشورة في هذا الكتاب ويتضح فيها السلسلة التي تحيط بعنقه .

(٢) انظر نهاية الأندلس ص ٢٠٦ .

(٣) انظر ٥١٧/٤ : كان أبو عبد الله مأسوراً في لوشة ، ويضيف المقري في نهاية الصفحة : « فصرح عند ذلك أهل غرناطة بأنه (أبي عبد الله) ماجاء للوشة إلا ليدخل إليها العدو الكافر ويجعلها فداء له ، وقيل أنه (العدو) سرح له حينئذ ابنه إذ كان مرهوناً » ص ٥١٨ .





الأجزاء من المملكة لا زالت تدين لعمه الذي اشتهر بالبطولة والإقدام ، ولكن حصار الإسبان له وتضييقهم الخناق عليه ، وخيانة بعض قواده وأنصاره له جعله في النهاية يعقد صلحاً مع الإسبان مقابل امتيازات معينة له ، ولكنه استعاض بهذه الامتيازات في النهاية مبالغ مالية هاجر بعدها إلى المغرب ، يجتر آلامه هناك ، وأصبح الموقف في هذه المرحلة أن أبا عبد الله الصغير هو الحاكم الوحيد ، ويحكم مدينة غرناطة ، بعد أن استولى الإسبان على كل الثغور والمناطق المحيطة بها لم يعد الاستيلاء على غرناطة إلا مسألة وقت ، وكيفية إجراءات التسليم ، هذا ما كان يعتقده الملكان الكاثوليكيان ، قيل : أن الملكين الكاثوليكيين قد أرسلا رسالة لأبي عبد الله يأمرانه بتسليم غرناطة ، وقيل : أنهما قد طلبا تسليم قصور الحمراء ، ولكن أبا عبد الله أظهر من ضعفه قوة واستعد للحرب ، ووقعت عدة معارك بين الجانبين على مشارف غرناطة ، كان النصر حليف المسلمين بقيادة أبي عبد الله ، ولما رأى الإسبان هذا الاتجاه ، وحتى لا يستفحل هذا الأمر ، أرسلوا قوة كبيرة لمحاصرة غرناطة ، ويحكي لنا التاريخ قصصاً وبطولات فذة ، للأبطال المسلمين أثناء هذه المحنة والحصار الذي استمر سبعة أشهر ، ولكن كما يبدو بعد حصار السبعة أشهر ، أن المحنة كانت فوق طاقتهم ، كان الجوع والمرض يفتك بالمسلمين ، وكان لا بد من تدارس الموقف في جمع حافل ، ضم كبار القوم في غرناطة ، اجتمعوا في أحد أبهاء الحمراء (بهو قمارش) ، وكان أمامهم خياران ، إما التسليم أو الموت ، ولم يعترض على التسليم إلا القائد موسى بن أبي الغسان الذي أبلى بلاءً حسناً ، كان وهو يدافع عن غرناطة يقول : « لم يبق لنا سوى الأرض التي نقف عليها ، فإذا فقدناها ، فقدنا الاسم والوطن »[١] . أما عندما عرض حل التسليم فقد قال : « لم تنضب كل مواردنا بعد ، فما زال لنا مورد هائل للقوة ، كثيراً ما أدى المعجزات ، ذلك هو بأسنا ، فلنعمل على إثارة الشعب ، ولنضع السلاح في يده ، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة ، من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها »[٢] . ولكن كانت كلماته لا معنىً لها بالنسبة لمن يتحدث إليهم ، وشكل وفد المفاوضات مع الملكين الكاثوليكيين ، وتنتهي هذه المفاوضات بتوقيع المعاهدة التالية ، التي ننقل نصوصها من كتاب التنصير القسري لمسلمي الأندلس ، للدكتور محمد عبده حتاملة :

المادة الأولى :

على ملك غرناطة والقادة والفقهاء والحجاب والعلماء والمفتين والوجهاء بمدينة غرناطة والبيازين وضواحيها أن يسلموا إلى صاحبي السمو ، أو من ينتدبانه للنيابة عنهما في مدة أقصاها ستون يوماً ،

(١) محمد عبد الله عنان (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين) ص ٢٤٠ .

(٢) محمد عبد الله عنان (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين) ص ٢٤١ .

اعتباراً من ٢٥ تشرين الثاني عام ١٤٩١ م معاقل الحمراء ، والبيازين ، وأبواب تلك المعاقل ، وأبراجها ، وأبواب المدينة المذكورة ، والبيازين ، وضواحيها ، وضمن هذه الشروط يأمر صاحبا السمو بأن لا يصعد أي نصراني السور القائم بين الحمراء والبيازين ، لئلا يكشف عورات المسلمين في بيوتهم ، وإن خالف أحد هذه الأوامر يعاقب عقوبة شديدة ، وضمن هذا الشرط سيقدم المسلمون الطاعة والإخلاص والولاء كأتباع مخلصين لصاحبي السمو .

وضماناً لسلامة تنفيذ هذه البنود ، يقدم أبو عبد الله الصغير ملك غرناطة إلى صاحبي السمو ، خمسمئة شخص من أبناء وبنات علية القوم ، في المدينة والبيازين وضواحيها ، وذلك قبيل تسليم الحمراء بيوم واحد ، مصطحبين معهم الحاجب يوسف بن قماشة ، ليكونوا جميعهم رهائن لدى صاحبي السمو ، لمدة عشرة أيام يتم خلالها ترميم المعاقل المذكورة ، شريطة أن يعامل الرهائن إلى حين انتهاء هذه الفترة معاملة حسنة ، وفي نهاية الأجل يرد الرهائن إلى ملك غرناطة ، ويراعي هذه الاتفاقية صاحبا السمو وابنهما ضون خوان وسلالتهم ، ويعتبر أبو عبد الله الصغير وسائر قادته ، وجميع سكان غرناطة والبيازين ، وضواحيها وقراها وأراضيها ، والقرى والأماكن التابعة للبشرات : رعايا طبيعيين ، ويبقون تحت رعايتهم ودفاعهم ، وتترك لهم جميع بيوتهم وأراضيهم ، وعقارهم وأملاكهم حالياً ودائماً دون أن يلحق بها أي ضرر أو حيف ، وأن لا يؤخذ أي شيء مما يخصهم ، بل بالعكس ، سيتم احترام الجميع ومساعدتهم ويلقون المعاملة الطيبة ، من قبل صاحبي السمو وشعبها كخدم وأتباع لهما[1] .

---

(١) صاحب عملية تسليم الحمراء مناظر تدمي القلوب ، كانت أمتعة أبي عبد الله ترتب وتحزم أثناء الليل استعداداً للرحيل في الصباح بينما كانت تتردد في جوانب الحمراء زفرات وأنين العائلة الملكية والفرسان المسلمين ، وما كاد صباح اليوم الثاني من يناير ١٤٩٢ م يطل حتى أطلقت ثلاث مدافع إيذاناً بتوجه فرسان المنتصرين المسيحيين إلى الحمراء يتقدمهم الكاردينال (مندوسا) مطران إسبانيا الأكبر ويلتقي به أبو عبد الله في باب الطباق وتبادلا التحية ، وقال أبو عبد الله : « هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة تسلم هذه القصور باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها لفضائلها ، وزلات المسلمين » ، ورغم عبارات المواساة من الكاردينال لأبي عبد الله إلا أنه أسرع إلى أعلى برج في الحمراء ورفع عليه صليباً فضياً وهو الذي كان يحمله الجيش الإسباني أثناء الحرب ، بينما كانت فرقة التراتيل مع موسيقاها ومجموعة من القساوسة تسرع لتحتل الجامع الأعظم وتنصب الصليب في المحراب وتعلق النواقيس في المئذنة وتشدوا بالتراتيل على نغمات الموسيقى ورنين الأجراس وهدير المدافع ، بينما كان العمال يسدون باب الطباق الذي خرج منه الملك المشرد ، وهذه آخر رغبة له أبداها للمنتصرين أن يسدوا الباب الذي خرج منه حتى لا يجتازه إنسان بعده ، ويتكرر المنظر المؤثر مرة أخرى فعندما التقى الملك أبو عبد الله مع الملك (فردناند) سلمه مفتاحي البابين الرئيسيين وقال له : « إنها مفتاحي هذه الجنة ، وهما الأثر الأخير لدولة المسلمين في إسبانيا ، وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا ، وهكذا قضى الله فكن في ظفرك رحيماً وعادلاً » وتسلم الملك المنتصر المفتاحين وقال : « لا تشك في وعودنا ولا تعوزنك الثقة خلال المحنة ، فسوف تعوض لك صداقتنا ما سلبه القدر منك » .
ماذكر بين القوسين مقتبس من كتاب نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبد الله عنان .

المادة الثانية :

في الوقت الذي يتسلم صاحبا السمو قصر الحمراء ، يأمران أتباعهما بالدخول من بابي العشار ونجدة ، ومن الحقل القائم خارج المدينة ، وعلى من يعين لاستلام الحمراء أن لا يدخل من وسط المدينة .

المادة الثالثة :

في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء والبيازين ، وشوارعهما وقلاعهما وأبوابها وغير ذلك ، يقوم صاحبا السمو بتسليم ابن الملك أبي عبد الله الصغير ، المحتجز في قلعة موكلين ، مع سائر الرهائن الموجودين معه وسائر الحشم والخدم الذين كانوا برفقته ، ولا يكرهون على التنصر أثناء احتجازهم .

المادة الرابعة :

يسمح صاحبا السمو وسلالتهما ، للملك أبي عبد الله الصغير وشعبه أن يعيشوا دائماً ضمن قانونهم (أي بممارسة الشعائر الإسلامية) ، دون المساس بسكناهم وجوامعهم وأبراجهم ، وسيأمران بالحفاظ على مواردهم ، وسيحاكمون بموجب قوانينهم وقضاتهم ، حسبما جرت عليه العادة ، وسيكونون موضع احترام من قبل النصارى ، كما تحترم عاداتهم وتقاليدهم إلى غير حين .

المادة الخامسة :

لن تصادر من المسلمين أسلحتهم أو خيولهم أو أي شيء آخر ، حاضراً وإلى الأبد ، باستثناء الذخيرة الحربية التي يجب تسليمها لصاحبي السمو .

المادة السادسة :

يسمح لمن يرغب في الجواز إلى العدوة أو أي مكان آخر ، من أهالي غرناطة والبيازين والبشرات والمناطق الأخرى ، التابعة لمملكة غرناطة ببيع ممتلكاتهم وأراضيهم لمن شاؤوا ، ولن يحاول صاحبا السمو وذريتها منعهم من ذلك أبداً ، وإذا مارغب صاحبا السمو بشرائها من أموالهما الخاصة ، فشأنهما في ذلك شأن سائر الناس ، ولكن الأولوية تكون لهما .

المادة السابعة :

الأشخاص الذين يرغبون في العبور إلى العدوة (أرض المغرب) تجهز عملية نقلهم ، في غضون ستين يوماً من تاريخه ، على متن عشر سفن كبيرة تتوزع على الموانئ القريبة منهم ، حسب رغبة

البحرين ليحملوا أحراراً وطوع إرادتهم ، إلى المكان الذي يرغبون النزول إليه فيما وراء البحر (أرض المغرب) ، خاصة الموانئ التي كانت ترسو بها تلك السفن .

أما الأشخاص الذين يرغبون في العبور في غضون الأعوام الثلاثة القادمة فتهيأ لهم السفن الخاصة من الموانئ القريبة لمكان إقامتهم ، شريطة أن يقدموا طلباتهم قبل موعد الرحيل بخمسين يوماً ، وينقلون برعاية تامة إلى الميناء الذي يرغبون بالنزول فيه ، ولا يترتب على من يريد العبور إلى العدوة خلال الأعوام الثلاثة هذه أجر أو نفقة ، أما الذين يرغبون في العبور بعد انتهاء الأعوام الثلاثة ، فعليهم دفع دوبلة واحدة فقط عن كل شخص ، أما الذين لا يتمكنون من بيع أملاكهم الموزعة في جميع أنحاء مملكة غرناطة قبل سفرهم ، فيحق لهم تفويض أي شخص من أجل تحصيل حقوقهم ، وليقوموا مقامهم ، ويتولوا بعد ذلك إرسال هذه الحقوق لأصحابها أينما كانوا وبدون أية عوائق .

المادة الثامنة :

لا يرغم صاحبا السمو وسلالتهما حاضراً وإلى الأبد المسلمين وأعقابهم على وضع أية شارة مميزة لملابسهم .

المادة التاسعة :

لا يحق لصاحبي السمو لمدة ثلاث سنوات من تاريخه تحصيل الأتاوات من الملك أبي عبد الله الصغير وسكان غرناطة والبيازين وأرباضها ، وهي الأتاوات التي يترتب أداؤها عن دورهم وأملاكهم الموروثة ، بل يكفي أن يدفع المسلمون لصاحبي السمو ، عشر الخبز والذرة ، وعشر المواشي خلال شهري أبريل ومايو .

المادة العاشرة :

على الملك أبي عبد الله وسائر سكان المملكة الذين شملتهم الاتفاقية أن يطلقوا سراح جميع الأسرى النصارى ، الذين في قبضتهم أو في أي مكان آخر طواعية ودون أية فدية ، وذلك حين تسليم المدينة .

المادة الحادية عشرة :

على صاحبي السمو : أن لا يستخدما أي رجل من أتباع أبي عبد الله أو سكان المملكة ، أو أن يسخرا دوابهم في أي غرض دون إرادتهم ، ودون أن تدفع لهم أجورهم .

المادة الثانية عشرة :

لا يسمح لأي نصراني بدخول المساجد ، أو أي مكان لعبادة المسلمين دون إذن من الفقهاء ، ومن يخالف ذلك يعاقبه صاحبا السمو .

المادة الثالثة عشرة :

لا يجوز لأي يهودي أن يتولى الجباية ، أو تحصيل الضرائب من المسلمين بشكل مباشر ، أو أن يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم .

المادة الرابعة عشرة :

يعامل صاحبا السمو الملك أبا عبد الله الصغير وسائر رعاياه الذين شملتهم هذه المعاهدة معاملة شريفة ، وتحترم عاداتهم وتقاليدهم ، وتمنح للقادة والفقهاء الحقوق ، وتبقى الحقوق التي كان يتمتع بها هؤلاء زمن أبي عبد الله الصغير على حالها ، ويعترف لهم بتلك الحقوق .

المادة الخامسة عشرة :

يجب أن يقضي في أية دعوى ، أو مشكلة تقع بين المسلمين القضاة وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية ، كما جرت عليه العادة .

المادة السادسة عشرة :

يصدر صاحبا السمو أوامرهما للمسلمين بعدم إيواء الضيوف من النصارى ، أو إخراج الثياب أو الدواجن أو الدواب ، ويشمل ذلك صاحبي السمو وجماعتهما ، إذ يمنع على هؤلاء النصارى دخول بيوت المسلمين ، واستعمال مضايفهم لإقامة الحفلات .

المادة السابعة عشرة :

إذا دخل نصراني منزل مسلم قسراً يطلب صاحبا السمو من العدالة إيقاع العقوبة عليه .

المادة الثامنة عشرة :

فيما يتعلق بقضايا التركات عند المسلمين يجب أن ينظر بها القضاة المسلمون ، وفق النظم الإسلامية المتبعة .

المادة التاسعة عشرة :

تشمل هذه المعاهدة قاطني الأحياء المجاورة لمدينة غرناطة ، وسكان القرى والأرجاء التابعة

للمدينة والبشرات وأماكن أخرى ، بما في ذلك الأشخاص الذين قد يقبلون المعاهدة بعد مرور ثلاثين يوماً من تسليم غرناطة ، ويتمتع هؤلاء بجميع الإعفاءات الممنوحة خلال السنوات الثلاث .

المادة العشرون :

يتولى الفقهاء إدارة إيراد الجوامع والحلقات الدراسية فيها ، وما يرصد من أجل الصدقة أو عمل الخير ، بما في ذلك إيرادات المدارس التي تنفق في تعليم الصبيان ، ولا يحق لصاحبي السمو التدخل بأي حال من الأحوال في شأن هذه الصدقات ، أو الأمر بمصادرتها في أي وقت في الحاضر ، أو فيما بعد .

المادة الحادية والعشرون :

لا يجوز لمن يتولى القضاء إصدار قرارات ضد أي مسلم بذنب اقترفه آخر ، فلا يؤخذ الأب بذنب ابنه ، ولا الولد بذنب والده ، ولا أخ بذنب أخيه ، ولا القريب بذنب قرابته ، بل تقع العقوبة على من يقترف الجرم .

المادة الثانية والعشرون :

يقرر صاحبا السمو العفو عن المسلمين من أتباع القائد حميد أبي علي الذين كانوا يذودون عن حصونهم ضد هجمات النصارى ، ولا يطلب أي تعويض عمّن قتل من النصارى أثناء اصطدامهم مع المدافعين من المسلمين ، أو عما أخذه المسلمون من المكاسب في ذلك المكان ، في الحاضر أو فيما بعد .

المادة الثالثة والعشرون :

يغفر صاحبا السمو لمسلمي مدينة الكابطي هجماتهم واعتداءاتهم التي كانت تستهدف حرس الملكين ، وتمنح لهم حرية العيش كبقية إخوانهم الذين شملتهم هذه المعاهدة .

المادة الرابعة والعشرون :

يعتبر صاحبا السمو جميع أسرى المسلمين أو الفارين من الأسر إلى مدينة غرناطة والبيازين وأرباضها ، أو إلى أي ناحية تابعة لمدينة غرناطة أحراراً ، ولا تصدر العدالة بحقهم أي حكم كان ، لكن هذا الامتياز خاص بمسلمي الأندلس ولا يشمل أسرى الجزر أو كناريس .

المادة الخامسة والعشرون :

لا يدفع المسلمون لصاحبي السمو أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم المسلمين من الأتاوات .

المادة السادسة والعشرون :

يسمح لجميع من عبروا العدوة (المغرب) من سكان غرناطة . والأرجاء التابعة لها ، والبيازين وأرباضها ، والبشرات وغيرها ، بالعودة خلال ثلاثة أعوام من تاريخ إبرام الاتفاقية والتمتع بالامتيازات التي تمنحها لهم هذه الاتفاقية .

المادة السابعة والعشرون :

لا يجبر أي مسلم حمل معه بعض الأسرى النصارى إلى العدوة ، وجعلهم في قبضة سلطة أخرى ، على إرجاع هولاء الأسرى ، أو إعادة الأجر الذي تقاضاه لقاء تسليمهم .

المادة الثامنة والعشرون :

يحق للملك أبي عبد الله ، أو أي من قواده ، أو سكان القرى والأرجاء المجاورة لغرناطة والبيازين ، والبشرات وغيرها ، ممن عبروا إلى العدوة (المغرب) ولم تطب لهم الإقامة هناك ، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة ، ولهم الحق بأن يتمتعوا بكافة نصوص الاتفاقية المبرمة .

المادة التاسعة والعشرون :

يحق لتجار مدينة غرناطة والبيازين وأرباضها ، والبشرات وغيرها أن يحملوا سلعهم إلى العدوة ، ويعودوا بها آمنين مطمئنين ، كما يحق لهم دخول سائر الأرجاء التي في حوزة الملكين الكاثوليكيين ، دون أن تترتب عليهم أية أتاوة مترتبة على النصارى .

المادة الثلاثون :

لا يجوز إرغام أية نصرانية تزوجت من أحد المسلمين واعتنقت الدين الإسلامي على العودة إلى النصرانية إلا طائعة ، وبعد أن تسأل في ذلك أمام جمع من المسلمين والنصارى ، وفيما يتعلق بأبناء الروميات ، وبناتهن فلهم نفس الحقوق المنصوص عليها في هذه الفقرة .

المادة الحادية والثلاثون :

إذا سبق لنصراني ذكراً كان أو أنثى اعتناق الإسلامية قبل إبرام هذه الاتفاقية فلا يحق لأحد من النصارى أن يهدده ، أو ينال منه بأية صورة ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً .

المادة الثانية والثلاثون :

لا يجوز إرغام مسلم أو مسلمة على اعتناق النصرانية .

المادة الثالثة والثلاثون :

إذا رغبت امرأة مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر في اعتناق النصرانية بدافع العشق فلا يستجاب لها ، حتى تسأل وتوعظ وفقاً للشريعة الإسلامية ، وإذا حملت معها خفية بعض الحلي أو غيرها من دار والدها ، أو أقاربها ، أو أي شخص آخر فيجب إعادة هذه الأشياء إلى ذويها ، وتعتبر اختلاساً ، وتتولى العدالة اتخاذ الإجراءات الصارمة بحقها .

المادة الرابعة والثلاثون :

أن لا يرغم صاحبا السمو أو أي واحد من عقبهما ، حاضراً أو مستقبلاً ، أبا عبد الله الصغير ، أو جماعته أو حاشيته ، أو أي أحد من سكان المملكة أو خارجها مسلمين ونصارى ومدجنين برد ما غنموه أثناء الوقائع التي جرت بينهم ، من الثياب والمواشي والأنعام والفضة والذهب وغيرها من الأشياء ، التي وضع المسلمون أيديهم عليها ، ولا يحق لأحد أن يطالب بشيء يكتشف أنه كان له ، وإذا طالب به فإنه يعرض نفسه لأقصى العقوبات .

المادة الخامسة الثلاثون :

إذا سبق لمسلم أن أهان أسيراً نصرانياً ـ ذكراً كان أو أنثى ـ أو جرحه أو قتله أثناء احتفاظه به ، فلا يسأل عن شيء مما كان .

المادة السادسة والثلاثون :

بعد انتهاء السنوات الثلاث المنصوص عليها في الاتفاقية تدفع ضريبة الأملاك والضياع الأميرية ، وفقاً لقيمتها الحقيقية . شأن سائر الأملاك والأراضي .

المادة السابعة والثلاثون :

تعامل أملاك الفرسان والقادة المسلمين المعاملة المنصوص عليها في البند السابق ، فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع عن الأملاك العادية .

المادة الثامنة والثلاثون :

وتشمل هذه الاتفاقية أيضاً اليهود من مواليد مدينة غرناطة والبيازين وأرباضها والأراضي التابعة لها ، واليهود الذين كانوا من قبل نصارى ، ويسمح لهؤلاء اليهود بالعبور إلى العدوة خلال شهر من تاريخه .

المادة التاسعة والثلاثون :

أن يعامل الحكام والقواد والقضاة الذين يعينهم صاحبا السمو على مدينة غرناطة والبيازين والكور التابعة لهما الناس بالحسنى ، وأن يحافظوا على امتيازاتهم الممنوحة لهم في المعاهدة ، وإذا أخل أحدهم بذلك ، أو ارتكب خطيئة يصدر صاحبا السمو أوامرهما بمعاقبته على قدر جرمه ، وعزله من منصبه وتولية غيره ، ممن يحسنون معاملة المسلمين كما نصت عليه الاتفاقية .

المادة الأربعون :

لا يحق لصاحبي السمو أو أي من أبنائهما وأحفادهما منذ الآن التعقب على شيء ارتكبه الملك أبو عبد الله الصغير ، أو أحد من رعاياه ، إلى حين تسليم الحمراء أي بعد مرور ستين يوماً من توقيع هذه الاتفاقية .

المادة الحادية والأربعون :

أن لا يولى على جماعة أبي عبد الله الصغير واحد من الفرسان أو القادة أو الخاصة الذين كانوا موالين لمولاي الزغل ملك وادي أش ، عم أبي عبد الله الصغير الذي كانت بينه وبين أبي عبد الله عداوة قديمة .

المادة الثانية والأربعون :

يتولى النظر في الخصومات التي قد تقع بين مسلم ونصراني ، أو مسلمة ونصرانية ، مجلس مؤلف من حكمين : أحدهما مسلم والآخر نصراني ، تحاشياً للتظلم من الأحكام القضائية .

المادة الثالثة والأربعون :

وبالإضافة إلى جميع ما نصت عليه الاتفاقية ، يأمر صاحبا السمو بمنح أبي عبد الله الصغير كل الامتيازات المنصوص عليها في الاتفاقيات الموثقة بخاتم الأمير (نجل صاحبي السمو) والموقعة من قبل : كردينال إسبانيا والكهان والأساقفة ورؤساء الأديرة والشرفاء والدوقات والمركيزات والكونتات وأصحاب المراتب الجليلة وكتاب العدلية في مدينة غرناطة ، اعتباراً من يوم تسليم الحمراء والبيازين وأبوابها وأبراجها ، وتعتبر جميع محتويات هذه الاتفاقية نافذة وسارية المفعول في الحاضر وفيما بعد .

المادة الرابعة والأربعون :

يصدر صاحبا السمو أوامرهما بالإفراج عن أسرى المسلمين ، ذكوراً وإناثاً ، من أهالي غرناطة

والبيازين وأرباضها والكور التابعة للمملكة ، إفراجاً غير مشروط بنفقة أو فدية أو غيرها ، وذلك بغية إرضاء الملك أبي عبد الله الصغير وأهالي غرناطة والبيازين وأرباضها وضياعها كافة ، ويتم الإفراج عن هؤلاء الأسرى على النحو التالي :

يفرج عن جميع أسرى مدينة غرناطة والبيازين وأرباضها وضياعها الموجودين في الأندلس ، خلال الأشهر الخمسة التي تعقب إبرام المعاهدة ، ويفرج عن الأسرى الموجودين في قشتالة ، خلال الأشهر الثمانية التالية ، وبعد انقضاء يومين من تسليم أسرى النصارى لصاحبي السمو ، يتسلم المسلمون مئتي أسير مسلم ، مئة من الرهائن ، والمئة الثانية من غير الرهائن .

المادة الخامسة والأربعون :

يصدر صاحبا السمو أوامرهما بإخلاء سبيل (ابن الدرامي) الأسير عند (غونثالو فرنانـدث) ، وعثمان أسير الكونت (تنديا) ، وابن رضوان أسير الكونت (قبرة) ، وإعادة ابن الفقيه محي الدين وخمسة أشخاص من خاصة إبراهيم بن السراج الذين فقدوا وعرف مكان وجودهم ، وذلك في الوقت الذي يسلم فيه صاحبا السمو أسرى مدينة الحمراء والبيازين المئة ، والرهائن المئة .

المادة السادسة والأربعون :

إذا خضعت أية ناحية من نواحي البشرات لسلطة صاحبي السمو فإنه يتأتى على المسلمين تسليم جميع الأسرى النصارى الموجودين لديهم ، في مدة أقصاها خمسة عشر يوماً من تاريخ الانضمام ، دون أن يؤدي سموهما أي شيء مقابل ذلك التسليم ، كما أنه يجب على هذه النواحي تسليم أية رهينة من النصارى لديهم خلال هذه المدة ، ويقوم صاحبا السمو في مقابل ذلك بإعادة جميع أسرى المسلمين المحتجزين لدى الإسبان .

المادة السابعة والأربعون :

يتعهد صاحبا السمو لجميع السفن التي تأتي من العدوة (المغرب) ، وترسو في موانئ مملكة غرناطة ، بحرية التنقل جيئة وإياباً ، وهي آمنة شريطة أن لا تقوم بنقل الأسرى من النصارى ، ويصدر صاحبا السمو أوامرهما للنصارى بعدم اعتراض هذه السفن أو الإضرار بها أو بأهلها أو بمصادرة شيء منها .

وفي حالة مخالفة إحدى السفن لهذه التعليمات بنقل الأسرى من النصارى ، فإن حقها في الحماية يصبح لاغياً ، ويحق لسموهما إرسال مفتش أو مفتشين يتوليان مهمة تفتيش السفن التي تعبر إلى العدوة ، للتحقق من نفاذ هذه التعليمات . (انتهت الاتفاقية)

إلا أن بعض المؤرخين يشيرون إلى أن الاجتماع الذي تم ، ماهو إلا إضفاء صفة الشرعية لما كان قد اتفق عليه بصفة سرية مع الملكين الكاثوليكيين وأبي عبد الله وقواده ، من تسليم غرناطة مقابل امتيازات مادية للأمير وحاشيته ، وقد اتضح أن هناك اتفاقية سرية تخص الأمير وامتيازاته ننقل نصوصها من كتاب (التنصير القسري للمسلمين) السابق ذكره[1] :

١ - يتعهد ملك غرناطة والقادة والقضاة والحجاب والعلماء والمفتون والشيوخ ، ووجهاء غرناطة والبيازين وأهاليها وأرباضها كافة صغاراً وكباراً بأن يسلموا إلى صاحبي السمو ، أو من ينتدبانه ، في جو من الوفاق والمسالمة وفي مدة أقصاها ستون يوماً . اعتباراً من ٢٥ نوفمبر عام ١٤٩١ م الأماكن التالية :

قلاع الحمراء وحصونها وأبوابها وأبراجها ، وأية أبواب أخرى في مدينة غرناطة وكورها ، وكذلك جميع الأبواب التي تحددها هذه المعاهدة ، وأن يعلنوا عن ولائهم وطاعتهم وإخلاصهم لصاحبي السمو ، وأن يؤدوا واجبهم تجاه ساداتهم الجدد ، شأن سائر رعايا البلاد المخلصين ، ولضمان تنفيذ سلامة هذه البنود ، يقدم ملك غرناطة وقادته وجميع الأشخاص المذكورين أعلاه خمسئة شخص من أبناء علية القوم وإخوانهم في المدينة والبيازين ، لصاحبي السمو في المعسكر الملكي بمرج غرناطة وذلك قبل تسليم الحمراء بيوم واحد ، مصطحبين معهم الحاجب يوسف بن قماشة ، ليكونوا جميعهم رهائن لدى صاحبي السمو لمدة عشرة أيام ، يتم خلالها ترميم القلاع وتزويدها بالمؤن ، شريطة أن يعامل الرهائن إلى حين انتهاء الفترة معاملة حسنة ، وعند انتهاء الأجل ، يرد الرهائن إلى ذويهم ، وتسري هذه الاتفاقية على صاحبي السمو وابنهما الأمير ضون خوان وعقبهم ، وأن يعامل أبو عبد الله الصغير وجماعته وجميع أشراف منطقة غرناطة والبيازين وأية أماكن أخرى كرعايا وأتباع لهم نفس الحقوق التي للرعايا الأصليين ، وأن تشملهم حماية صاحبي السمو ورعايتها ، وأن تترك لهم جميع منازلهم وأموالهم وأملاكهم ، ومن الآن وإلى أجل غير مسمى ، دون أن يلحقها أي أذى أو يصادر شيء منها ، وفي مقدمة ذلك كله يعامل الجميع باحترام وتقدير ، شأن سائر الرعية من الإسبان .

٢ - في اليوم[2] الذي يتم فيه تسليم الحمراء والحصون والقلاع والأبواب التي حددتها الاتفاقية ، يقوم صاحب السمو بإعادة ابن عبد الله الصغير المحجوز لديهما مع سائر الخدم والحشم ، الذين لم يكرهوا على التنصر أثناء احتجازهم إلى الملك أبي عبد الله الصغير .

---

(١) انظر ص ٤٦ - ٥٤ وواضح من قراءة المادة الأولى في المعاهدة السرية أنها تقريباً تكرار للمادة الأولى من المعاهدة المعلنة .

(٢) نص المادة (٢) في المعاهدة السرية هو نص المادة (٣) في المعاهدة المعلنة .

٣ ـ بعد أن ينفذ أبو عبد الله الصغير كل البنود المذكورة في المعاهدة . يتعهد صاحبا السمو بمنح أبي عبد الله الصغير وأولاده وأحفاده وورثته حق الملكية المطلقة على الأماكن التالية :

الأرجاء والكور في برجة	Las Tahas de Berja
دلاية	Daliao
مرشانة	Marchena
بلذوذ	Boloday
لوتشار	Luchar
اندرش	Andarax
شبيلش	Jubiles
أجيجر	Ugijar
أرجبة	Orgiba

على أن تؤدى جميع الضرائب والأتاوات والرسوم المستحقة إلى صاحبي السمو ، ويحق لأبي عبد الله الصغير وأولاده وأحفاده وورثته بحكم الملكية المطلقة لهذه المناطق وما يلحق بها من الأرجاء المسكونة ، وغير المسكونة ، تحصيل خراجها وموروثاتها وريعها وعشورها وحقوقها ، كما يحق لأي واحد من هؤلاء أن يتولى القضاء في هذه الأرجاء ، والكور المذكورة باعتباره سيدها ، ولكنه في الوقت نفسه تابع وخاضع لصاحبي السمو ، ولا يستطيع أي إنسان السيطرة على أي من هذه المناطق ، لأنها تعتبر من الناحية القانونية ملكاً شرعياً لأبي عبد الله الصغير ، وله حق التصرف بها ، وحرية بيعها أو رهنها متى شاء ، شريطة أن تكون الأولوية عند البيع أو الرهن لصاحبي السمو ، وإذا أرادا شراءها فيتفقان مع أبي عبد الله على الثمن الذي يرضى به .
ويستطيع صاحبا السمو الاحتفاظ بقلعة عذرة وأراضيها مع سائر القلاع والأبراج الممتدة على الساحل إذا رغبا بذلك ، وإذا شاء صاحبا السمو استغلال قلعة عذرة[١] بالإضافة إلى مياه شاطئ عذرة ـ إن أمكن ذلك ـ ، وتبقى القلعة تابعة لأبي عبد الله الصغير ، بعد أن يصلحها ويحصنها صاحبا السمو ، وفي مراحل الإصلاح والتحصين تكون تابعة لصاحبي السمو ، وبذلك لا يطالب صاحبا السمو بالفوائد المستحقة على القلاع والأبراج الممتدة على ساحل البحر ، أما حراستها

(١) قلعة عذرة يقصد بها لاشك (أدرة) وتكتب ADRA وهي الميناء التي رحل منها أبو عبد الله الصغير كما هو واضح في الخريطة .

وحمايتها فهي من شأن أبي عبد الله الصغير ، وأما دخل هذه القلاع والكور والأرجاء ، ووارداتها في مراحل الإصلاح والتقوية والاستغلال فليس لأبي عبد الله شيء منه ، باستثناء عائدات تأجيرها ، لكن هذه القلاع والأرجاء والكور تبقى ملكاً لأبي عبد الله ولا تصادر منه ، وإذا أنعم صاحبا السمو على شخص ما بشيء من هذه الممتلكات التي أقطعت لأبي عبد الله الصغير ، فلا يجوز له بيعها ، وإذا ما رأى التخلي عنها ، يقوم صاحبا السمو بتعويضه عنها بالطريقة التي ترضيه . أما إذا تركت هذه الأملاك للملك أبي عبد الله الصغير فيبقى ريعها ودخلها من حق أبي عبد الله ، كما هو شأنها الآن وفيما بعد ، دون أن يتهددها أي خطر أو حجز أو اعتراضات أخرى .

٤ - يقدم صاحبا السمو إلى الملك أبي عبد الله الصغير هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالي من الذهب ، تعادل (١٤) كوينتس و (٥٥٠٠٠٠) مرافيدي يبعثان بها إليه عقب تسليم الحمراء وبقية القلاع في الوقت المحدد لها .

٥ - يمنح صاحبا السمو للملك أبي عبد الله الصغير كل ما ورثه عن والده السلطان أبي الحسن ، سواء في غرناطة أو في البشرات ، لتكون ملكاً له ولأولاده وعقبه وورثته ، وتتضمن هذه الشركة معاصر للزيت وأراضي ومزارع وحدائق (حواكير) ، وله الحق في بيعها أو رهنها والتصرف بها كيفما يشاء ، كسائر الكور والأرجاء التي سلف ذكرها ، باستثناء الأملاك التي كانت بحوزة بني نصر ملوك غرناطة السابقين ، فإنها تبقى ملكاً للدولة ، ولا يجوز التصرف بها إلا بأمر صاحبي السمو .

٦ - يمنح صاحبا السمو لملكات غرناطة ، خاصة عائشة والدة أبي عبد الله الصغير ، وأخته وزوجته مريمة وثريا زوجة والده السلطان أبي الحسن علي المعروفة بإيسابيل دي سوليس ، كل ما كن يملكنه في غرناطة والبشرات ، من الحواكير والأراضي والأرجاء والطواحين والحمامات ، بحيث تكون ملكاً لهن ولعقبهن إلى الأبد ، ولهن الحق في بيعها ورهنها والتصرف بها كما يشأن ، مع ما يلحق ذلك من الامتيازات الممنوحة لأبي عبد الله الصغير .

٧ - تعفى جميع التركات التي ورثها أبو عبد الله الصغير ، والملكات المذكورات وثريا زوجة مولاي أبي الحسن علي بن نصر ، من الضرائب والفوائد اعتباراً من الآن وإلى الأبد .

٨ - يعطى للملك المذكور (أبو عبد الله الصغير) وللملكات المذكورات كل ما كان ملكاً لهم في مطريل ، وتعطى الحجة رميمة العقارات التي كانت لها في مطريل ، لتساوى بالامتيازات الممنوحة سابقاً .

٩ - إذا استسلمت لصاحبي السمو أية قرى أو مواقع تابعة للمملكة قبل تسليم الحمراء فعلى صاحبي السمو

إعادة جميع هذه المواقع للملك أبي عبد الله الصغير بشكل طوعي ، وسوف تحظى هذه الأماكن بعناية أبي عبد الله الحسنة .

١٠ ـ أن لا يطلب صاحبا السمو أو أي واحد من سلالتهما ملكَ غرناطة أو أياً من أتباعه ، في أي وقت يتبادل ماغنمه الطرفان ـ المسلمون والنصارى ـ ، من الأموال والعقارات ، باستثناء ماتنص عليه بعض الاتفاقيات ومعاهدات التسليم الخاصة المعقودة بين صاحبي السمو وملك غرناطة ، بحيث يدفع صاحبا السمو لمالك العقارات ثمناً لها فتنتقل ملكيتها إليهما ، ويحظر على أي إنسان ـ نصرانياً كان أو مسلماً ـ المطالبة بأحقيته بوضع يده عليها بقليل ولا بكثير ، ومن يخالف ذلك تتخذ بحقه أشد العقوبات الصارمة ، ويعتبر خارجاً عن القوانين الإسلامية والنصرانية على السواء .

١١ ـ عندما يرغب الملك أبو عبد الله الصغير والملكات المذكورات آنفاً وزوجة مولاي أبي الحسن علي والدة[1] أبي عبد الله الصغير ، وأولادهم وأحفادهم ، وقادتهم وأتباعهم ونساؤهم وفرسانهم ورماتهم وعيالهم ، في العبور إلى العدوة (المغرب) ، فسوف يجهز صاحبا السمو سفينتين كبيرتين من مدينة جنوة ، للجواز بهم في الوقت الذي يشاؤون ، وبحوزتهم أموالهم وثيابهم وذهبهم وفضتهم وجواهرهم ومواشيهم وأسلحتهم ماعدا ذخائر تلك الأسلحة ، دون مقابل من نفقة أو أجر أثناء صعودهم السفن أو نزولهم منها ، مع تأمين وصولهم بطمأنينه وأمان وحسن معاملة ، لأي مكان معروف سواء في المغرب أو الاسكندرية أو تونس أو أوران أو فاس ، أو أي مكان يرغبون بالهبوط فيه .

١٢ ـ إذا لم يتمكن الملك المذكور ، أو أي شخص من المذكورين أعلاه من بيع عقاراته المشار إليها ، فله الحق في تفويض من يشاء لاستلام ريعها وإرسالـه لـه أينا كان ، دونما عائق أو قيد أو غرامة .

١٣ يسمح للملك أبي عبد الله الصغير متى شاء ؛ أن يرسل بعض أتباعه أو عماله إلى أرض العدوة (المغرب) للاتجار بالسلع ، مصدرين ومستوردين ، دون أن يتوجب عليهم دفع أية نفقات أو ضرائب أو غرامات مالية مقابل هذا الاتجار ، لا في ذهابهم ومكوثهم هناك ولا في إيابهم .

١٤ ـ يسمح للملك أبي عبد الله أن يبعث بست دواب محملة بالسلع إلى أية ناحية من النواحي التابعة

(١) يلاحظ هنا أنه قد تم النص على والدة أبي عبد الله الصغير ويقصد بها الحرة عائشة السابقة الذكر ولم يتعرض النص لزوجة أبي الحسن (ثريا) أو كما تعرف حسب نص المادة (٦) في هذه المعاهدة (إيسابل دي سوليس) وهي الإسبانية التي فجرت المواقف ، ولا شك أن النص في المادة (٦) قد ضمن لها ممتلكاتها ، أما النص في المادة (١١) فواضح أنها لن تهاجر وتترك بلدها بل وولديها اللذان تنصرا فيما بعد .

لصاحبي السمو ، من أجل مقايضتها بالزاد والمؤونة اللازمة ، وتكون هذه الدواب معفاة من جميع الضرائب في الموانى والمدن والقرى ، والأماكن التي تجري فيها المقايضة إعفاءً مطلقاً دون قيد أو نفقة .

١٥ ـ عندما يخرج الملك أبو عبد الله الصغير من مدينة غرناطة تمنح له حرية الإقامة والمسكن ، في الوقت الذي يشاء وفي الأراضي التي اقتطعت له حسب الاتفاقية ، ويسمح له بالخروج مع من يشاء من حشمه وقادته وعلمائه وقضاته وفرسانه ، وكل من يرغب بالخروج معه بخيولهم ودوابهم وأسلحتهم ، وبرفقة زوجاتهم وعبيدهم ، ولا يؤخذ منهم سوى الذخائر التي سوف يضع صاحبا السمو عليهما أيديهما ، ولن يفرض على أي من ذريتهم في أي وقت وضع علامة مميزة لهم في ثيابهم ، ولهم أن يتمتعوا بسائر الامتيازات المتفق عليها في وثيقة تسليم مدينة غرناطة (انتهت المعاهدة غير المعلنة) .

هناك معاهدة ثالثة وكما يبدو أنها الأخيرة وقد رتبت هذه المعاهدة كيفية عبور أبي عبد الله الموجود صورة منها في المتحف الحربي في مدريد إلى المغرب ، بعد تنازله عن كل ممتلكاته مقابل مبالغ مالية كان ذلك في إبريل ١٤٩٣ وقد أوردنا إقرار أبي عبد الله الصغير وصورة من التنازل بخط يده .

هذه هي قصة أبي عبد الله الصغير ، فيا هل ترى ، هل يتحمل وحده مسؤولية هذه النهاية ؟ أم أنها مخلفات قرون من الخلافات والتمزق والتناحر والانحلال ، ولكن القدر اختاره ليسجل النهاية المأساوية ، كما اختار القدر طارق ليسجل البداية المفرحة .

كنا قد ذكرنا ماقاله المؤرخ محمد عبد الله عنان حول أبي عبد الله ، ولكنه بعد سرده قصة أبي عبد الله ووقوفه ضد الإسبان ، وجد فيه شخصية جديدة ، « وهنا يبدو لنا أبو عبد الله شخصية أخرى تنزع عنها صفات الخور والاستسلام ، والخضوع الذي يدنو إلى الخيانة ، لتتشح بثوب من العزة والكرامة والحمية الدينية والوطنية »[١] ، ولكن حتى ولو كانت المخلفات ثقيلة ، فإن أبا عبد الله لا شك يتحمل مسؤولية كبيرة ، فقد أتاح لأعداء الأمة الإسلامية تحقيق غايتهم ، بدخوله في صراع مع والده وعمه على الحكم ، وهو نفسه يعترف بخطيئته في قصيدة كبيرة ، ورسالة وجهها إلى سلطان فاس الشيخ الوطاس حين عبر البحر ووصل إلى فاس لاجئاً ، حاملاً معه ثمن[٢] الإقطاعيات التي كان قد اتفق مع

---

(١) محمد عبد الله عنان (نهاية الأندلس) ص ٢٣٢ .

(٢) كان هذا الثمن « قدره واحد وعشرون ألف جنيه قشتالي (كاستليانو) من الذهب الحر أو الدوقات المضروبة ، من الذهب الخالص كما يتنازل أبو عبد الله عن اختصاصه المدني والجنائي » هذا النص مأخوذ من محمد عبد الله عنان (نهاية الأندلس ص ٢٧٧) .

الملكين الكاثوليكيين على إبقائها له ، نعم لقد كتب على لسانه قصيدة ورسالة كلها استعطاف وندم ، وإسناد ما حل بالأندلس إلى الدهر والأقدار ، ونقتطف بعض أبيات من هذه القصيدة وبعض العبارات من الرسالة .

والقصيدة من إنشاء أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي ، وكتب لها عنواناً أسماها (الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس)[1] :

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن   جار الزمان عليه جور منتقم
هي الليالي وقاك الله صولتها   تصول حتى على الآساد في الأجم
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول   نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صبب   يرمي بأفجع حتف من بهن رمي

ثم يسترسل مخاطباً سلطان فاس مدافعاً عن نفسه :

لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم   نذنب ولو كثرت أقوال ذي الوخم
فما أطقنا دفاعاً للقضا ولا   أرادت أنفسنا ما حل من نقم
ولا ركوباً بإزعاج لسابحه   في زاخر بأكف الموج ملتطم
ولا تعاتب على أشياء قد قدرت   وخط مسطورها في اللوح والقلم

ولكي ينفي عن نفسه الجبن والخور :

فكم مواقف صدق في الجهاد لنا   والخيل عالقة الأشداق للُجُم
والسيف يخضب بالمحمر من علق   ما ابيض من سبل واسود من علم
تالله ما أضمرت غشاً ضمائرنا   ولا طوت صحة منها على سقم
لكن طلبنا من الأمر الذي طلبت   ولاتنا قبلنا في الأعصر الدهم
فخاننا عنده الجد الخؤون ومن   تقعد به نكبات الدهر لم يقم
فاسود ما اخضر من عيش دهته عدا   بالأسمر اللدن أو بالأبيض الخذم

ويحاول أن يجد له مكاناً بجوار سلطان فاس :

وعَدّ عما مضى إذ لا ارتجاع له   وعد أحرارنا في جملة الخدم
ايه حنانيك يا ابن الأكرمين على   ضيف ألم بفاس غير محتشم

---

(١) للوقوف على القصيدة كاملة ونص الرسالة انظر المقري نفح الطيب ٤/٩٩ .

فـأنت أنت . ولـولا أنت مـا نهضت ... بنـا إليهـا خطـا الـوخّـادة الرُسُم
رحمـاك يـا راحمـاً ينمى إلى رحمـاً ... في النفس والأهـل والأتبـاع والحشم

والقصيدة كلها استعطاف ، تبلغ عدد أبياتها حوالي مئة وعشرين بيتاً ، أمـا الرسـالـة التي كتبت على لسانه ، فهي صريحة في الاعتراف في بداية الرسالة ، والندم على ما اقترفه ، ولكنه حـاول أيضـاً في الرسالة الدفاع عن نفسه ، وكما يبدو أن النقمـة عليـه والتشنيع بعملتـه تلـك ، كانت قـد عمت المغرب العربي ، لاسيما مع وصول أفواج[1] المبعدين ، وتنـاول الألسن الاتفـاق السري الـذي عقـده مع الملكين الكاثوليكين الذي ضمن له بعض المزايا ، فقد كان في رسالته وفي القصيدة يدافع عن نفسه دفـاعـاً مراً ، ونقتطف بعضاً من الرسالة :

هذا مقام العائذ بمقامكم ، المتعلق بأسباب زمـامكم ، المترجى لعواطف قلوبكم ، وعوارق إنعـامكم ، المقبِّل الأرضَ تحت أقدامكم ، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم ، ومـا الـذي يقول مَنْ وَجْهَـه خَجِل ، وفؤاده وجل ، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل ، بيد أني أقول لكم مـا أقولـه لربي ، واجترائي عليـه أكثر واحترامي إليـه أكبر ، اللهم لا بريء فـاعتـذر ، ولا قوي فـانتصر ، لكني مستقيـل مستنيل مستعتب مستغفر ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسّوءِ ﴾[2] .

هذا على طريق التنزل والإنصاف ، بما تقتضيه الحال ، ممن يتحيز إلى حيز الإنصـاف ، وأمـا على جهة التحقيق ، فأقول ما قالته الأم ابنة الصديق « والله إني لأعلم أني إن أقررت بما يقوله الناس ، والله يعلم أني منه بريئة لأقول مالم يكن ، ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوني ، فأقول ما قالـه أبو يوسف : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ الْمُسْتَعانُ عَلَى مَاتَصِفُونَ ﴾[3] على أني لا أنكر عيوبي ، فأنـا معـدن العيوب ، ولا

---

(١) كانت هذه الأفواج التي نزحت من الأندلس عقب هـذه المأسـاة تتعرض لمأسـاة أخرى على الشواطئ الأفريقيـة ، فقد تعرضوا للنهب والسلب لممتلكاتهم ، التي استطاعوا الهرب بها من ديـارهم المسلوبـة في الأنـدلس ، ويـذكر المقري في نفح الطيب « أن الذين وصلوا إلى الشواطئ التونسية قد سلم معظمهم ، ولذا عمروا قراها وبلادها الخالية كما أن هؤلاء أيضـاً قد استخدموا فيما بعد للإغارة على الشواطئ الإسبـانيـة بحكم معرفتهم بهـا ، ولم يقتصر نزوحهم إلى الشواطئ القريبـة بل وصل بعضهم إلى الاسكندرية والقسطنطينية والشام » . أما محمد عبد الله عنان فيـذكر في نهـايـة الأنـدلس (ص ٤٠١ ـ ٤٠٢) « أن من نزل من المورسكيين في وهران قـد اعتـدي عليهم ونهبـوا وهلكـوا من المرض ، ومن ثم فـإن الكثير منهم عادوا إلى إسبانيا ، والتمسوا إلى السلطات أن يبقوا نصارى ، وأن يكونوا عبيـداً وقـد لقي هؤلاء بعض الأسر التي قبلت استرقاقهم » .

(٢) سورة يوسف : الآية ٥٣ .

(٣) سورة يوسف : الآية ١٨ .

أجحد ذنوبي ، فأنا جبل الذنوب ، إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري ، وسقطاتي وغلطاتي ، نعم كل شيء ولا ما يقوله المتقول المُشَنِّعُ المُهَوِّل ، الناطق بفم الشيطان المُسَوِّل ومن أمثالهم (سُبَّني واصدق ، ولا تَفْتَرِ ولا تخلق) .

ماسبق كانت مشاهد وعبر من التاريخ لاشك كان مسرحها الأرض التي نسير عليها ، لقد كان القطار يتلوى مسرعاً الخطى نحو غرناطة آخر معاقل المسلمين ، كانت الرحلة أغلبها ليلاً ، كان القطار يقف في بعض المحطات لنزول أو ركوب بعض الركاب ، وصلنا إلى المحطة التي يجب أن ننزل من قطار لآخر ، كان علينا أن نعبر خلال ثوانٍ معدودة ، وإلا فات القطار المتجه إلى غرناطة ، كانت لحظات مرهقة ، فلا بد من حمل الحقيبة التي بدأ يزداد وزنها ، ولا بد من قطع عدة أرصفة للقطارات ، ولا بد أن أكون متأكداً أن القطار هو نفسه المتجه إلى غرناطة ، ولا بد من أن أتأكد من الحافلة والدرجة المحجوز المقعد فيها ، كل ذلك خلال ثواني معدودة ، وسلم الله ، كان القطار قد بدأ حركته ببطء ، وكان لابد من القفز إليه ، والتعلق بيد في أحد أبوابه ، وحمل حقيبة العفش باليد الأخرى ، كان البرد قارساً ، ولكنني كنت أتصبب عرقاً من كثرة الجهد .

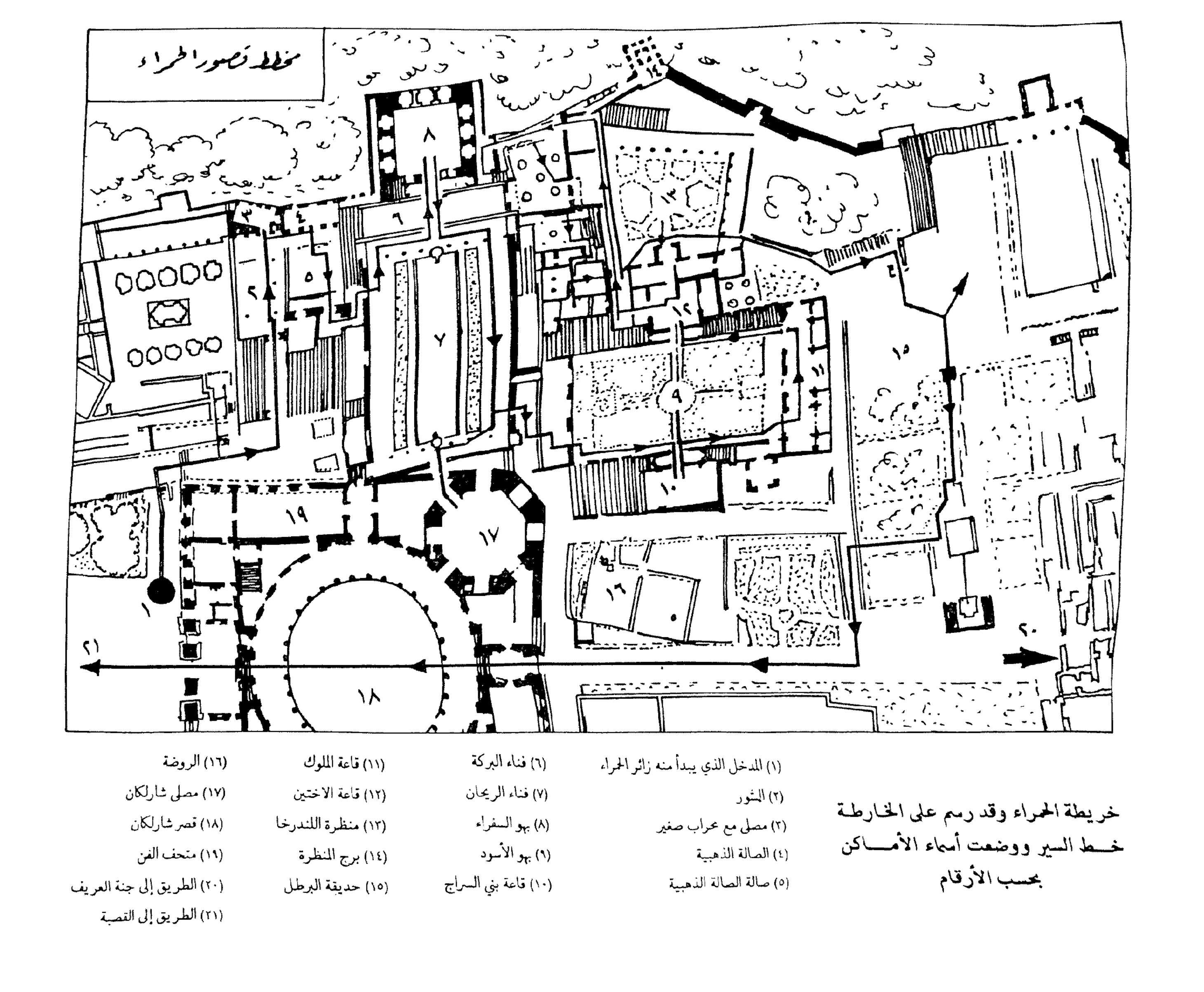
ويمضي القطار في ليل دامس ، كنا بعض الأحيان نجتاز بعض المدن الصغيرة المضاءة بالكهرباء ، وبعض الأحيان كنا نقف طويلاً في مناطق أسماؤها عربية ، فقد وقفنا في مدينة لوشة (LOJA) ولهذه المدينة دور كبير في التاريخ الإسلامي في الأندلس ، وفيها ولد لسان الدين الخطيب المؤرخ والأديب المشهور .

وأخيراً وصلنا إلى محطة غرناطة مرددين مع نزيلها شيخنا أبي بكر ابن محمد بن شبرين :

رعى الله من غرناطةَ متبوأ … يسرّ حزيناً أو يُجير طَريدا
تبرَّم منها صاحبي عندما رَأى … مسارِحَها بالثلج عُدن جَليدا
هي الثَغرُ صان اللهُ من أهلتْ بِه … وما خيرُ ثغرٍ لا يكون بَرُودا

هل تريد غرفة ... لدي غرفة ... إنها رخيصة ... ما كدنا نخرج من بوابة المحطة ، حتى قابلنا أصحاب الشقق والغرف المعروضة ، أحدهم عرض غرفة بجوار الحمراء بأربعمئة بستة ، مع الحمام الدافئ ، والآخر غرفة في شقة مفروشة جوار المحطة ، بثلاثمئة بستة ، أخذت سيارة الأجرة إلى فندق لابرلا (Hotel la Perla) .

إنه في قلب البلد ، وفندق سياحي لاتتعدى تكلفة الليلة الواحدة فيه اثني عشر دولاراً أمريكياً ، كنت مجهداً في تلك الليلة ، ذهبت للنوم ، بعد أن تأكدت من موعد الرحلة السياحية في اليوم الثاني ، بل ودفعت تكلفتها .



خريطة الحمراء وقد رسم على الخارطة خط السير ووضعت أسماء الأماكن بحسب الأرقام

(١) المدخل الذي يبدأ منه زائر الحمراء
(٢) المشور
(٣) مصلى مع محراب صغير
(٤) الصالة الذهبية
(٥) صالة الصالة الذهبية
(٦) فناء البركة
(٧) فناء الريحان
(٨) بهو السفراء
(٩) بهو الأسود
(١٠) قاعة بني السراج
(١١) قاعة الملوك
(١٢) قاعة الاختين
(١٣) منظرة اللندرخا
(١٤) برج المنظرة
(١٥) حديقة البرطل
(١٦) الروضة
(١٧) مصلى شارلكان
(١٨) قصر شارلكان
(١٩) متحف الفن
(٢٠) الطريق إلى جنة العريف
(٢١) الطريق إلى القصبة



(٦٥) الحمراء وخلفها جبال سييرا نفادا

صباح اليوم الثاني في غرناطة :

رعى الله بالحمراء عيشاً قطعته ذهبت به للأنس والليل قد ذهب
ترى الأرض منها فضة فإذا اكتست بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب

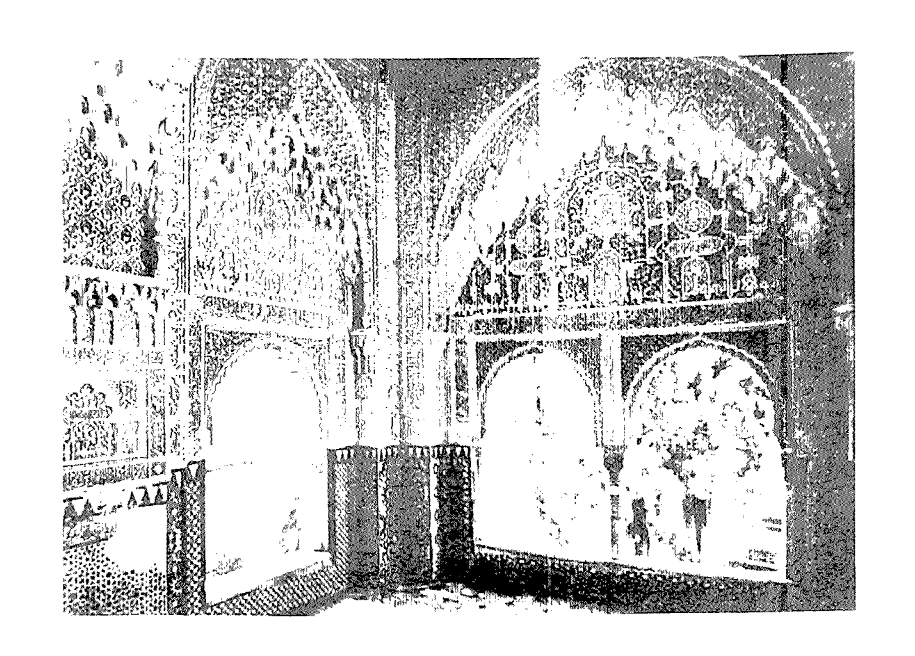
(ابن مالك الرعيني)

رغم الحقد الديني ومحاولة الإسبان طمس معظم المعالم الإسلامية ، إلا أن هذا التعصب لم يمنعهم اعتبار بعض المناطق العربية ، جواهرَ وتراثاً ينبغي الحفاظ عليه ، فالحمراء والإبداع الفني فيها ، وتأثيرها في المشاهد تأثير السحر ، حتى درجة التبلد ، إن الأثر النفسي الذي تتركه ، تجعل حتى أكثر الناس حقداً وتعصباً ، لا يملك إلا أن يلقي بفأسه الذي كان قد أعده للهدم والتخريب ، ويجثو على ركبتيه احتراماً وإجلالاً لما يشاهد ، ويكاد دون شعور أن يلثم كل نقش أو حرف جلالة يراه .

إن سحر الحمراء ، قد جعل بعض زوارها من الغربيين ، يعكفون عندها أشهراً بل سنوات ، ليستوحوا من مناظرها قصصاً وحكايات ، فواشنطن أرفنج[1] كتب كتابه الشهير (حكايات من الحمراء) (Tales Of The Alhambra) وكاتب آخر[2] كتب قصة أسماها (آخر بني السراج) ، وآخرَ

(١) Washington Irving .

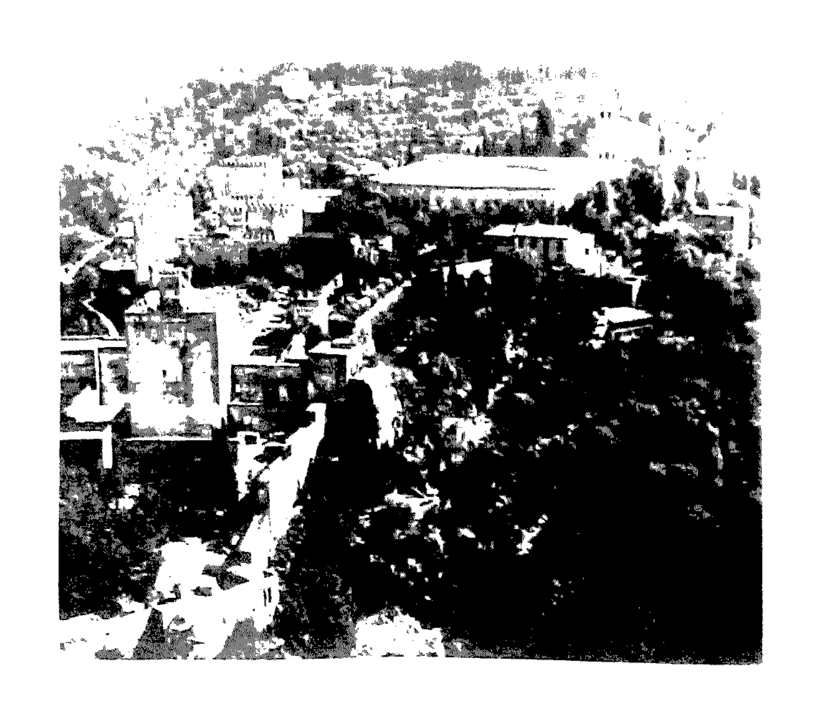
(٢) لقد جذبت قصور الحمراء عشرات بل مئات الكتاب من كل جنس فكتبوا بلغاتهم عن الحمراء وساكنيها ، كتبوا عن هندسة البناء فيها ، عن النقوش ، عن الأبهاء ، عن موقعها .. إلخ .



(٦٦) منظر رائع لاحدى قاعات الحمراء (اللندرخا)

كتب كتاباً أسماه (الله أكبر) وعشرات الكتاب شد انتباههم نقوش وفن العمارة في الحمراء ، فألّفوا الكتب وكتبوا الأبحاث المتعددة ، بل إنك تدخل مكتبة صغيرة في الحدائق المجاورة تجد أن كل محتوياتها هي عن قصر الحمراء ، وإذا ماانتقل الإنسان إلى خارج المباني ، وتنقل في مدرجات جنة العريف يجد أنه قد انتقل إلى جنة ، بكل ما في الكلمة من معنىً أشجار وارفة الظلال ، تم التحكم في أشكالها ، أحواض مياه منسقة تنسيقاً بديعاً متقناً ، تنبع منها نوافير المياه بأشكال رائعة ، تسبح في هذه الأحواض أسماك ملونة جميلة ، تسمع خرير المياه ، أنَّى ذهبت وحيث حللت ، إذ ما خانتك قدماك ، ستجد أماكن الاستراحة التي بناها بنو نصر ، بنقوش بديعة ورائعة ، ولن تقف عينك لحظة إلا وأنت تنتقل من منظر إلى آخر ، وإذا ماسرحت بنظرك إلى الأفق البعيد ، فإنك تشاهد أبهاء المدينة ومروجها ، حتى يصل نظرك إلى قمم جبال (سييرانفادا) المغطى بالثلوج البيضاء الناصعة ، أو تسرع بنظرك إلى مالا نهاية ، عبر مروج خضراء ، تمتد هذه المروج حتى مياه البحر الأبيض المتوسط .

هذا هو الانطباع الذي خرجت به من أول زيارة لي مع المجموعة السياحية ، التي كانت تضم خليطاً من الأجناس ، أمريكيين وأوربيين في الغالب ، كان التجول بالنسبة لهم متعة ، وتسمع الصراخ ، وخاصة من النساء ، يصرخ بعضهن من فرط الإعجاب مما يشاهدنه ، الأضواء تلمع في كل اتجاه ، لمن يرغبون في أخذ صور تذكارية ، كان المرشد بعض الأحيان ، وهو يحاول استعراض



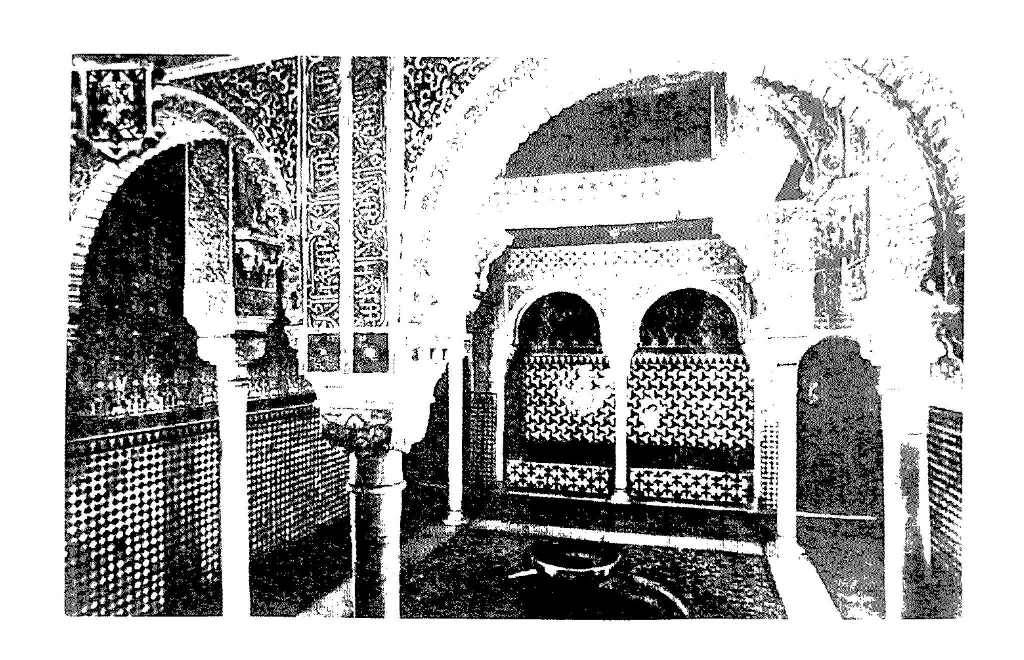
(٦٧) الحمراء وأبراجها ويبدو المبنى الذي بناه شارلكان وعلى بعد جنة العريف

معرفته ، يشرح حال ساكني هذه القصور والترف الذين كانوا يعيشون فيه ، كان يقول إننا الآن متجهون نحو غرف الحريم ، ولكن مع الأسف ليس هناك حريم الآن ، وتسمع غمزات وضحكات المجموعة ، بل وتسمع التعليقات المختلفة ، كان السير مع المجموعة السياحية بالنسبة لي كنوع من العذاب، كنت في الزيارة الأولى كالتائه ، فقد كنت أحاول أن أقرأ هذه الآية أو ذلك البيت ، حاولت أن أكتب ماأقرأ ، ولكن كانت المجموعة السياحية تتحرك بسرعة .

وعلى العموم ، فقد كانت الزيارة هذه مجرد وسيلة بالنسبة لي للتعرف على مداخل ومخارج الحمراء ، فسأعود إليها اليوم التالي ، لأمضي معظم وقتي ، سأعود منفرداً لأقرأ وأكتب ماأستطيع ، من آيات قرآنية أو أبيات شعرية ، وقد أمضينا مع المجموعة معظم الوقت في قصور الحمراء وأبهائها وحدائقها ، وانتقلنا في النهاية إلى محل تعدّ الأبسطة أو اللحف التي تحاك بالطريقة التي كانت الفتيات العربيات يحكن بها ، هذه الأبسطة ، ويحتوي المحل على الكثير من الهدايا والتحف التذكارية عن غرناطة .

اليوم الثاني في قصر الحمراء :

الهمبرا ، الهمبرا ، هكذا يمكنك إيقاف (التكس) وتطلب منه أن يوصلك إلى الهمبرا أي الحمراء ، وما تكاد تصل إلى مشارفها ، حتى تبدأ السيارة في التسلق طريقاً مرصوفاً تحف به الأشجار



(٦٨) نقوش الحمراء واضحة ولا غالب إلا الله وهذا منظر لإحدى غرف الحمام كما تبدو الشرفة من أعلى

الباسقة الممتدة نحو السماء ، وتوصلك الحافلة إلى موقف معين ، ليجيء دورك أنت ، كي تواصل المسيرة في طريق مرصوف يمرّ في حافتيه جداول الماء ، ومع انحدار الماء تسمع للماء صوتاً يدغدغ قلبك ، وكأنه الحادي يساعدك على الصعود ، وتقودك قدماك حتى تصل إلى مكتب تباع فيه التذاكر ، وفي التذكرة التي تحوي مجموعة من التذاكر ، تؤخذ منك في مواقع مختلفة ، رسم لك خط السير[1] ، من أين تبدأ ، وإلى أين تنتهي ، ونقطة البداية هي نقطة النهاية ، وعند مشاهدتك لقلعة الحمراء من الخارج ، تجد أنك أمام مجموعة من النواب المتراصة ، ذات اللون الأحمر ، يوحي مظهرها الخارجي أنها عادية لاتستحق حتى الزيارة ، فما بالك بالعيش فيها ، وتذكرت ماقاله لنا المرشد ، انظروا فإن الملوك العرب ، قد حاولوا أن يكون مظهرها الخارجي بهذا الشكل ، حتى يصرفوا عنها أنظار الفقراء من عامة الشعب . وما تكاد قدمك تدلف من البوابة حتى تأخذك الدهشة ، لقد أصبحت في قاعات فسيحة لاتملك نفسك إلا وأنت تردد ماتقرأ على الجدران ، ولا غالب إلا الله ، ولا غالب إلا الله ، ولا غالب إلا الله ، وتصبح أكثر إيماناً بالله ، إنه هو الغالب والقاهر ، فقد بنى ساكنو هذه القصور بيوتاً كأنهم سيعيشون الدهر كله فيها ، ولكنهم رصعوا جدرانها بنقوش توحي للمرء بأن هناك قوة قاهرة بيدها العزة والذلة ، ويصبح الشعار المرصع على جدران الحمراء هو الشاهد الذي يمكن أن يردده الزائر ، حتى ولو لم يكن مكتوباً على الجدران ، فعندما يشاهد المرء تلك الآثار ، ويتذكر

---

(١) انظر الخارطة المرفقة .

أن هنا كانت مملكة ، وكانت دولة ، ولكنها أصبحت أثراً بعد عين ، لا يملك إلا أن يقول : لا غالب إلا الله ، من يدريك فإن واضعي الشعار كانوا يستشعرون أنهم يوماً ما زائلون ، وتبدأ في التنقل من قاعة لأخرى ، ومن رواق إلى رواق ، فهذه قاعة المشور[1] ، وهذه باحة البركة[2] ، وهذه قاعة الأختين[3] ، وتلك قاعة الملوك[4] ، وهذه ساحة السباع[5] ، وهنا دار عائشة[6] ، وتلك قاعة بني السراج[7] ، وهذا هو الحمام الساخن ، وهذا هو المسجد ، ولكل قاع أو رواق قصة وحكاية ، وما النصر إلا من عند الله ، ولا غالب إلا الله ، النصر والتمكين ، والفتح المبين لمولانا أبي الحجاج أمير المسلمين ، العزة لمولانا السلطان أبي الحجاج نصره الله ، العزة لمولانا السلطان أبي الحجاج ، أيده الله ، لقد كان حكام بني نصر غالباً يستخدمون الكنية ، وكان عدد من تولى الحكم منهم ثمانية وعشرون حاكماً ، وكثير منهم كني بأبي الحجاج ، ولعل النقوش المرصعة في بعض الجدران كان يقصد بها أبا الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل الذي تولى الحكم حوالي اثنين وعشرين عاماً ، وفي عهده بنيت معظم قاعات الحمراء وأبهائها ، وهناك قاعات كان يشار فيها إلى أبي عبد الله ، ومن تولى وكني بأبي عبد الله كثيرون ، ولعل أشهرهم أبو عبد الله محمد الغالب بن يوسف بن نصر الذي دام حكمه حوالي أربعين عاماً ، ثم أبو عبد الله محمد الثاني الذي دام حكمه حوالي ثلاثين عاماً وكان آخرهم أبو عبد الله الذي سبق ذكره ، ويلقب بالصغير الذي سلم مفاتيح الحمراء .

نعم تلك هي النقوش التي تغلب في قصر الحمراء ، ولكن الشعر أيضاً كان له دور كبير في تزيين جدران الحمراء ، وكان لشاعر الحمراء ابن زمرك القدح المعلى في تزيين الحمراء بأشعاره ، ففي فناء الريحان تجد الأبيات التالية :

---

(١) ورد ذكر المشور في قصيدة لابن زمرك مطلعها :

زار الخيالُ بأيمَن الزوراء — فجلا سناهُ غياهبَ الظّلماء

حتى قال :

واهنأ بمبناك السعيد فإنهُ — كهفٌ ليوم مشورةٍ وعطاء

لله منه هالةٌ قد أصبحت — حرم العُفاة ومصرعَ الأعداء

لله منه قبةٌ مرفوعةٌ — دون السماء تفوت لحظ الرائي

(٢) Patio de Los Arrayanes

(٣) Salon de los dos Hermanas

(٤) Sala de los Reyes

(٥) Patio de Los leones

(٦) Mirador de Lindaraja

(٧) Sala los Abencerrajes

تبـــارك من ولاك أمر عبـــاده — فــأوفى بــك الإســلام فضـلاً وأنعما
وكم بلـــدة للكفر (×) أهلهـــا — وأمسيت في أعمـــارهم متحكمـــا

قصيـدة كبيرة لم أتمكن من قراءة بعض الكلمـات كما هو واضح في مكان علامـة (×) ، ولكن عنـد الرجوع إلى بعض المصادر وجدنا أنها (صبحت) ، ولعل الأغلاط قد نتجت عن الترميم الـذي قـام بـه الإسبان ، وفي مواقع كثيرة من الحمراء ، تجد قصيدته التي قـالهـا في الأمير أبي عبـد الله ، والـذي وصف فيها عظمة ملكه ، ومطلعها :

سـل الأفـق الـزهر الكـواكب حـاليـا — فـإني قـد أودعتـه شرح حـــاليـــا

وفي قاعة الأختين الأبيات التالية :

تبيت لـــه خنس الثريـــا معيـــذه — ويصبـــح معتـــل النسيم رواقيـــا
فبين يـدي مـولايـا قـامت لخـدمـه — ومن خـــدم الأعلى استفـــاد المعـاليـا
وكم من قسي في ذراه ترفعت — على عمـــد بـالنـور بـاتت حـــواليـا
بـــه المرمر المجلـو قـــد شف نـوره — فيجلـــو من الظلمــاء مـــا كان داجيـا

والقصيدة التي تبلغ عدد أبياتها مـا يقـارب المئـة والخمسين بيتـاً ، قـد رصع معظمهـا في الأمـاكن المناسبة لها ، إلا أن الترميات التي تمت من قبل الإسبان قد شوهت بعض الكلمـات وحرفتهـا ، ويمكن للمرء أن يعود إلى القصيدة في نفح الطيب[١] ، ويذكر لنا الغزال[٢] في رحلته التي قام بهـا إلى إسبـانيـا ما بين ١٧٦٦ ـ ١٧٦٧ م بعض الأبيات من هذه القصيدة ، وجدها في أحد الأبهاء ، وهـذه الأبيـات على النحو التالي :

أنا الروض قد أصبحت بالحسن كاسيـا — تـأمـل جمـالي تستفـد شرح حـاليـا[٣]
فـــالله مبنـــاه الجميـل فـــإنـــه — يفـوق على حكم السعـود المبـــانيـــا
بــــه القبـــة الغراء عـــز نظيرهــــا — ترى الحسن فيهـا مكتسيـاً وعـاريـا[٣]
تمـــد لـــه الجـــوزاء كف مصـــافـح — ويـــدنـــو لهـــا بـــدر السماء منـــاجيـــا
ولـــو مثلت في ســـاحتيهـــا لســـابقت — إلى ضرمـه ترضيـــه منهـــا الجـواريـــا

---

(١) انظر ١٨٨/٧ ـ ١٩٥ .
(٢) الغزال ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .
(٣) الأبيات هذه غير واردة في نفح الطيب .

ولا عجب إن فاتت الشهب في العلى | وإن جاوزت فيها المدى المتناهيا
بها البهو قد حاز البهاء وقد غدا | بها القصر قد فاق المباني مباهيا
(وكم حلية جللتها بحليها) | « فضل عمود الصبح إن لاح باديا »[1]
سواري قد جاءت بكل غريبة | فصارت بها الأمثال تجري سواريا
إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها | على عظم الأجرام فيها لآليا



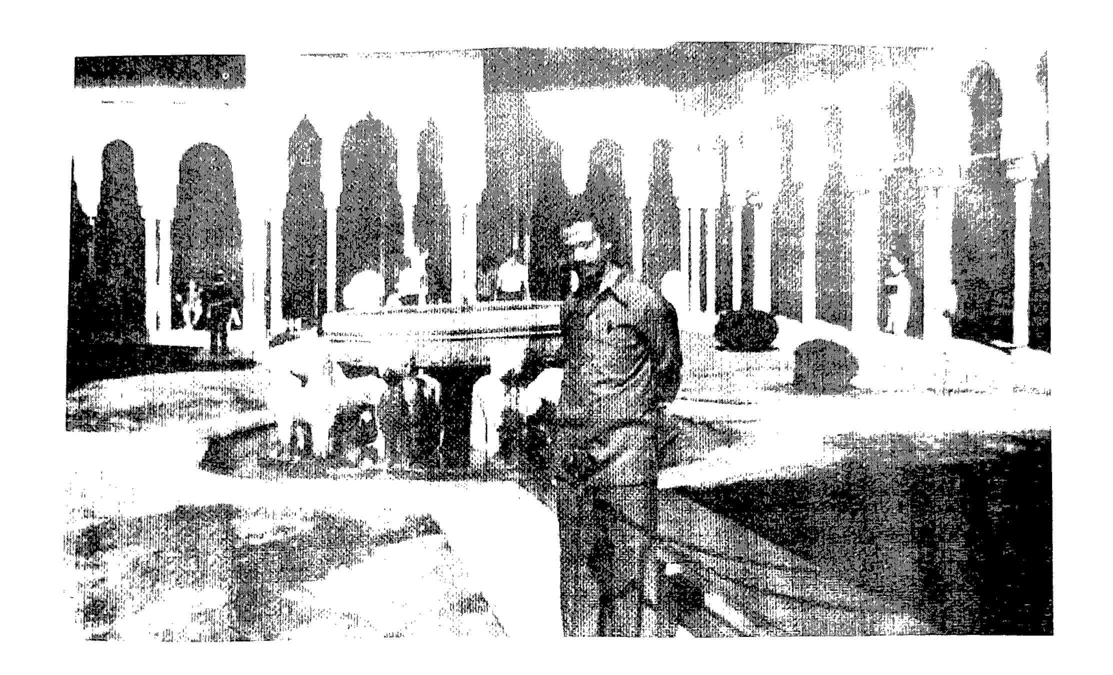
(٦٩) منظر للنقوش التي تزين الحمراء

وكما يبدو أن الكثير من هذه الأبيات التي أشار إليها الغزال قد انتهت بانتهاء المباني ، التي أزيلت أو شوهت ، وقصور الحمراء لاشك لم تعد باقية على ما كانت عليه ، فقد أصابها الهدم المنظم كما عمل (شارلكان) حين بنى صرحاً كبيراً على الطراز الروماني ، وشيده على أنقاض جزء من قصر الحمراء ، كما جاء الملك (فيليب) الخامس واستبدل بعض النقوش العربية بنقوش إيطالية ، ثم تعرضت هذه القصور لعوامل التعرية والخراب ، والحرائق والنهب ، وسكنها الغجر في فترة من الفترات ، ونهب الفرنسيون بعض النقوش ، أثناء غزوهم لإسبانيا ، ولم تقم الحكومة الإسبانية إلا أخيراً حين سجلت هذه القصور من ضمن المعالم القومية ، وبدؤوا يعتنون بترميمها ، والحفاظ على ما بقي فيها ، ولنعد إلى قصيدة ابن زمرك التي نقشت بعض أبياتها في النافورة التي تحملها اثنا عشر تمثالاً لأسد ، وقد نُقِشَ فيها أيضا اثنا عشر بيتاً ، ومن أبياتها :

تشابه جار للعيون بجامد | فلم تدر أيا منهما كان جاريا
ألم تر أن الماء يجري بصفحها | ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه | وغص بذاك الدمع إذ خاف واشيا

---

(١) في نفح الطيب المقطع الأخير ورد على النحو التالي « من الوشي تنسى السابري اليمانيا » .



(٧٠) في وسط ساحة الأسود

وهـل هي في التحقيـق غير غمـامـة ... تفيض إلى الآسـاد منهـا السـواقيـا
وقـد أشبهت كف الخليفـة إذ غـدت ... تفيض إلى أسـد الجهـاد الأيـاديـا
فيـامن رأى الآسـاد وهي روابض ... عـداهـا الحيـا عن أن تكـون عـواديـا

أمـا في الجـامـع ، فتقرأ بـالإضـافـة إلى النقـوش الغـالبـة وهي : ولا غـالب إلا الله ، أقبـل على صلاتـك ، ولا تكن من الغـافلين ، وفي مكان آخر ﴿ حَـافِظُوا عَلَىٰ الصّلوات وَالصَّلاة الوُسْطَىٰ وَقوموا للهِ قَانِتِينَ ﴾[١] .

ومعظم القـاعـات نـوافـذهـا قريبـة من المجلس ، يمكن للمرء أن يتكئ على فراش ، كالمفرج[٢] في صنعـاء ، ويقـال أن سكان هـذه القصور كانوا يجلسون على أنواع السجـاد ، ويتكئون على الـوسـائـد الحريرية ، ذات الألوان المتنـاسقـة مع المكان ، ويمكنهم رؤيـة المنـاظر الخـارجيـة بسهولـة ويسر من مقاعدهم .

هانحن وصلنا إلى قاعـة بني السراج ، وهي أسرة لعبت دوراً هـامـاً في أيـام السلطـان أبي الحسن وابنه أبي عبد الله ، وتقع في وسط القاعة بركة صغيرة في وسطها نافورة ، ويقـال أن تلـك البركـة قـد

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٣٨ .

(٢) المفرج في صنعاء هو المكان العالي تشاهد من نوافذه كثيراً من المشاهد .

ملئت بدماء أفراد هذه الأسرة عندما غدر بهم ، وتطالعنا بعض أبيات من قصيدة ابن زمرك :

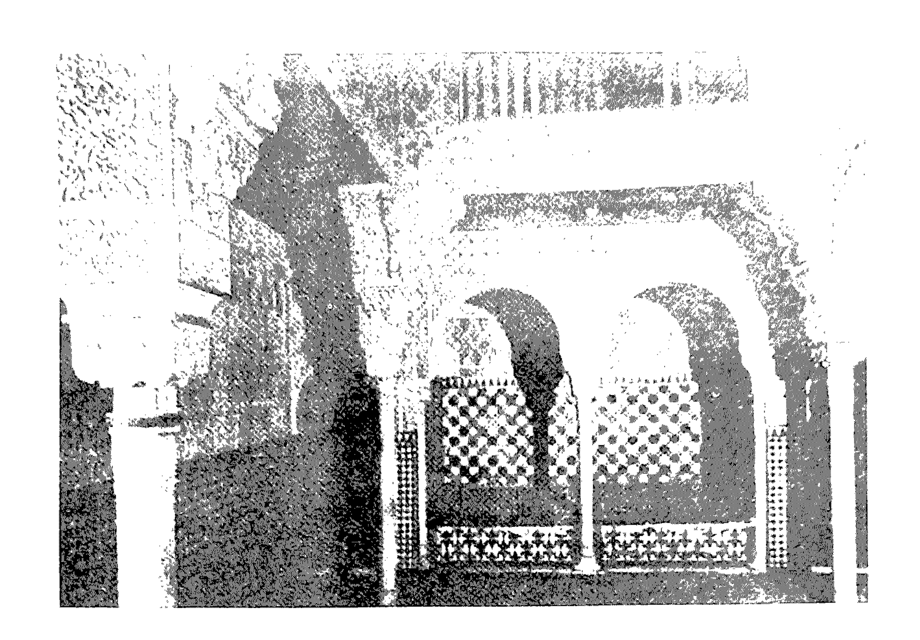
فتحسبهــا الأفــلاك دارت قسيهــا … تظـل عمـود الصبـح إذ لاح باديـا
وتهوى النجـوم الـزهر لـو ثبتت بـه … ولم تــك في أفــق السماء جـواريـا

ويشــاهــد المرء احمراراً لا شـك أنـه احمرار الرخـام في قاع البركة ، ولكن المرشـدين ينسبــون ذلــك الاحمرار إلى دماء بني السراج ، ويقـال أن البركـة الصغيرة قـد امتـلأت بدمـائهم ، وتجـد قـاع البركـة مليئة (بـالبستــات) العملـة الإسبــانيــة ترمى من بعض السيــاح ، والله أعلم مــاهي الحكمة من ذلك .

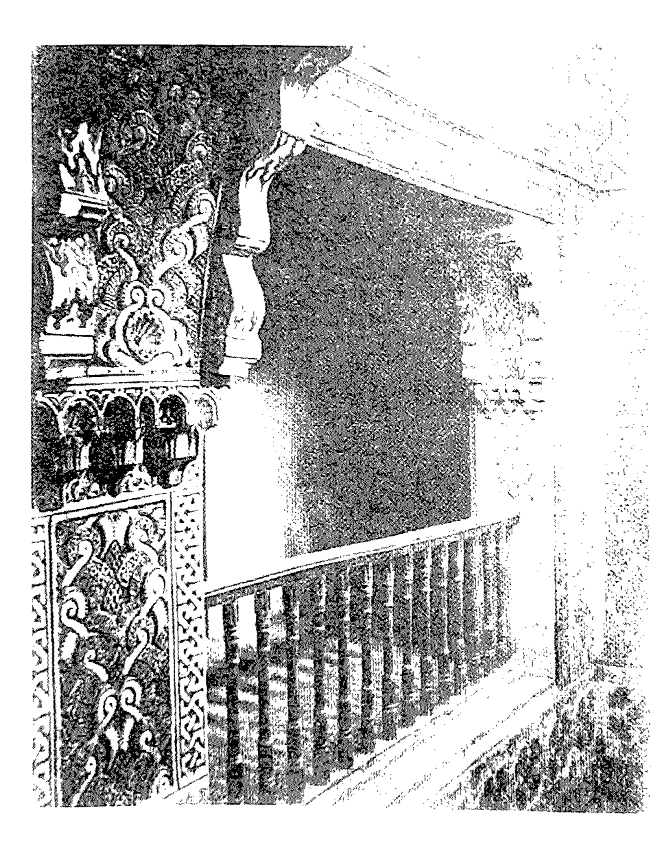
وهنـاك قصـائـد أخرى مرصعـة بهـا جـدران الحمراء ، فبهو السفراء زينت جـدرانـه بقصيدة :

(٧١) منظر من قاعة بني السراج

رقمت أنـامـل صـانعي ديبـاجي … من بعـد مـانظمت جـواهر تـاج
وحكيت كرسي العروس وزدتـه … أني ضمنت سعــادة الأزواج
من جــاءني يشكـو الظما فـوردي … صرف الـزلال العــذب دون مـزاج
فكأنني قــوس الغمام إذا بــدا … والشمس مـولانــا أبـو الحجـاج
ملـك تــدفـق بـالمـواهب كفـه … للســائلين تـــدفــق الأمــواج
لازال محروس المهـابــة مـاغـدا … بيت الإلــه مثــابــة الحجـاج



(٧٢) حمام الحمراء



(٧٣) الشرفات التي تطل على القاعة الساخنة

والقصيدة كثيرة الأبيات لم يكن لدي وقت كاف لنقل الأبيات الأخرى ، إذ أن ذلك يتطلب وقتاً وجهداً لا سيما مع وجود الترميات التي شوهت الكثير من الأبيات ، لولا أننا وجدنا أصول هذه القصائد في بعض المراجع(١) .

وما يكاد المرء ينهي زيارته لهذه القاعات ، حتى يصل إلى حمام الحمراء ، وهي تتكون من قاعة الاستراحة لخلع الملابس يلي ذلك قاعة دافئة ثم قاعة ساخنة ، وقد بقيت بعض القاعات بنقوشها وأصباغها إلى الآن ، وتطل على

(١) يمكن العودة إلى (فون شاك) الفن العربي في إسبانيا وصقلية ص ١٦٩ ـ ١٧١ .
و (محمد عبد الله عنان) الآثار الأندلسية الباقية ص ١٩٦ ـ ١٩٨ .



(٧٤) الحمراء لا توصف ولا تمدح بل تشاهد فقط

القاعة الساخنة شرفات كانت تستخدم كمجلس لفريق موسيقي - كما قيل لنا - أعمى يعزف الألحان بينما الأمراء والأميرات يسترخون في هدوء ، دون أن ينغص عليهم أحد هذا الهدوء ، أما في الحمام الساخن فقد كان المرشد يدق الأرض برجله ، والجدران بكفه ، ليثبت لنا أن القاعة تحتها وحولها تجويف للوقود ، وتعلوها قبة ذات زجاج ملون مع بعض الفتحات لخروج البخار ، وإذا ما انتهيت من زيارة هذه القاعات ، وخرجت إلى جنة العريف[1] منتزه أهل الحمراء ، وقد سبق ذكر هذه الجنة ، وقد اختارت الحكومة الإسبانية موقعاً في وسط هذه الجنة ليكون المكان الذي يقام فيه المهرجان الموسيقي الدولي كل عام ، وهو بحق موقع يصلح للخيال لينطلق فيه ، يصلح للموسيقى والشعر والجمال ، ويكفيني أن أقتبس هنا ماقاله الدكتور عبد العزيز الدولاتلي في كتابه (مسجد قرطبة وقصر الحمراء) وهو يصف لنا الحمراء[2] :

« ولو وصفنا الحمراء بكل صفات البذاخة والثراء والجمال والرونق ، ولو سميناها حسب أهوائنا دار المفاجآت ، ثم ألفنا فيها الكتب المتعمقة والمدائح الطويلة والأشعار البليغة ، لما خطر ببال من زارها وتنقل في أجنحتها وشاهد روائعها ، أن يتهمنا بالمبالغة والإسراف ، لأن الحمراء لا توصف ولا

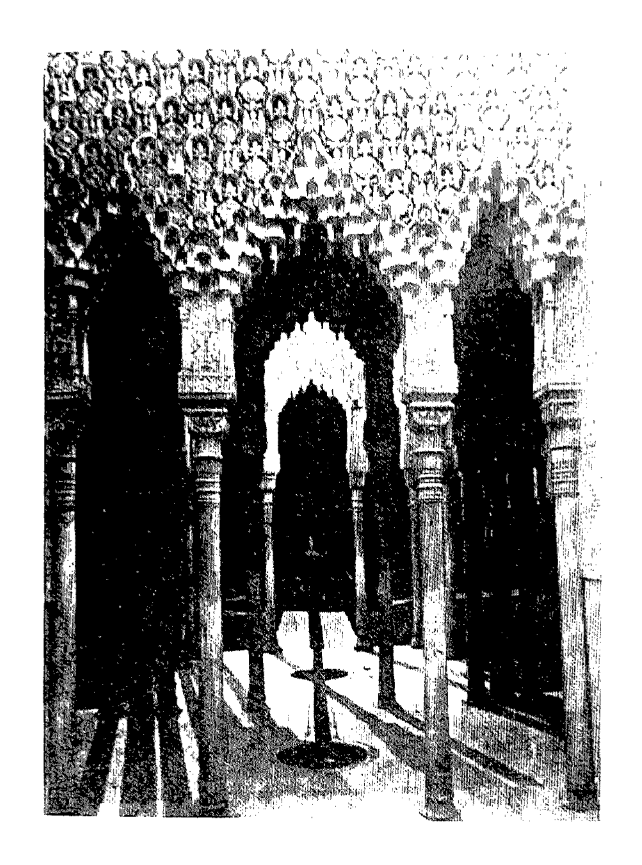
---

(١) Generalife .

(٢) انظر ص ١١٦ .

تمدح ، بل تشاهد فقط ، وأي ذاكرة تقدر على تسجيل واستحضار آلاف الصور والمشاهد الماثلة في كل مدخل ونافذة وزاوية » .

والزائر للحمراء أيضاً ، يسترعي انتباهه جبل صغير مقابل لقصر الحمراء توجد فيه كهوف عديدة ، ويقال أنها منازل للغجر ، ولكن بداخل هذه الكهوف أحدث ما وصل إليه العلم الحديث من وسائل الحياة ، كالتلفزيون الملون والغسالات الكهربائية ، هذا ماقاله لنا المرشد السياحي .

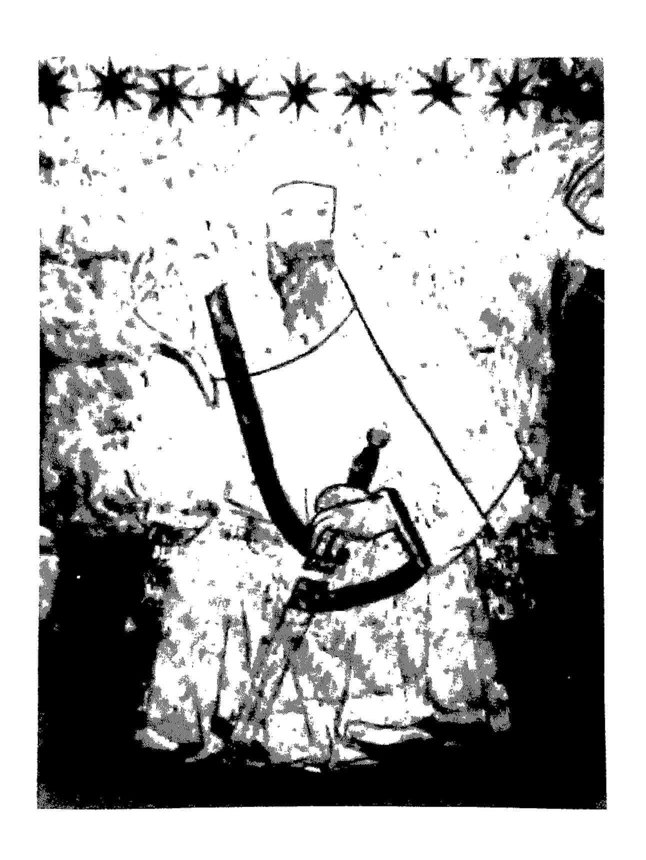


(٧٥) هكذا أبدع الفنانون العرب في نقوشهم



(٧٦) منظر أمام قاعة السفراء ويسمى فناء الريحان

والغجر في إسبانيا لهم شهرتهم ، وفي كهوفهم تقام حفلات (الفلمنكو) ، وهو الرقص الإسباني الشهير ، ويقال أنه قد ورث عن العرب ، وأثناء أداء الرقص ينشد المغني الموشحات بأصوات شجية ، ويرقص الراقصون ومعظمهم فتيات فرادى أو مثاني ، على إيقاعات الطبول مع دق الأرض دقات قوية منتظمة مع دقات الطبول ، ويقرعن الصنجات في أيديهن ، ويتلوين كالثعابين ، ويتصببن من العرق من كثرة الإجهاد .



(٧٧) شيخ عربي مرسوم مع مجموعة في سقف قاعة الملوك .

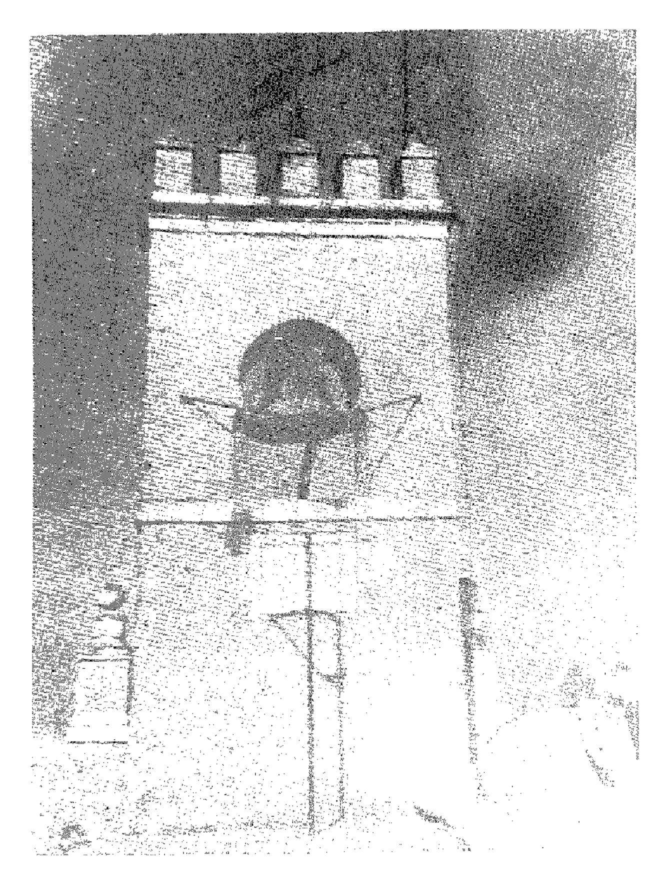
ولقد اختار الغجر هذا الموقع المقابل للحمراء ، بعد أن أجلوا من قصور الحمراء نفسها ، بعد أن اتخذوها سكناً لهم أثناء الحرب الأهلية الإسبانية .

في مدرسة الدراسات العربية :

زرت مكتب الاستعلامات في غرناطة لعله يرشدني ، هل هناك جمعية عربية أو إسلامية في غرناطة ، لعلي أستفيد أكثر أثناء بقائي في غرناطة ، فدلني على مدرسة الدراسات العربية ، وحدد موقعها واسمها باللغة الإسبانية (Escuela de Estudios Arabes) ، وهي قريبة من الحمراء ، دخلت المبنى - فإذا هو دار عربية ، قابلت في الدور الأول شيخاً إسبانياً في الستين من عمره ، سألته باللغة العربية ، اعتقاداً مني أن كل من يعمل في المدرسة يتكلم العربية ، إذ كنت أعتقد أنني سأجد فصولاً دراسية ، بل لربما أحضر بعض المحاضرات ، فإذا بي أجد الشيخ لا يفقه شيئاً من اللغة العربية ، حاولت معه باللغة الإنجليزية ، ولكن دون جدوى ولعله فهم ماأقصده ، وأرشدني إلى إحدى الغرف



في الطابق الثاني ، وبدأ يردد اسم (كمال) بنغمة إسبانية ، فأسرعت إلى الغرفة طالما والاسم (كمال) ، إذاً فهو عربي ، وخرجت سكرتيرة (كمال) ، ولم تفهم ما أقول ، وأدخلتني إلى عند الأستاذ (كمال) ، ووجدته يتكلم اللغة العربية بصعوبة ، إنه شاب في العقد الرابع من عمره ، كان يفكر كثيراً ليفهم ما أقول له ، ويفكر أكثر إذا أراد أن يتكلم ، وفهمت منه أن المدرسة تضم مجموعة من الباحثين ، لا يتجاوز عددهم أصابع اليد ، ومهمتهم عمل الدراسات والبحوث عن العصر العربي في الأندلس ، وبالتنسيق مع القسم العربي في جامعة مدريد ، كان من سوء حظي أن المكتبة في ذلك اليوم مغلقة .



(٧٨) الناقوس يرتفع على أعلى أبراج الحمراء

(٧٨) الناقوس يرتفع على أعلى أبراج الحمراء

كنت أرغب في الاطلاع على محتوياتها من مؤلفات باللغة العربية إن بقيت هناك مؤلفات ، فهمت من (كمال) أنه إسباني كاثوليكي ، وأنه تعلم اللغة العربية في إسبانيا نفسها .

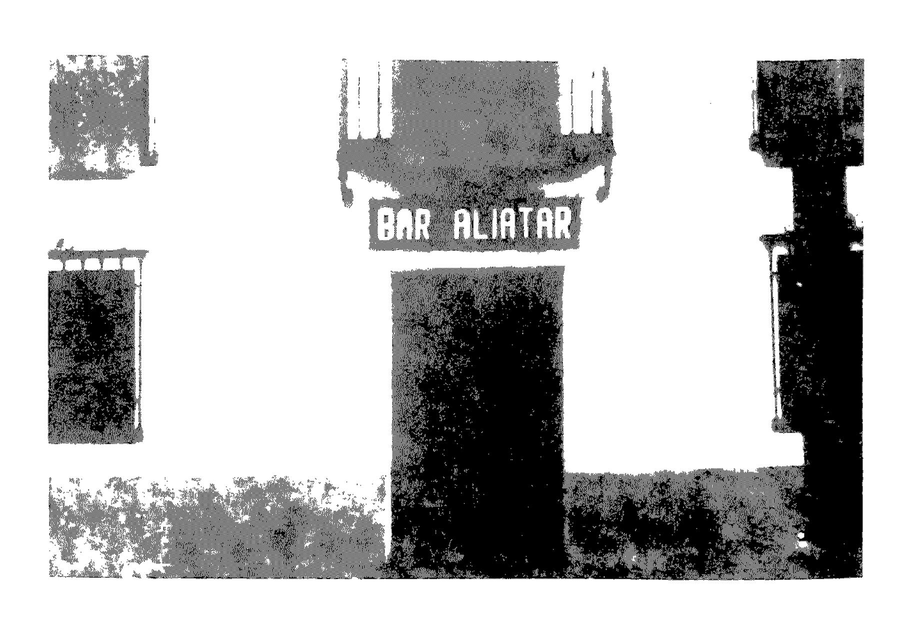
مواقع أخرى في غرناطة :

غرناطة كانت آخر معقل من معاقل الدولة الإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية ، سقطت كما أسلفنا عام ١٤٩٢ م ، أي قبل حوالي أربعمئة عام ، ورغم أن سكانها قد بلغوا حوالي نصف مليون نسمة ، فلم يبق من أحيائها وأسواقها وآثارها العربية إلا النزر القليل ، اللهم إلا درتها الخالدة الحمراء ، ورغم الندرة هذه فإن ما بقي يرتبط بأحداث وذكريات مؤلمة ، ولنستعرض بعض ما بقي :

أولاً   حي البيازين :

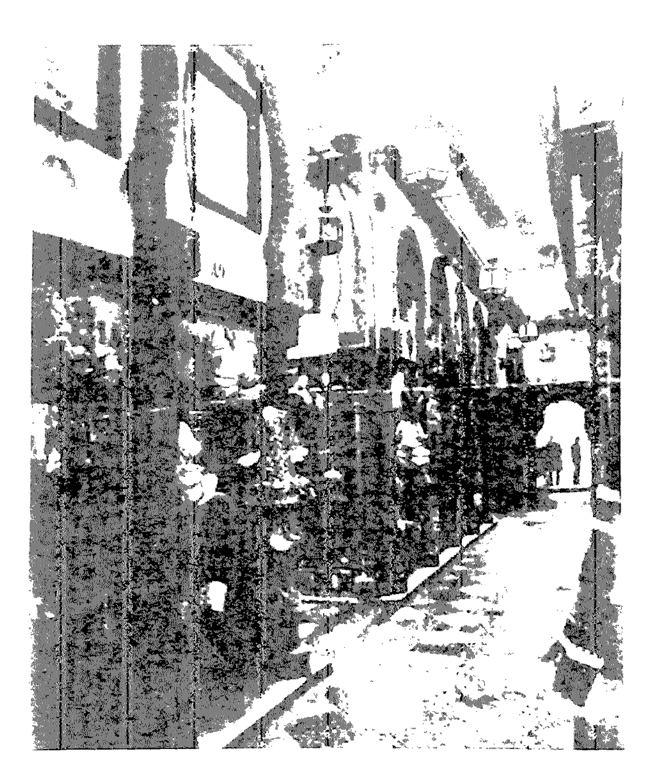
يعتبر أهم أثر بعد الحمراء ، وهو يقع في هضبة مقابل الحمراء ، شوارعه ضيقة صاعدة هابطة ، لازالت بيوته تحتفظ بطابعها الأندلسي ، وإن كان هناك كثير من المباني الجديدة التي تحل محل القديم المتهدم ، يحتوي على الكثير من الكنائس التي كانت في الأساس مساجد ، شهد عدة ثورات ، وأهمها

(٧٩) بيت عربي في حي البيازين



(٨٠) هكذا خلد اسم البطل العربي علي العطار!! وسيفه معروض في متحف مدريد الحربي

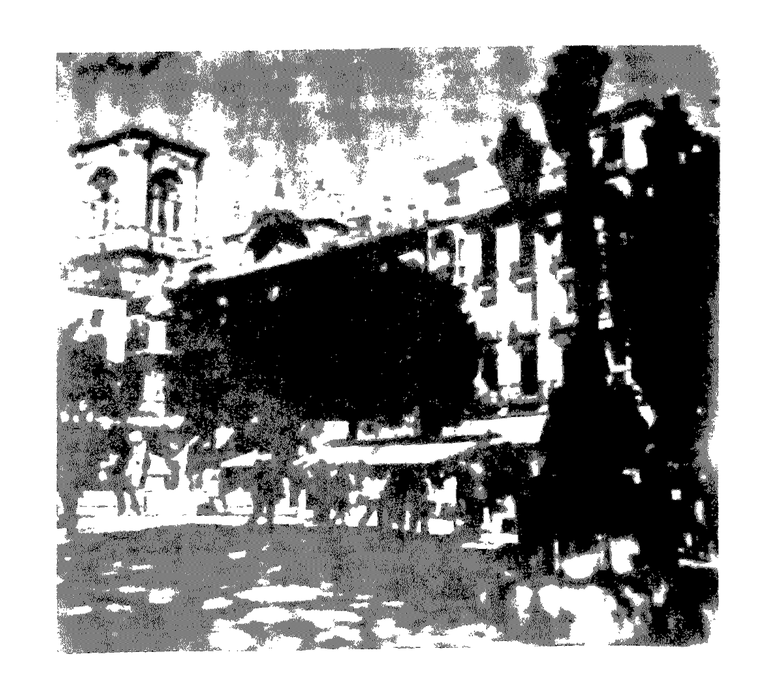
الثـورة التي نشبت عـام ١٤٩٩ م ، تجـولنـا فيـه عـدة مرات ، وشاهـدنا بعض المحلات العامـة التي تحمـل أسماء عربيـة ، ومنهـا مثـلاً اسم علي العطـار القـائـد العربي المشهور ، كتب على محـل بـاسم (BARALIATAR) كما في الصـورة واسم (ثريـا) ZURIA وهي زوجـة السلطـان أبي الحسن ، كتب على قهـوة كبيرة ذات فنـاء أنـدلسي جميـل ، والغريب أن نجمة داود (نجمة إسرائيل) تزين مدخل هذه القهوة ، وثريا كانت إسبانية تحمل اسم (إيزابلا دي سوليس) وكان لها دورها في تاريخ سقوط غرناطـة كما أسلفنـا وأصبح حي البيـازين بعـد سقوط غرناطة أهم معقل من معاقل المورسكيين .



(٨١) سوق القيصرية في غرناطة

ثانياً **القيصرية وباب الرملة والكتدرائية والجامعة العربية :**

القيصرية هي السوق العربيـة الوحيـدة المتبقيـة وتـدعى (ALCAICERIA) ، وتحتوي على مجموعة من الشوارع الضيقة ، وأعمدة محلاتها التجارية أعمدة شبيهـة بـأعمـدة الحمراء في سـاحـة السباع ، متوجـة بعقود منقوشـة نقوشـاً عربيـة جميلـة ، وفيهـا محلات تجـاريـة تبيع التحف والهـدايـا وصـور الحمراء ، ويمكن أن يخرج منهـا إلى ميـدان بـاب الرملـة (PLAZA BIBRAMBLA) ، وكان من أهم ميـادين غرنـاطـة في العصر العربي ، وفيـه أحرقت الكتب العربية ، وهو ميدان فسيح تحيط به المحلات التجارية ، وفي بعض أركانه القهـاوي وبـائعـات الزهور ، أما الجامعة فقد بناها يوسف أبو الحجـاج ١٣٤٩ م ، وهي مجـاورةلكنيسـة ، وكانت تدعى (الجامعة النصرية) .



(٨٢) ميدان باب الرملة الذي أحرقت فيه آلاف الكتب العربية



(٨٣) ما بقي من الجامعة العربية




(٨٤) التابوتان اللذان يحويان جثتا الملكين الكاثوليكيين وعند رأس الملكة تاجها

ثالثاً وبجوار القيصرية وميدان باب الرملة ، تقع **الكتدرائية العظمى** CATEDRAL وهي في الحقيقة تتكون من ثلاثة أجزاء :

١) الكتدرائية . CATEDRAL

٢) المعبد الملكي . CAPILLAREAL

٣) كنيسة من ناحية باب الرملة تسمى SAGRARIO

كل جزء من هذه الأجزاء لها مدخلها الخاص ، وقد بنيت في مكان الجامع الأعظم بعد إزالته ، وما يهمنا هنا هو المعبد الملكي ، الذي يتضمن معروضات ومشاهد ارتبطت بغروب فجر الإسلام في هذه الربوع ، ويرقد فيه الملكان الكاثوليكيان (إيزابيلا وفردناند) وبجوارهما أيضاً ثلاثة جثث لكل من (دونيا خونا لالوكا) و (دون فيليب الايرموسو) و (الأمير دون ميغيل) ويمكن مشاهدة الجثث الخمسة وهي في التوابيت عن طريق سلالم تؤدي إلى قبو ، وفوق القبو تماثيل للملكين وهما أموات ، وتماثيل لدونيا وزوجها فيليب ، والتماثيل من الرخام ، ويشمل المعبد الملكي على متحف يضم متعلقات الملكين الكاثولكين كتاج الملكة وسيف الملك والصولجان ، والأعلام التي استخدمت في حرب غرناطة ، بالإضافة إلى إنجيل (إيزابيلا) ، وثياب الملك (فردناند) ، وصندوق ذهبي صغير قيل إنه للملكة (إيزابيلا) ، ولكن ما يهمنا لاشك هو تلك النقوش التي تقع أمام القبور التي يحتويها هيكل

ضخم ، ويشمل عشرات المشاهد الدينية ، والتماثيل للرسل ، وفي نهاية ذلك الهيكل خلدت مشاهد للتنصير الإجباري لمسلمي الأندلس ، ولمشاهد تحتوي على صفوف من الرجال ، وصفوف من النساء المسلمين ، الذين يساقون بالقوة ، ليقفوا أمام حوض التعميد ، والقسس رافعي الصليب ، ويقومون بتعميد النساء والرجال ، حتى يصبحوا مسيحيين .

كما أن هناك مناظر في هذه النقوش ، تمثل أبا عبد الله وبيده مفاتيح الحمراء ، وخلفه صف طويل من النساء والرجال ، وهم خارجون من أحد أبواب الحمراء ، أما أحد النقوش فيمثل (سانت خيمس) وهو على ظهر جواده الذي يدعس بحوافره أعناق ثلاثة أشخاص بعمائم ، وهم ملقيون على الأرض ويقصد بهم المسلمين .

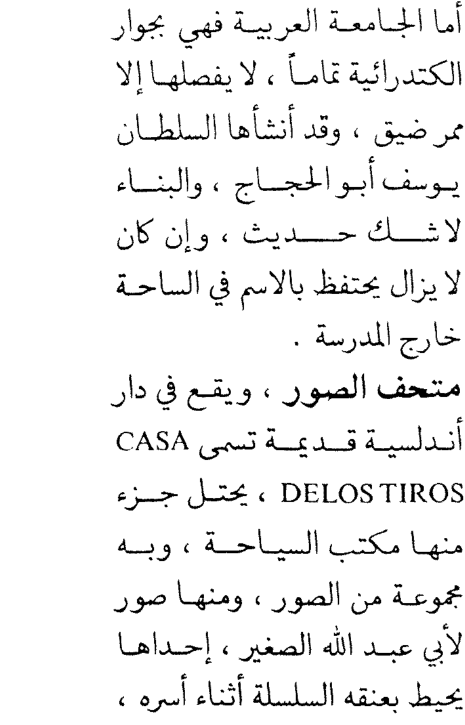
ويلاحظ الإنسان وهو خارج من المعبد الملكي ، لوحة زيتية معلقة فوق المدخل ، وتحتوي على صفوف طويلة من الفرسان المعممين ، يسبقهم أبو عبد الله وبيده مفاتيح ، ويقابل ذلك صفوفاً طويلة من الفرسان ، يحملون الصليب وفي مقدمتهم الملك (فردناند) والملكة (إيزابيلا) ويمثل مشهد تسليم مفاتيح غرناطة ، ويقال أن الذي رسمها (PARADILLO) وهو رسم لاشك حديث وخيالي .



(٨٥) الملك فردناند والملكة إيزابيلا تماثيل من الرخام في المعبد الملكي

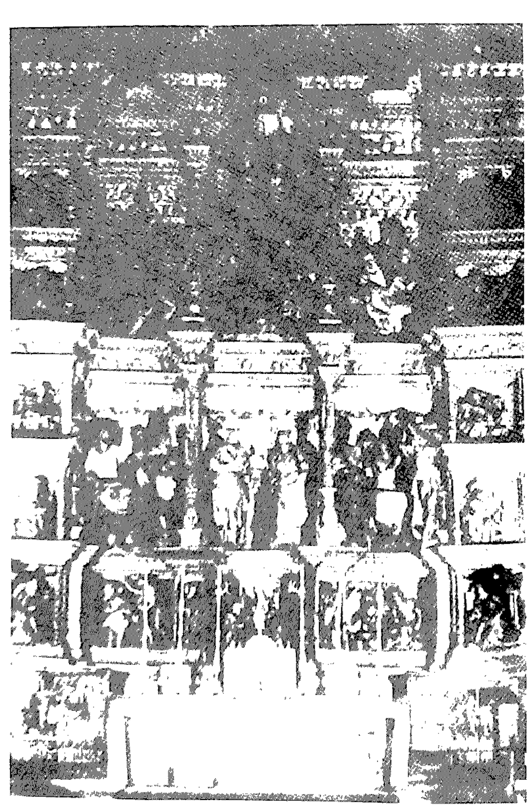


(٨٦) تمثالان من الرخام ليوحنا ابنة الملكين وزوجها فيليب الجميل



أما الجامعة العربية فهي بجوار الكتدرائية تماماً ، لا يفصلها إلا ممر ضيق ، وقد أنشأها السلطان يوسف أبو الحجاج ، والبناء لا شك حديث ، وإن كان لا يزال يحتفظ بالاسم في الساحة خارج المدرسة .

رابعاً **متحف الصور** ، ويقع في دار أندلسية قديمة تسمى CASA DELOS TIROS ، يحتل جزء منها مكتب السياحة ، وبه مجموعة من الصور ، ومنها صور لأبي عبد الله الصغير ، إحداها يحيط بعنقه السلسلة أثناء أسره ، وقد ساعدني على الحصول على صور أبي عبد الله



(٨٧) الهيكل الذي خلدت فيه عمليات التنصير للمسلمين



(٨٨) صفوف من المسلمين أمام القس

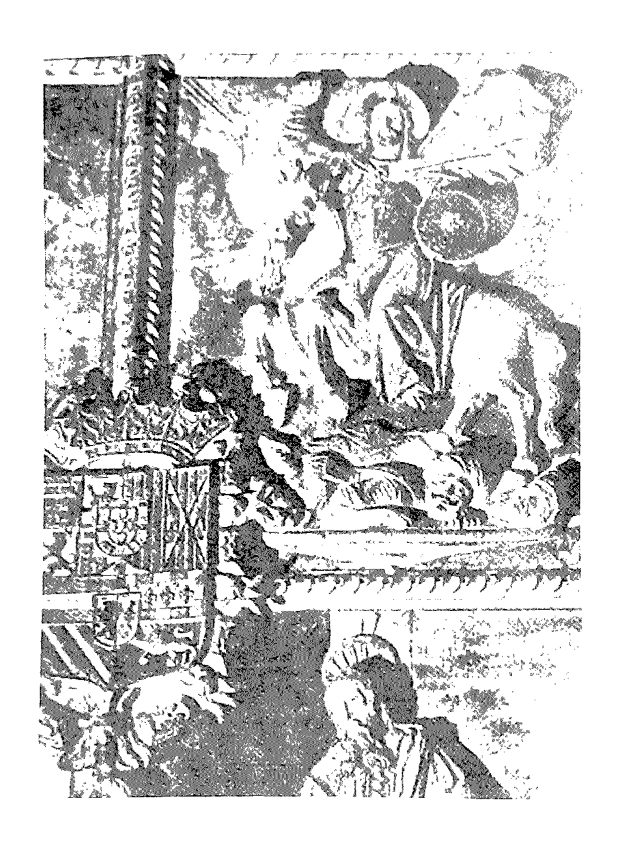
DON FRANCISCO DELOLIVA مدير المتحف ، وهو في نفس الوقت ، مدير متحف الحمراء ، وذلك مقابل رسوم معينة لصالح المتحف .

خامساً **دار البلدية** : وقد زرت دار البلدية في غرناطة (AYUNTAMIENTO)، التي توجد فيها اتفاقية تسليم غرناطة ، ودار البلدية مبنية على الطريقة الأندلسية ، وفي الوسط قاعة شمسية ، ويحتل

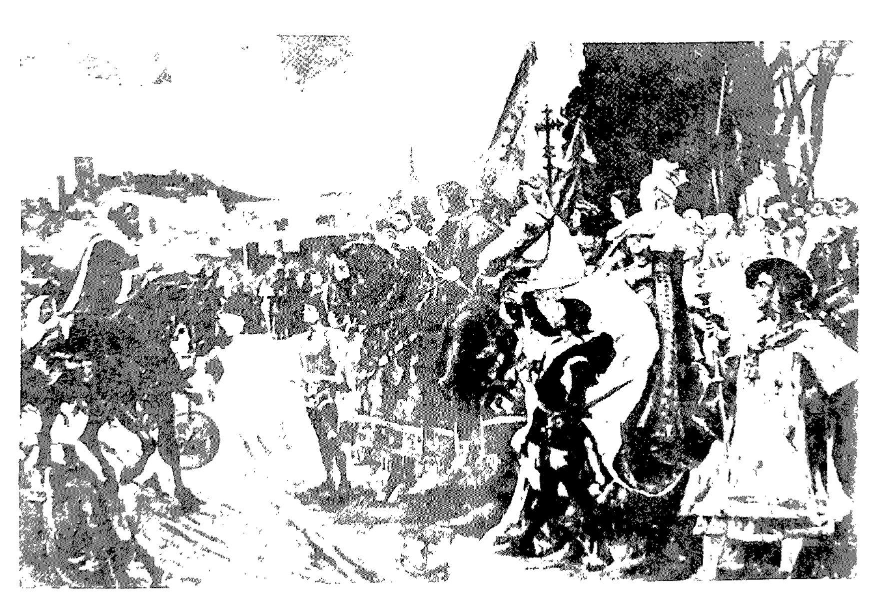


(٨٩) خروج أبي عبد الله من الحمراء

المدخل قسماً للشرطة ، مع نصبين بالحجم الطبيعي للملكين الكاثوليكيين ، وجزءاً من الدار يحتوي على متحف أنشيء في سنة ١٩٣٩ م ، ويحتوي من ضمن مايحتويه على أرشيف ، يحتفظ فيه بالكثير من الوثائق الخاصة بتاريخ غرناطة ، وخاصة بعد سقوطها ، وكثير من الرسائل الخاصة بالملكين الكاثوليكيين ، والموقعة بتوقيعهما منذ ١٤٩٠م، وبعض القرارات التي تحتوي على كثير



(٩٠) لوحة تمثل سانت خيمس الذي يدعس بحوافر فرسه رقاب المسلمين



(٩١) لوحة تمثل كيفية تسليم مفاتيح الحمراء



(٩٢) أبو عبد الله الصغير وفي عنقه سلسلة الأسر

من الوثائق والقرارات التي صدرت بشأن سكان غرناطة من المسلمين ، ومن أهم الوثائق التي يحتويها الأرشيف وثيقة تسليم غرناطة التي سبق أن أوردنَاها .

وقد اطلعت عليها ، وتقع في سبع صفحات ، وهي مكتوبة باللغة القشتالية . وتتكون من العديد من الفقرات ، كل فقرة تبدأ بخط عريض ، وقد ذيلت في الأخير بخاتم الملكين الكاثوليكيين ، وقد أحصيت ثمانية عشر توقيعاً في نهاية الاتفاقية .

ولكنني حاولت أن استطلع أي توقيع يحمل حروفاً عربية فلم أجد ، وحاولت أن أجد توقيع أبي عبد الله الصغير شبيهاً بما هو موجود في إقراره في متحف مدريد الحربي ولكنني لم أجده ،



MVSEO DE BELLAS ARTES
GRANADA

ALHAMBRA

El sr. AHMED. A. ALSMAWI, entrega MIL PESETAS (1.000.-) por la tasa que dispone el Patronato Nacio— nal de Museos, por derechos de reproducción fotográfica de la fotografia de BOABDIL CON ARGOLLA

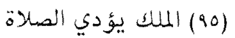
Granada 9 de Septiembre de 1.982

(٩٣) لم نحصل على صورة أبي عبد الله إلا بعد دفع الرسوم للمتحف



(٩٤) الملكة تؤدي الصلاة





(٩٥) الملك يؤدي الصلاة

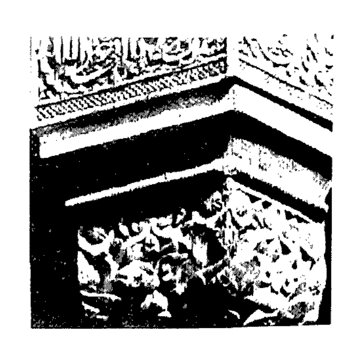
(١٦) جزء من الصفحة الأخيرة من وثيقة تسليم غرناطة وتحتوي على ختم الملكين الكاثوليكيين

وعلى العموم فقد حصلت على تصوير بالفوتوكوبي للصفحتين الأخيرتين ، والصفحة التي يقع عليها ختم الملكين الكاثوليكيين ومنشورة في هذا الكتاب .

وعلى العموم فقد أوردنا نصوص المعاهدة ، كما أوردها الدكتور محمد عبده حتاملة في كتابه (التنصير القسري لمسلمي الأندلس) ويشير الدكتور حتاملة إلى أنه قد رقمها من أجل زيادة التوضيح وأصبحت سبعة وأربعون مادة .

أما الأستاذ محمد عبد الله عنان ، فيشير إلى أن الاتفاقية قد شملت ستة وخمسين مادة ، أما المقري فيشير في نفح الطيب إلى أن شروط التسليم سبعة وستون شرطاً بينما وردت في قصيدة الاستغاثة المنشورة في هذا الكتاب ، أن الشروط خمسة وخمسون :

إلى غير ذاك من شروط كثيرة ... تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة



الفصل الثامن

حفلة غجرية

على أنغام الموشحات الأندلسية

اغنم زمان الوصل قبل الذهاب ... فالروض قد رواه دمع السحاب
وقد بدى في الروض سر عجاب ... ورد ونسرين وزهر الأقاح كالمسك فاح
والطير تشدو باختلاف النواح ... باكر إلى اللذة والاصطباح بشرب راح
فما على أهل الهوى من جناح

هكذا كنت استشف أن المغني الذي يشدو رافعاً رأسه إلى أعلى ، مغمضاً عينيه ، والفتاة الأندلسية تتلوى فوق خشبة المسرح ، كما يتلوى الثعبان ، وتارة تخطو على خشبة المسرح بشكل دائرة ، وهي مائلة بخطوات تقرع بكعبها أرض المسرح الخشبي ، والصنجات بأيديها ، فتوافق ضرباتها على الأرض مع نقرات الطبل ، وما أن تنتهي من دورها حتى تنهض فتاة أخرى ، لتؤدي رقصة أخرى ، أكثر عنفاً ، والذي يؤدي الغناء الموشح يغير أسلوبه مع تغير الرقصة التي تؤدى ، كنت أتخيل أن المنشد هذا يردد موشح ابن زهر ، أو كأنه ينشد موشح شاعر الحمراء ابن زمرك :

بالله يا قامة القضيب ... ومخجل الشمس والقمر
من ملك الحسن في القلوب ... وأيد اللحظ والحور
من لم يكن طبعه رقيقاً ... لم يدر ما لذة الصبا
فرب حرّ غدا رقيقاً ... تملكه نفحة الصبا

لقد كان هذا المشهد في ليلة من ليالي غرناطة على قمة تطل على الحمراء ، وغرناطة تتلألأ في أضواء باهرة ، أما الحمراء فقد كانت مسلطة عليها الأضواء بشكل رائع ، وعندما يشاهدها المرء من قمة أعلا منها في الليل ، يستشف أن هذه القصور لا زالت منحنية الرأس ، مهدمة الجوانب ، ترتفع على قمم مبانيها الصلبان ، وتتردد في جوانبها بين آن وآخر رنين أجراس الكنائس التي نصبت في قمة مئذنة المسجد ، والسياح بالمئات يتوافدون على هذا الموقع لمشاهدة الفلمنكو ، يحتسون النبيذ الإسباني ، وكأن حفلات النصر التي أقامها الإسبان لا زالت تقام إلى الآن ، وتخيلت غرناطة في أيام بني الأحمر ،

وهي في أوج مجدها ، وساكنوها وخاصة الأمراء يستمتعون بمباهج الحياة ، ويتبخترون في أروقة الحمراء المرصعة بشعارهم ، ولا غالب إلا الله ، وفي النهاية تتكالب عليهم المصائب ، ويسلمون في النهاية الحمراء ، ويرحل عنها أبو عبد الله الصغير ، ويقف بجوار القمة[1] التي تقام عليها رقصة الفلمنكو ، وهو يبكي ويتنهد وأمه تمسح دموعه ، وتقول له :

(٩٧) حفلة غجرية على أنغام الموشحات الأندلسية

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

لقد سمعت الموشحات الأندلسية في كثير من الأماكن العامة ، وتؤدى بصوت شجي ، يهز القلوب ويدمع الأعين ، ففي غرناطة اعتدت أن أتناول وجباتي في مطعم يجاور الفندق ، وهو مطعم واسع كان هناك بعض الأحيان شخصان يتباريان في إنشاد الموشحات ، وقد لاحظ أحد خدم المطعم أنني عربي ، فكان يصر إلا أن أتناول طعامي في القاعة التي هو مسؤول عنها ، وعندما ينشد المغني موشحه كان يهز رأسه ، ويقول لي أن الغناء عربي ، وقد أحضر إلي المنشد الذي ردد عدة ألحان أمامي .

لقد كان عليّ في اليوم الثالث من وصولي إلى غرناطة أن أرحل

أغرناطة العلياء بالله خبري ألِلْهَائم الباكي إليك طريق
وما شاقني إلا نظارة منظر وبهجة واد للعيون تروق

نعم لقد أنجزت المهمة ، وفي نفس الوقت كنت أشعر بالإجهاد ، فقد أمضيت خلال الأحد عشر يوماً التي أمضيتها في إسبانيا كثيراً من الوقت في القطارات ، وأكثر منه في المشي من منطقة أثرية إلى أخرى ، كنت أكرر الزيارة للأثر أكثر من مرة ، وكوني زائراً عربياً لهذه المناطق ، فقد كنت أشعر بالأسى والحسرة لما أصاب الأمة العربية الإسلامية في هذه الربوع من نكسة ، ويزداد حزني عندما

(١) هناك أكمه يزورها السياح تطل على الحمراء وتعرف باسم (زفرة العربي الأخيرة) وباللغة الإسبانية « EL ULTIMO SUSPIRODELMORO» وهي المكان التي وقف عليها أبو عبد الله الصغير بعد أن غادر غرناطة ، وأجهش بالبكاء وهو يرى قصور الحمراء .

ألتفت إلى واقعنا المعاصر ، لقد كان هذا الواقع يعكسه الراديو الصغير الذي حملته معي ، فقد كنت أسمع الإذاعات الموجهة إلى أوروبا ، والناطقة باللغة العربية ، وتهدف هذه الإذاعات لاكتساب المستمعين العرب المنتشرين في أوروبا والسائحين بها ، بل وحتى في أمريكا اللاتينية وجزر المحيط الهادي ، ونسيت الإذاعات العربية أنها فقدت مستمعيها في موطنها نفسه .



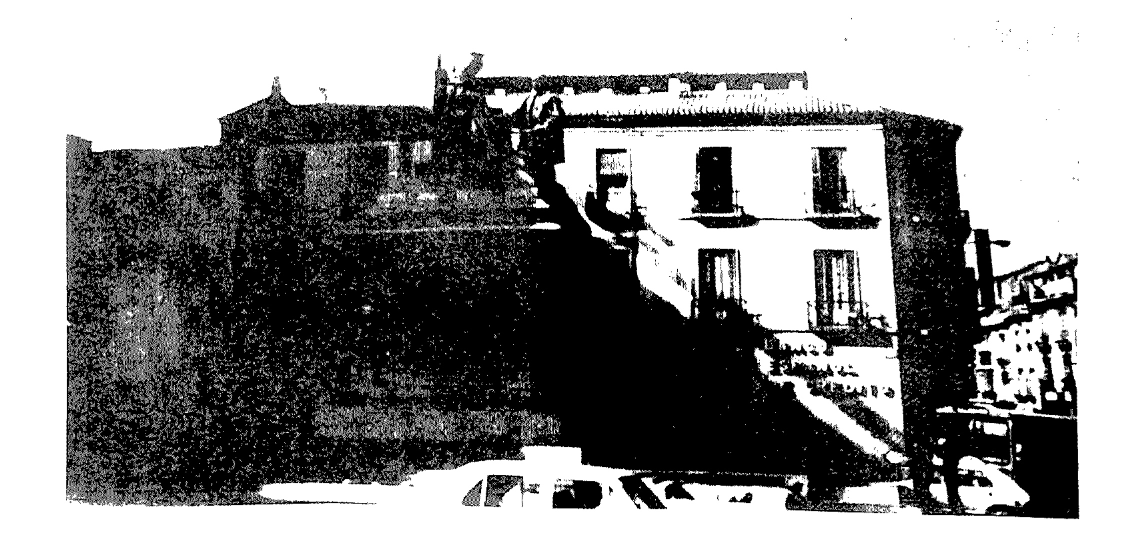
(٩٨) أبو عبد الله وصورة أخرى له

لقد أتيح لي أن أسمع معظم الإذاعات العربية ، ولم يحدث أن اتفقت إذاعة مع أخرى ، وإن كان الجميع يزايدون بالقضية ، كل بأسلوبه ، فالقتل والخطف والاعتقال والتشريد والنسف والتفجير والكبت ومصادرة الحريات وارتكاب كل ما حرم الله ، يمارس من أجل القضية ، وضاعت القضية الأولى (الأندلس) بسبب حالة العرب والمسلمين ، وضاعت القضية الثانية (فلسطين) لنفس السبب الأول

والليالي من الزمان حبالى مثقلات تلدن كل عجيبة

عدت إلى الفندق لأحمل حقيبتي بيدي إلى ميدان من ميادين غرناطة ، لأنتظر حافلة الخطوط الجوية الأيبيرية التي ستنقلني إلى المطار ، وفي وسط الميدان ينتصب تمثال للمنتصرة (إيزابيلا) يجثو أمام ركبتيها (كرستوفر كولومبس) وهو يعرض أمامها خطته لاستكشاف أمريكا .

و (إيزابيلا) هذه كانت أكثر تعصباً وأشد قسوة في معاملتها مع مسلمي غرناطة ، لقد كانت قريبة من رجال الكنيسة ، وكان لهم عليها سطوة ، وخاصة القس (خمنيس دي سيسنيروس) فهو



(٩٩) إيزابيلا يركع أمامها كرستوفر كولمبس

الذي أشرف على إحراق حوالي مليون وخمسمئة ألف كتاب ، تحوي إضافة إلى كتب الدين كتباً في التاريخ والأدب والعلوم ، لقد جمعت أكوام الكتب هذه ، وأشعلت فيها النيران ، في باب الرملة الذي لا يبعد كثيراً عن هذا المكان .

لقد كان من المنتظرين بجواري جندي إسباني فارع الطول ، فهمت منه أنه من جنود المشاة ، وفهمت منه أنه قد زار ألمانيا الغربية واليونان ، من ضمن مهات لحلف الأطلسي ، وعرفت أنه معجب بالآثار العربية . وأنه في إجازة لكي يزور والدته المريضة ، وجاءت الحافلة وصعدت مع الآخرين ، وأنا أرنو إلى الحمراء ، وأردد بعض أبيات نونية أبي البقاء صالح بن شريف ، والتي رثى بها الأندلس .



(١٠٠) سيسنيروس أشرف على عملية التنصير

لكل شيء إذا ما تم نقصان　　　فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول　　　من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لاتبقي على أحد　　　ولا يدوم على حال لها شان

أتى على الكل أمر لامرد له　　　حتى قضوا فكان القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ　　　كما حكى عن خيال الطيف وسنان

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية　　　وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم　　　من عالم قد سما فيها له شأن



الفصل التاسع

مشاهد محزنة

بعد سقوط غرناطة

حملتني الحافلة متجهةً نحو مطار غرناطة تلاحقني ماشهدت هذه المناطق من أحداث بعد سقوط غرناطة ، ابتدأها الفارس العربي المغوار موسى بن أبي غسان ، الذي أعلن التمرد على معاهدة التسليم مروراً بالمورسكي (الدون فرناندو دي كردوباوفالور) والذي أبى إلا أن يعود باسمه العربي وهو من سلالة بني أمية ، وسمى نفسه بمحمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة ثم ابن عمه مولاي عبد الله محمد الذي قُطِّعَ جسمه أربع أوصال ، ثم أحرق بعد حوالي ثمانين عاماً من سقوط غرناطة .

أما صاحبنا موسى بن أبي غسان ، فحين اجتمع كبار القوم في الحمراء ، الذي كان يتردد في جنباتها العويل والبكاء ، وهم على وشك تسليم قصور الحمراء ، رفض هذا الموقف ، وقال قولته المشهورة « اتركوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدموع ، ولكن لتقطر الدماء ، وإني لأرى روح الشعب قد خبت ، حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة ، ولكن مازال ثمة بديل للنفوس النبيلة ، ذلك هو موت مجيد ، فلنمت دفاعاً عن حريتنا ، وانتقاماً لمصائب غرناطة ، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه ، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لم يعدم سماء تغطيه ، وحاشا لله أن يقال : إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها »[(١)] .

نعم لقد كان يستشف موسى ماوراء الغيب ، فقد كان على يقين ، أن المعاهدة ستكون حبراً على ورق ، وأن كل ماسطر فيها ، ماهو إلا كذب وهراء ، فإن المدن ستدمر ، والمساجد ستحول إلى كنائس ، وأن الجميع سيفرض عليهم الدين الجديد ، ومن يتردد منهم سيكون مصيره السجون والأغلال ، وأن المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً ، سيساقون بالآلاف للتعميد والتنصير ، وأبى هذا القائد أن يرى مهانة التسليم ، فذهب ودجج نفسه بالسلاح من رأسه إلى أخمص قدميه ، وامتطى جواده الذي أثقله أيضاً بالسلاح ، واتجه الفارس الملثم نحو نهر شنيل ، وهناك التقى بثلة من فرسان

---

(١) محمد عبد الله عنان نهاية الأندلس ص ٢٥٥ .

النصارى ، يبلغ عددهم نحو خمسة عشر فارساً كان مسرعاً نحوهم كالسهم ، حاولوا استيقافه ، ولكنه أبى وانقض على جموعهم ، تلاحقه أصداء عويل بني جنسه في أبهاء الحمراء ، وهكذا ظل فاتكاً في مجموعة الفرسان النصارى ، حتى أفنى معظمهم ، وسقط أخيراً هو وجواده في مياه النهر ، مضرجين بدمائهم ، وابتلعه النهر ، وكأنه حقق قولته في الحمراء « لئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لم يعدم سماء تغطيه » .

نعم لقد بدأ موسى عصر الثورة والتمرد ، فما أن دخل الملكان الكاثوليكيان غرناطة إلا ورفعا الصليب على أعلى قمة في الحمراء ، إيذاناً بالقضاء على هذه الأمة التي دام حكمها ثمانية قرون ، واستعانا بمجموعة من القسس وعلى رأسهم الأب (إيرنادو دي تالافيرا) والأب (فرانسيسكو خمنيس دي سيسنيروس) وشكل ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي ، وسارت خطة القضاء على هذه الأمة في ثلاث اتجاهات :

١ - الحرب الدينية ، وقد تمثلت في إحراق الكتب العربية إذ بلغت الكتب التي أحرقت حوالي مليون ونصف كتاب ، معظمها تتعلق باللغة والفقه ، وتحويل المساجد إلى كنائس ، وسيق المسلمون بالآلاف للتعميد ، ثم تجهيز العديد من الفرق من المبشرين بالمسيحية ،تجوب المناطق الإسلامية ، لإدخال المسلمين في الدين المسيحي ، وقد قاوم المسلمون هذه الحرب الدينية مقاومة عنيفة ، وأهم ما لجؤوا إليه هو الإيمان السري ، فقد كان المسلمون يحضرون القداس يوم الأحد على مضض ، ولكنهم كانوا يؤدون الصلوات في بيوتهم سراً ، وخاصة الجمع ، وكانوا يعيدون غسل أطفالهم بالماء الحار بعد التعميد ، كانت العروس تعود من الكنيسة ، فتخلع ثيابها النصرانية وتلبس ملابسها العربية ، كانوا يحرصون على تعليم أولادهم الدين الإسلامي ، وقد بلغوا سن الثانية عشرة فما فوق ، بعد أن يثقوا بهم بعدم إفشاء الأسرار ونذكر هنا قصة رواها الأمير شكيب أرسلان في الحلل السندسية[١] ، كيف أن العالم النسابة سيدي محمد بن عبد الرفيع الأندلسي المتوفى في رجب عام ١٠٥٢ هـ ، وصف يوم كانوا بالأندلس ، حالة المسلمين الذين كانوا مضطرين تحت خطر الحرق بالنار ، أن يظهروا النصرانية وهم يبطنون الإسلام ، وكيف كان والد المؤلف المذكور ، يعلم ولده الإسلام سراً ويوصيه بأن يكتم ذلك حتى عن والدته وعمه وأخيه وجميع أقاربه ، وأن لا يخبر أحداً من الخلق بما يعلمه إياه في الخفاء ، ثم كان يرسل والدته إليه فتسأله : ما الذي يعلمك والدك فيقول لها : لا شيء ، فتقول له : أخبرني بذلك ولا تخف لأني عندي الخبر بما يعلمك ، فيقول لها : أبداً لم يعلمني شيئاً ، قال : وكذلك كان يفعل عمي ،

---

(١) انظر : ١/٣٨٠ - ٣٨١ .

وأنا أنكر أشد الإنكار ، ثم أروح إلى مكتب النصارى ، وآتي الدار فيعلمني والدي ، إلى أن مضت مدة ، فأرسل إلي من إخوانه في الله والأصدقاء ، فلم أقر لأحد قط بشيء ، مع أنه رحمه الله تعالى قد ألقى بنفسه للهلاك ، لإمكان أن أخبر بذلك عنه فيحرق لا محالة ، لكن أيدنا الله سبحانه وتعالى بتأييده ، وقد حدثت هذه القصة في طليطلة بعد حوالي خمسئة عام من سقوطها الذي تم في ٤٧٩ هـ ، ولما وجد ديوان التحقيقات أن الدين الإسلامي وتقاليده لا زالت متغلغلة في نفوس هؤلاء المتنصرين ، وضع مبادئ يمكن الاستدلال بها على معتنقي الإسلام خفية ، وأبلغ من رآها أو سمعها أن تبلغ إليه ، ليتم إنزال العقاب الصارم ، لقد كانت تؤخذ حتى شهادة الأطفال والنساء والعبيد ضد المتهم ، ومن هذه الصفات الاحتفال بيوم الجمعة ، وارتداء ملابس نظيفة ، أو استقبال المشرق (القبلة) ، أو النطق بالبسملة ، أو ذبح الماشية بالطريقة الإسلامية ، أو رفض أكل لحم الخنزير ، أو الذبيحة غير المذبوحة بالطريقة الإسلامية ، أو ختان الأولاد ، أو القسم بالقرآن ، أو الأكل في المغرب ، أو عند السحور ، والامتناع عن شرب الخمر ، أو الوضوء ، أو الزواج طبقاً للشريعة الإسلامية ، أو استعمال النساء للخضاب في أيديهن أو شعورهن ، أو غسل الموتى وتكفينهم بأثواب جديدة .

وهكذا ازداد البطش والتنكيل والإحراق ، ووجد المسلمون أنفسهم محاصرين حتى في بيوتهم ، بل وفي تصرفاتهم وأقوالهم ، وأمروا أن تترك بيوتهم مفتوحة ، حتى يتمكن رجال التفتيش من دخولها في الزيارات المفاجئة ، وعندما وصل الحال إلى هذا الحد ، بدأ علماء المغرب[1] يفتون بني قومهم ، عن كيفية ممارسة شعائرهم الإسلامية .

ومن هذه الفتاوى الصلاة ولو بالإيماء ، الزكاة ولو تقدم كهدية للفقراء ، التطهر من الجنابة ولو عوماً في البحر ، صلاة النهار يمكن قضاءها في الليل ، التيمم بدلاً من الوضوء ولو مسحاً بالحيطان ، إذا أكره الشخص للسجود للصنم وحضور صلواتهم ، فالنية هي الأساس ، وأنه يجوز الإشارة إلى ما يشيرون إليه من أصنام والمقصود بذلك الله ، إن أجبروا على شرب الخمر فيشرب لا بنية استعماله ، إن أجبروا على أكل لحم الخنزير فيأكلوه معتقدين تحريمه ، إن أجبروا على زواج بناتهم من مسيحيين فيزوجوهن معتقدين تحريمه لولا الإكراه ، وإن أكرهوهم على شتم النبي محمد فإنهم يقولون له ممد فيشتمونه ناوين أنه الشيطان ، وهكذا سار الحال ومثل هذا جانباً من الحرب الدينية التي لجأ إليها الإسبان .

---

(١) انظر نص الفتوى في « نهاية الأندلس » محمد عبد الله عنان ص ٣٤٢ ، تاريخ الرسالة كما يشير غرة رجب ٩١٠ هـ (٢٨ نوفمبر ١٥٠٤ م) .

٢ ـ الحرب الاقتصادية : وقد تمثلت في الحرمان من شراء الأراضي ، توزيع أملاك المسلمين على النصارى المنتصرين ، فرض ضرائب باهظة على ممتلكاتهم ، النهب والمصادرة للممتلكات ، منع المسلمين من التجارة في بعض السلع كالحرير والذهب والفضة والحلي والأحجار الكريمة ، منعهم من التنقل وعزلهم في مناطق محددة ومنع التجمعات الإسلامية الأخرى من الاتصال بهم .

٣ ـ الحرب والإبادة : عندما بلغ التعسف المسيحي مداه ، أبت البقية الباقية من المورسك الاستكانة لهذا الذل ، فقامت عشرات الانتفاضات ، وبرز العديد من القادة حتى ولو كانت أسماؤهم قد تحولت إلى أسماء قشتالية ، ويحدثنا التاريخ عن انتفاضة حي البيازين في عام ١٤٩٩ م ، ولكنها أخمدت في الحال ، ثورة البشرات سنة ١٥٠١ م ، والمرية ووادي آش وبسطة ، وقد قاد الجيش الأسباني الملك (فردناند) الكاثوليكي نفسه لإخماد ثورة البشرات ، ونشبت ثورة سرقسطة وبلنسية ، بعد صدور أمر ملكي في حوالي سنة ١٥٢٦ م ، والذي قضى « بإرغام سائر المسلمين الذين تنصروا كرهاً ، على البقاء في إسبانيا باعتبارهم نصارى ، وأن ينصر كل أولادهم ، فإذا ارتدوا عن النصرانية قضي عليهم بالموت والمصادرة ، وقضى الأمر في الوقت نفسه بأن تحول جميع المساجد الباقية في الحال إلى كنائس »[١] .

ولعل هذا الأمر قد صدر بعد أن اتضح أن الكثير من العرب المتنصرين يحاولون بيع ممتلكاتهم ، والنزوح إلى المغرب والعودة إلى الإسلام هناك ، وعندما كان يشتد التنكيل بالمسلمين في المناطق الحضرية ، كانوا يلجؤون إلى الهرب إلى الجبال ، ويحدثنا التاريخ عن أن الشعب المورسكي أعد العدة لقيام دولة مورسكية بقيادة أحد أبناء حي البيازين ويسمى (الدون فرناندو دي كردوبا وڤالور) .

« وكان هذا الاسم النصراني القشتالي يحجب نسبة عربية إسلامية رفيعة ذلك أن (فرناندو دي كردوبا وڤالور) كان ينتمي في الواقع إلى بني أمية » وقد احتفل بتتويجه ١٥٦٨/١٢/٢٩ م ، وقد ولى وجهه نحو الكعبة وصلى وأقسم يمين الولاء لله ودينه ، وأطلق عليه اسم محمد بن أمية صاحب الأندلس[٢] .

وقد كانت ثورته هذه ، لاشك نقمة على بني قومه في غرناطة وبقية المناطق الأندلسية ، إذ تعرضوا لكثير من المضايقات والرقابة من الإسبان ، وتوجه حاكم غرناطة في ذلك الوقت المركيز (دي مندبخار) ، وكانت الحرب سجالاً ، انتهت في النهاية بهزيمة محمد بن أمية وفراره ، وأسر

---

(١) انظر محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ص ٣٥٢ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ص ٣٦٥ .

أسرته ، ورغم أنه عاود الحرب ضد الإسبان ، إلا أنه قتل في النهاية على أيدي الأتراك الذين كانوا يحاربون معه ، نتيجة وشاية كاذبة صورت أنه كان يحاول التخلص منهم .

الموركسيون واستنجادهم بالعالم العربي والإسلامي :

بعث الموركسيون بعدة استغاثات إلى العالمين العربي والإسلامي ، ولأن المغرب العربي هو أقرب نقطة إليهم ، كما أن له الفضل في إطالة أمد الإسلام في ربوع الأندلس ، بفضل المرابطين والموحدين والمرينيين ، إلا أن المغرب في وقت محنة الموركسيين كان في حالة من الضعف والتفكك ، لم يتمكن من نجدة المستغيثين ، اللهم إلا كتائب من المتطوعين الأفراد ، الذين كانوا يساعدون إخوانهم كان في هذا التاريخ على رأس الأمبراطورية العثمانية بايزيد الثاني ، الذي دام حكمه من (١٤٨١ ـ ١٥١٢ م) فقد وجهت استغاثة محزنة مبكية في شكل قصيدة ، نورد نصها ، وهي لاشك تعبر تعبيراً عميقاً عن المأساة ، والقصيدة غير معروف قائلها[١] :

سلام كريم دائم متجدّد	أخص به مولاي خير خليفة
سلام على مولاي ذي المجد والعلا	ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام على من وسع الله ملكه	وأيده بالنصر في كل وجهة
سلام على مولاي من دار ملكه	قسنطينة أكرم بها من مدينة
سلام على من زين الله ملكه	بجند وأتراك من أهل الرعاية
سلام عليكم شرف الله قدركم	وزادكم ملكاً على كل ملة
سلام على القاضي ومن كان مثله	من العلماء الأكرمين الأجلة
سلام على أهل الديانة والتقى	ومن كان ذا رأي من أهل المشورة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا	بأندلس بالغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحر من الروم زاخر	وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم	مصاب عظيم يالها من مصيبة
سلام عليك من شيوخ تمزقت	شيوبهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت	على جملة الأعلاج[٢] من بعد سترة
سلام عليكم من بنات عواتق	يسوقهم اللباط[٣] قهراً لخلوة

(١) وردت القصيدة كاملة في كتاب الدكتور حتاملة سابق الذكر ص ٩٣ ـ ٩٩ ، كما وردت في نهاية الأندلس ص ٣٤٦ ـ ٣٤٨ .

(٢) الأعلاج جمع علج ، والعلج الرجل الضخم القوي من كفار العجم .

(٣) يقصد باللباط الكردينال (خمنيس سيسنيروس) الذي أشرف على تنصير المسلمين .

سلام عليكم من عجائز أكرهت على أكل خنزير ولحم الجيفة
نقبل نحن الكل أرض بساطكم وندعو لكم بالخير في كل ساعة
أدام الإله ملككم وحياتكم وعافاكم من كل سوء ومحنة
وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا وأسكنكم دار الرضا والكرامة
شكونا[1] لكم مولاي ماقد أصابنا من الضر والبلوى وعظم الرزية
غُدِرنا وَنُصِّرْنا وَبُدِّل ديننا ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة
وكنا على دين النبي محمد نقاتل عمال الصليب بنية
ونلقى أموراً في الجهاد عظيمة بقتل وأسر ثم جوع وقلة
فجاءت علينا الروم من كل جانب بسيل عظيم جملة بعد جملة
ومالوا علينا كالجراد بجمعهم بجد وعزم من خيول وعدة
فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرسانهم تزداد في كل ساعة وفرساننا في حال نقص وقلة
فلما ضعفنا خيموا في بلادنا ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاؤوا بأنفاط[2] عظام كثيرة تهدم أسوار البلاد المنيعة
وشدوا عليها في الحصار بقوة شهوراً وأياماً بجد وعزمة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا ولم نر من إخواننا من إغاثة
وقلت لنا الأقوات واشتد حالنا أطعناهم بالكره خوف الفضيحة
وخوفا على أبنائنا وبناتنا من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
على أن نكون مثل من كان قبلنا من الدجن[3] من أهل البلاد القديمة
ونبقي على أذاننا وصلاتنا ولا نتركن شيئاً من أمر الشريعة
ومن شاء منا البحر جاز مؤمناً بما شاء من مال إلى أرض عدوة
إلى غير ذاك من شروط كثيرة تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة[4]
فقال لنا سلطانهم[5] وكبيرهم لكم ماشرطتم كاملاً بالزيادة
وأبدى لنا كتباً بعهد وموثق وقال لنا هذا أماني وذمتي

---

(١) إشارة إلى استغاثات سابقة لم تتم الاستجابة لها .

(٢) نوع من الأسلحة كانت تستخدم في الحروب بين الإسبان والمسلمين ، وكان يستخدم أيضاً البارود .

(٣) يشير إلى المسلمين الذين وقعوا تحت حكم النصارى قبل سقوط غرناطة ، وكانوا يسمونهم مدجنين .

(٤) لربما أنه يشير إلى شروط معاهدة التسليم التي لم يتم الالتزام بها .

(٥) يقصد به الملك (فردناند) الكاثوليكي .

فكونوا على أموالكم وديـاركم كما كنتم من قبـل دون أذيـة
فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرنا بها ونَصَّرَنـا كرهـاً بعنف وسطوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف[1] وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان في أمر ديننا ففي النار ألقوه بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم ولا مصحفاً يخلى به للقراءة
ومن صام أو صلى ويعلم حاله ففي النار يلقوه على كل حالة
ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم[2] يعاقبه اللباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله ويجعله في السجن في سوء حالة
وفي رمضان يفسدون صيامنا بأكل وشرب مرة بعد مرة
وقد أمرونا أن نسب نبينا ولا نذكرنه في رخاء وشدة
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه فأدركهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم بضرب وتغريم وسجن وذلة
ومن جاءه الموت ولم يحضر الذي يذكرهم لم يدفنوه بحيلة
ويترك في زبل طريحاً مجدلاً كمثل حمار ميت أو بهيمة
إلى غير هذا من أمور كثيرة قباح وأفعال غزار رديـة
وقد بدلت أسماؤنا وتحولت بأسماء أعلاج من أهل الغباوة
واها على أبنائنا وبناتنا يروحون للباط في كل غدوة
يعلمهم كفراً وزوراً وفرية ولا يقدروا أن يمنعوهم بحيلة
واها على تلك المساجد سورت مزابل للكفار بعد الطهارة
واها على تلك الصوامع علقت نواقيسهم فيها نظير الشهادة
واها على تلك البلاد وحسنها لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة
وصارت لعباد الصليب معاقلاً وقد أمنوا فيها وقوع الإغارة
وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدى ولا مسلمين نطقهم بالشهادة
فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا إليه لجادت بالدموع الغزيرة
فيا ويلنا . يابؤس ما قد أصابنا من الضر والبلوى وثوب المذلة

(١) يشير إلى إحراق مليون وخمسئة كتاب عربي .
(٢) إلى الكنيسة .

سألناك يا مولاي بالله ربنا ... وبالمصطفى المختار خير البرية
وبالسادة الأخيار آل محمد ... وأصحابة أكرم بهم من صحابة
وبالسيد العباس عم نبينا ... وشيبته البيضاء أفضل شيبة
وبالصالحين العارفين بربهم ... وكل ولي فاضل ذي كرامة
عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا ... لعل إله العرش يأتي برحمة
فقولك مسموع وأمرك نافذ ... وما قلت من شيء يكون بسرعة
ودين النصارى أصله تحت حكمكم ... ومن ثم يأتيهم إلى كل كورة
فبالله يا مولاي منّوا بفضلكم ... علينا برأي أو كلام بحجة
فأنتم أولو الأفضال والمجد والعلا ... وغوث عباد الله في كل آفة
فسل بابهم[1] أعني المقيم برومة ... بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة
وما لهم مالوا علينا بغدرهم ... بغير أذى منا وغير جريمة
وجنسهم المغلوب في حفظ ديننا ... وأمن ملوك ذي وفاء أجلة
ولم يخرجوا من دينهم وديارهم ... ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة
ومن يعط عهداً ثم يغدر بعهده ... فذاك حرام الفعل في كل ملة
ولا سيما عند الملوك فإنه ... قبيح شنيع لا يجوز بوجهة
وقد بلغ المكتوب[2] منكم إليهم ... فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداء وجرأة ... علينا وإقداما بكل مساءة
وقد بلغت أرسال مصر إليهم ... وما نالهم غدر ولا هتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا ... رضينا بدين الكفر من غير قهرة
وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم ... ووالله ما نرضى بتلك الشهادة
لقد كذبوا في قولهم وكلامهم ... علينا بهذا القول أكبر فرية
ولكن خوف القتل والحرق ردنا ... نقول كما قالوه من غير نية
ودين رسول الله مازال عندنا ... وتوحيدنا لله في كل لحظة
ووالله ما نرضى بتبديل ديننا ... ولا بالذي قالوا من أمر الثلاثة[3]
وإن زعموا أنا رضينا بدينهم ... بغير أذى منهم لنا ومساءة

(١) يقصد بابا روما .
(٢) يشير هنا إلى الرسائل المتبادلة ، والتحذيرات بعدم اضطهاد مسلمي الأندلس .
(٣) يشير إلى التثليث عند النصارى الأب والابن وروح القدس .

فسل وحرا[1] عن أهلها كيف أصبحوا | أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة
وسل بلفيقا عن قضية أمرها | لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة
ومنيافة[2] بالسيف مزق أهلها | كذا فعلوا أيضاً بأهل البشرة[3]
وأندرش[4] بالنار أحرق أهلها | بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة
فها نحن يا مولاي نشكو إليكم | فهذا الذي نلناه من شر فرقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا | كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلا فيجلونا جميعاً من أرضهم | بأموالنا للغرب دار الأحبة
فإجلاؤنا خير لنا من مقامنا | على الكفر في عز على غير ملة
فهذا الذي نرجوه من عز جاهكم | ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة
ومن عندكم نرجو زوال كروبنا | وما نالنا من سوء حال وذلة
فأنتم بحمد الله خير ملوكنا | وعزتكم تعلو على كل عزة
فنسأل مولانا دوام حياتكم | بملك وعز في سرور ونعمة
وتهدين أوطان ونصر على العدا | وكثرة أجناد ومال وثروة
وثم سلام الله تتلوه رحمة | عليكم مدى الأيام في كل ساعة

ولكن كما يبدو أن بايزيد لم يستطع تلبية صرخة المورسكيين ، وذلك لانشغاله في الخلافات الأسرية ، وإهمال أوامره من جانب الانكشارية ، وقد اكتفى بتوجيه خطاب للملكين الكاثوليكيين ، واستنجد المورسكيون بسلطان مصر قانصوه الغوري (١٥٠١ ـ ١٥١٦ م) سلطان المماليك ، وقد قام السلطان بإرسال وفد للملكين الكاثوليكيين يحذرهم أنه سيجبر النصارى المقيمين في بلاده على الدخول في الإسلام قسراً[5] ، ولكن دون جدوى .

وهكذا تمكن حكام إسبانيا من تحييد العرب والمسلمين[6] ، من التدخل في صالح إخوانهم المسلمين

---

(١) اسم بلدة في البشرات جنوب غرناطة .

(٢) اسم بلدة في البشرات .

(٣) اسم بلدة في البشرات .

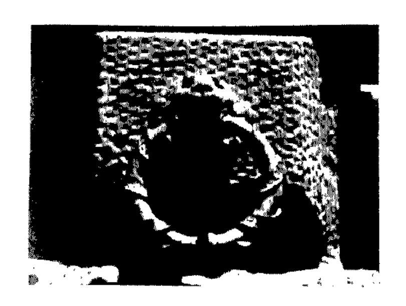
(٤) إقليم في البشرات ، وقد ورد ذكرها في الاتفاقية السرية Andarax .

(٥) راجع حتاملة (التنصير القسري لمسلمي الأندلس) ص ١٠٠ ، ومحمد عبد الله عنان (نهاية الأندلس) ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ .

(٦) التاريخ يعيد نفسه (كما يقال) فحال العرب المسلمين في العصر الحاضر لا يقل سوءاً عما كان عليه في أزمتهم في الأندلس ، فنحن نشاهد في تاريخنا الحديث مأساة فلسطين وكتائب المتطوعين الأفراد من العرب والمسلمين في صفوف المجاهدين الفلسطينيين ، بينما الدول العربية منها ماهي منتمية للشرق . ومنها ماهي منتمية للغرب . والغرب والشرق متفقان على بقاء إسرائيل ، وتحييد العرب والمسلمين .

في الأندلس ، ولكن كان هناك دائماً كتائب من المجاهدين المتطوعين من العرب والأتراك ، فقد كان هناك فرقة من المتطوعين الأتراك يحاربون في صفوف الموريسكيين بقيادة محمد بن أمية ، وابن عمه الذي خلفه مولاي عبد الله محمد الذي كان اسمه الموريسكي (ديجولوبيث) ولم يكن حظه بأحسن من ابن عمه محمد إذ لاقى حتفه على يد أحد المتطوعين المغاربة ، نتيجة حقد ومؤامرة حاكها الإسبان ، ورغم أنه قد مات ، وأصبح جثة خامدة ، فقد حملها الإسبان إلى غرناطة ، وهناك استقبلوها في حفل ضخم ، ورتبوا موكباً ركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل وعليها ثياب كاملة ، كأنما هي إنسان حي ، ومن ورائها أفواج كثيرة من الموريسكيين الذين سلموا عقب مصرع زعيمهم ، ثم حملت إلى النطع ، وأجرى فيها حكم الإعدام ، فقطع رأسها ، ثم جرت في شوارع غرناطة ، مبالغة في التمثيل والنكال ، ومزقت أربعاً . وأحرقت بعد ذلك في الميدان الكبير ، ووضع الرأس في قفص من الحديد ، رفع فوق سارية في ضاحية المدينة تجاه جبال البشرات[1] .

هكذا كانت النهاية انتقاماً حتى من الموتى ، كان ذلك في مارس سنة ١٥٧١ م .



(١) محمد عبد الله عنان « نهاية الأندلس » ص ٣٧٦ .



المراجع

(١) الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) حققه الدكتور إحسان عباس ـ دار صادر بيروت ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م.

(٢) محمد عبد الله عنان (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين) الطبعة الثالثة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة.

(٣) محمد عبد الله عنان (الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال) الطبعة الثانية ـ الناشر مؤسسة الخانجي بالقاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

(٤) الأمير شكيب أرسلان (الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية) الطبعة الأولى ـ المطبعة الرحمانية بمصر.

(٥) الدكتور عبد العزيز الدولاتي (مسجد قرطبة وقصر الحمراء) دار الجنوب للنشر ـ تونس.

(٦) أحمد بن مهدي الغزال (نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد)، حققه وقدم له إسماعيل العربي ـ دار الغرب الإسلامي بيروت ـ لبنان (الطبعة الأولى).

(٧) أحمد أمين (ظهر الإسلام) ـ الجزء الثالث. دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان الطبعة الخامسة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م.

(٨) دكتور محمد عبده حتاملة (التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين) (١٤٧٤ـ١٥١٦م). ساعدت الجامعة الأردنية على نشره ـ الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م.

(٩) الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي (تاريخ قضاة الأندلس). المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

(١٠) ليفي بروفنسال (الحضارة العربية في إسبانيا)، ترجمة دكتور الطاهر أحمد مكي دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى.

(١١) مجلة عالم الفكر (حضارة الأندلس) المجلد الثاني عشر (١) أبريل ـ مايو ـ يونيو ١٩٨١ م تصدر عن وزارة الإعلام في الكويت.

(١٢) ناجي جواد (رحلة إلى الأندلس) دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت ـ الطبعة الأولى.

(١٣) الدكتور ميشال عاصي ـ الشعر والبيئة في الأندلس ـ منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت.

(١٤) أميليو غرسيه غومث (مع شعراء الأندلس والمتنبي) سير ودراسات تعريب دكتور الطاهر أحمد مكي ـ الطبعة الثانية ـ يناير ١٩٧٨ م دار المعارف القاهرة.

(١٥) فون شاك (الفن العربي في إسبانيا وصقلية) ترجمة دكتور الطاهر أحمد مكي /دار المعارف/.

(١٦) Rafael Castejon Medina Azahara

(١٧) Oleg Grabar The Alhambra

(١٨) M. Lopezserrano El Escorial

مسرد الأعلام

« غ »

« ف »

« ق »

« ك »

« ل »

« م »

« ن »

« و »

« هـ »

مسرد الأماكن

« ص »

« ط »

« ع »

« غ »

« ف »

« ق »

« ك »

مسرد القبائل

مسرد الصور

مسرد الخرائط

مسرد الموضوعات

الموضوع | الصفحة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com